نحو بناء كشاف موضوعي للحديث النبوي

محي الدين عطية - الكويت

يعد هذا المقال تطويرا وتنقيحا لبحث مقدم إلى ندوة
(نحو موسوعة شاملة للحديث النبوي) الدوحة ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م .

مقدمة

ينطلق هذا البحث من فرضية مؤداها أن التكشيف الموضوعي للأحاديث النبوية الشريفة هو الأداة الرئيسة التي يمكن وضعها في أيدي العلماء والباحثين المعاصرين لمطالبتهم بالكشف عن الكنوز المعرفية التي تضمها السنة النبوية بوصفها مصدرًا للمعرفة بجانب كونها مصدرًا للهداية ومصدرًا للأحكام الشرعية .

إن تشكيل العقل المسلم في عالم الغد يتطلب من علماء هذا الجيل جهدًا كبيرًا في إعادة طرح فنون المعرفة البشرية طرحًا جديدًا ، ينطلق من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة متمثلاً غاية الخلق ومقاصد الشرع ونواميس الكون وفطرة البشر . ونحن ، نأمل ألا تكون فائدة أية موسوعة حديثية قاصرةً على علماء الحديث والفقه والتفسير ؛ بل تتعداهم إلى علماء النفس والاجتماع والسياسة والتربية والاقتصاد والإدارة والإعلام ، إلى هؤلاء العلماء الذين حجبتهم عن كنوز الوحي الإلهي نظم تعليمية فصلت ما بين الدين والدنيا ، فأثمرت للأمة ثقافة عرجاء تابعة ، قدمت وما زالت تقدم لأبنائنا زادًا مُنبتّ الصلة بديننا وهو جوهر حضارتنا .

إن أحدث التقنيات المعاصرة سوف يكون أثرها محدودًا ما لم توظَّف لخدمة السنة النبوية الشريفة ، حصرًا ، وتخريجًا ، وتخزينًا ، واسترجاعًا ، وشرحًا ، وتكشيفًا ، واجتهادًا شرعيًا ، وإبداعًا معرفيًا ، يتغلغل في كل جوانب حياة الأمة الإسلامية المعاصرة . ومن هنا تأتي أهمية التكشيف الموضوعي لأحاديث الرسول ﷺ .

إن هذا البحث يتعرض لبيان مفهوم التكشيف الموضوعي وأهدافه وطرائقه ، ثم لبيان عمليات التكشيف ومحظوراته وأدواته ، وأخيرًا يستعرض بعض النماذج العامة والمتخصصة ، التقليدية منها والتي توضح الشكل المأمول .

الله تعالى نسأل أن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن ينفعنا بما نعلم ، وأن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم .

الكشاف الموضوعي

إن أهم الأدوات التي تربط السنة النبوية الشريفة بالعلوم العصرية هي الكشافات الموضوعية ، تلك الكشافات التي تستخرج لنا من كنوز المكتبة الحديثية ما له دلالة اجتماعية ، وما له دلالة نفسية تربوية ، وما له دلالة سياسية إدارية ، وما له دلالة اقتصادية تنموية وهكذا ، حتى نتمكن بعد ذلك من إعادة بناء منظومتنا المعرفية المعاصرة على أسس إسلامية .

إن موسوعة مثل دائرة معارف العلوم الاجتماعية الأمريكية تستخدم الترتيب الهجائي بأسماء المواد في

مجلداتها المتعددة ، ومع هذا ، وبسبب طول المقالات ، فقد أعد لها كشاف هجائي تحليلي مفصل للوصول إلى دقائق المعلومات بهذه المقالات .

لقد اقترح العديد من الباحثين - خاصة من يجمعون بين الثقافتين ، الشرعية والمكتبية ، خططًا عشرية للتصنيف، تمتاز بقابليتها للتطوير والإنماء والتفريع والامتداد . كما أنها - بحكم ارتباطها بالرموز الرقمية - قابلة للتعامل مع تقنيات الحاسوب ، برمجةً ، وتخزينًا واسترجاعًا . إلا أن رءوس الموضوعات التي اختاروها تعكس في الأغلب تصنيف الفقهاء لكتب السنة ، وهذا التصنيف كان صالحًا لزمن تضخم فيه الفقه حتى ابتلع في داخله كل علوم البشر الاجتماعية ، بدءًا بإدارة الدولة وانتهاءً بمعالجة النفس البشرية ، ومرورًا بالاجتماع والسياسة والاقتصاد والقانون والتربية والإعلام والتاريخ وغير ذلك من الفروع التي تقوم عليها البنية العلمية والتعليمية في زماننا هذا . مما يجعلنا أمام مسئولية إنتاج أداة معاصرة صالحة للتعامل مع علوم العصر ، حيث لا مناص من تهيئة الكشافات التي تخدم هذه العلوم والمشتغلين بها أكثر من أية فئة أخرى . وإذا استطاع هذا الكشاف المأمول أن يجمع بين التصنيفين ، وأن يخدم الفئتين - فئة المشتغلين بالعلوم الشرعية ، وفئة المشتغلين بالعلوم الاجتماعية - فإنه يكون بذلك قد خطا بنا إلى الأمام خطوتين بدلاً من خطوة واحدة .

ما هو الكشاف الموضوعي للمكتبة الحديثية ؟

الكشاف الموضوعي هو دليل منهجي للمفاهيم التي تتضمنها المكتبة الحديثية . حيث تمثل هذه المفاهيم بمداخل مأخوذة من قائمة موضوعات عربية معتمدة ، أو مأخوذة من مكانز متخصصة .

عمليات التكشيف

وتمر عملية التكشيف بالمراحل الآتية :

١ - الفحص الدقيق والقراءة الواعية للنص الحديثي من قبل متخصصين في شتى العلوم الاجتماعية ، للتعرف على ما تشتمل عليه المادة من معلومات وأفكار .

٢ - وضع رءوس موضوعات للمفاهيم المستخلصة .

٣ - إضافة المكان الدقيق للمفهوم داخل المرجع الحديثي .

٤ - تجميع هذه المداخل في ترتيب هجائي واحد ، أو عمل كشاف مستقل بترتيب هجائي لكل فرع من فروع العلوم الاجتماعية (علم النفس - علم الاجتماع - علم السياسة - علم الاقتصاد - علوم التربية - الاتصال - الفلسفة - القانون - التاريخ - البيئة ... إلخ) .

٥ - إنشاء شبكة إحالات لإيجاد علاقات داخلية بين المداخل .

محظورات التكشيف

إن تحليل المفاهيم داخل النصوص النبوية يتطلب من المحلل فهم ما تتناوله الأحاديث من موضوعات ، كما يحتاج إلى معرفة جيدة باحتياجات المستفيدين من الكشاف . وهذا يتطلب مستوى عاليًا من التعمق في التخصص ، إلى جانب قدر مناسب من الثقافة الشرعية .

ويحسن التنبيه إلى محظور يقع فيه المكشف عندما يستعين بكتب الشروح . إن دور كتب شروح الحديث في عملية التكشيف . هو بعث الطمأنينة في نفس المكشف إلى أن المعنى الذي ذهب إليه إما قال به أحد الشراح ، أو لم يقل به أحد ، ولكنه لا يتعارض مع ما قيل فيه ولا يخرج عن القواعد العامة للشريعة واللغة العربية . ويقع المحظور عندما ينسى المكشف هذا الدور المحدود ، ويضع نفسه بين يدي الشراح، تاركًا النص النبوي ، مكشفًا النص الشارح، فإذا بنا أمام كشاف لكتاب مثل فتح الباري بدلاً من كشاف لصحيح البخاري .

إن تكشيف كتب تفسير القرآن الكريم ، وكتب شروح السنة النبوية أمر مطلوب ؛ بل إن تكشيف تراثنا كله وفهرسته أمل مطلوب ، ولكنه يختلف عن تكشيف نصوص آيات الكتاب الكريم وأحاديث السنة النبوية بوصفها أصلين ومصدرين لثقافتنا ومنظومتنا المعرفية .

وهناك محظور آخر قد تتعرض له عملية التكشيف عندما ينسى المكشف دوره المحايد ، وينساق في دراسة القضية الفقهية المستنبطة من الحديث ، ويستعرض آراء

الفقهاء فيها ، ثم يرجّح منها رأيًا يختاره عنوانًا ورأسًا للموضوع الذي يندرج الحديث تحته ، مثال ذلك أن يضع الحديث تحت عنوان : تحريم كذا .. أو كراهية كذا .. أو وجوب فعل كذا .. ذلك أن هذه المصطلحات (التحريم والكراهة والإباحة والاستحباب والوجوب وغيرها) هي مصطلحات فقهية تحمل مفاهيم محددة ينصرف إليها الذهن مباشرة عند سماعها . والأولى بالمكشف - بوصف مهمته تقديم أداة البحث للباحثين - أن يضع عنوانًا عامًا مثل : حكم كذا .. أو النهي عن فعل كذا .. أو الحث على فعل كذا .. تاركًا تفصيل الحكم للباحث ، الذي سيقوم بضم الحديث إلى غيره من الأدلة لدراسة القضية دراسة مستوفاة .

أما المحظور الثالث فهو أن يستهل المكشف نقل رءوس الموضوعات التي استعملها شراح الحديث في مختلف الأزمنة - والتي كان معظمها لخدمة الفقه - ليضعها في كشافه كما هي دون بيان دلالتها التي تربطها بعلومنا الاجتماعية المعاصرة . إن الكشاف الناتج عن مثل هذا المسلك السهل لن يزيد على كونه ترقيعًا لفهارس كتب الشروح ، وبالتالي لن يكون ذا نفع كبير للباحثين المعاصرين .

إن المكشف - بوصفه متخصصًا - مطالب باستحضار مفاهيم تخصصه أمام ناظريه وهو يقرأ الحديث حتى تتقدح الفكرة في ذهنه فيرجع إلى الشروح اللفظية والمعنوية للاطمئنان على فكرته قبل أن يثبتها . فأحاديث الجهاد يجب أن تجد لها مكانًا تحت رءوس الموضوعات الخاصة بالعلاقات الدولية ، وأحاديث الآداب تندرج بشكل تفصيلي تحت موضوعات السلوك الاجتماعي، وأحاديث الرقائق نبحث عن دلالاتها النفسية والتربوية ... إلخ .

إن الكشاف الموضوعي لا يلوي معاني الأحاديث لكي تطابق مفاهيم اجتماعية معاصرة ، وإنما هو أداة محايدة لا تتخذ موقفًا أو رأيًا تجاه القضية المطروحة ، وإنما مهمة هذه الأداة أن تستخرج القضية من بين المتون وتفردها تحت رأس موضوع ، لتنبيه الباحثين إلى أن هذا الحديث له علاقة بما يبحثونه وعليهم بعد ذلك أن يدرسوا هذه العلاقة ، مستعينين بالمناهج العلمية المناسبة لهم .

أدوات التكشيف

ويستعين المكشف عادة بقائمة رءوس الموضوعات المتخصصة طبقًا للكشاف الذي سينتجه ، وهنا سيواجه بنقص في القوائم العربية المتخصصة ، وسيضطر إلى استخدام قائمة من القوائم العامة المنشورة .

وقد يلجأ المكشف إلى أداة أخرى هي المكانز المتخصصة ، والمكنز أو قائمة المصطلحات المتخصصة هي إطار للعلم يحدد فروعه ومفرداته والعلاقات المنطقية بين المصطلحات ، هو بمثابة شجرة للمادة العلمية تبدأ بعنوانها الرئيس ، وتأخذ في التفرع حتى تصل إلى أصغر وحدة معرفية تابعة لهذا الإطار ، وعادة ما يلحق بها قائمة تضم المصطلحات نفسها ، ولكن بترتيب هجائي مطلق لا يهتم بالعلاقة بين المصطلح والمصطلح السابق عليه أو اللاحق به .

وهذه المكانز نادرة في اللغة العربية ، ولكنها مطلوبة بعدّها تطويرًا لقوائم رءوس الموضوعات التي تقتصر على الترتيب الهجائي للمفردات .

وإذا كان التوجه المستقبلي لخدمة السُنَّة يعتمد على تقنية الحاسوب في التخزين والاسترجاع ، فإن استعمال المكانز في تكشيف الأحاديث يكون أنسب من استعمال قوائم رءوس الموضوعات التقليدية .

نماذج الكشافات

وفيما يلي نموذج يبين كيف يظهر الكشاف الموضوعي المعتمد على قائمة رءوس موضوعات تقليدية :

نموذج من الكشاف الموضوعي لأحاديث وآثار صحيح البخاري (يعتمد على قائمة رءوس موضوعات هجائية) .

أولاً : طلب الفهرس الرئيس :

عند طلب الفهرس تظهر قائمة رءوس الموضوعات الرئيسة تباعًا بترتيبها الهجائي على الشاشة .

* الآباء

* الأخرة
* الآداب
* آدم (عليه السلام)
* آزر
* آسية (امرأة فرعون)
* إبراهيم (ابن النبي صلى الله عليه وسلم)
* إبراهيم (عليه السلام)

... وهكذا

وعند اختيار آدم (عليه السلام) - على سبيل المثال - تظهر القائمة الثانية .

ثانياً : طلب الفهرس التفصيلي :

وهي قائمة بالعناوين الفرعية ، وأمامها أرقام رمزية . (وهي هنا أرقام الأحاديث) التي وردت بها في كتاب فتح الباري حيث إن هذا الكشاف قاصر على صحيح البخاري (١) .

(*) آدم (عليه السلام)

- اعتذاره عن الشفاعة يوم القيامة	٤٧١٢
- أمره بإخراج بعث النار يوم القيامة	٣٣٤٨
- أول من يدعى يوم القيامة	٦٥٢٩
- صفته	٣٣٢٧

ثالثاً : طلب نص الحديث :

فإذا طلبت نصوص الأحاديث - بأرقامها التي أمامها- جاءت كاملة ، أو ظهرت أطرافها التي تضم الموضوع ، مع ذكر مكانها في الموسوعة بالتفصيل :

* آدم (عليه السلام) :

- اعتذاره عن الشفاعة يوم القيامة	«... فيقول آدم: إن ربي قد غضب غضبًا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيته ، نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ...» ٤٧١٢ . كتاب التفسير : باب سورة بني إسرائيل .
- أمره بإخراج بعث النار يوم القيامة	«... يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : اخرج بعث النار ، قال : وما بعث النار ؟ ، قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ...» ٣٣٤٨ كتاب بدء الخلق : باب قصة يأجوج ومأجوج .
- أول من يدعى يوم القيامة	«أول من يدعى يوم القيامة آدم...» ٦٥٢٩ . كتاب الرقاق : باب كيف الحشر .
- صفته	«خلق الله آدم وطوله ستون ذراعًا..» ٣٣٢٧ . كتاب بدء الخلق : باب خلق آدم.

رابعاً : الحصول على نسخة مطبوعة :

فإذا أريد الحصول على نسخة مطبوعة من النصوص الواردة تحت موضوع معين ، يطلب طبع الصفحات الظاهرة على شاشة الحاسوب ، فيحصل الباحث على ما يريد ، مستوعبًا ، وموثقًا ، ومصنفًا ، ومفصلًا في دقائق معدودة .

نموذج للكشاف الاقتصادي للأحاديث النبوية

وهو نموذج لكشاف تقليدي متخصص في العلوم الاقتصادية ، وليس قاصرًا على صحيح البخاري ، وإنما هو تكشيف لكتاب جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد للفاسي (٢) ، وهو كتاب يضم أربعة عشر كتابًا من كتب السنة .

وقد جاء في مقدمة الكتاب :

«إن الباحث في مجال الاقتصاد الإسلامي ليجد بعض العنت عندما يلجأ إلى كتب السنة النبوية ليستخرج منها أدلته ، أو ليستهدي بها في تعزيز نظريته . ذلك أن ترتيب معظم كتب النصوص الحديثية قائم على أبواب الفقه ، حيث تتناثر القضايا الاقتصادية فيها دون معيار واحد . فتارة تتجمع كما في الزكاة ، وتارة أخرى تتفرق كما في العمل والأجور» .

وإذا ما أدخل هذا الكتاب في الحساب ، فستأتي

رءوس الموضوعات الرئيسة

أ	البيع	الرزق	الضمان	القصد
الأجر	ت	الرقبى	ط	القضاء
الاحتكار	التجارة	الرهن	الطعام	ك
الأداء	التسعير	ز	ع	الكذب
الأرباح	ج	الزروع	العارية	الكسب
الأرض	الجوع	الزكاة	العدوى	الكفاف
الاستثمار	ح	س	العسر	الكيل
الاستهلاك	الحرف	السلع	العشور	م
الأسواق	الحلف	السلف	العمرى	المبادلة
الإطعام	الحنطة	السلم	العمل	المزارعة
الإفلاس	خ	السمسرة	العيلة	المسكنة
الاقتصاد	الخداع	السؤال	العيوب	المعايش
الإقطاع	الخمس	ش	غ	المغانم
الأمانة	الخيار	الشراء	الغش	المكوس
الإمساك	د	الشركة	الغصب	الملكية
الأموال	الدخل	الشفعة	الغنى	ن
الإنفاق	الدرهم	ص	الغيث	النقود
الأنفال	الدنيا	الصدق	ف	و
ب	الدينار	الصدقات	الفقر	الوزن
البخل	الديون	الصفقات	ق	الوقف
البر	ر	ض	القحط	الوكالة
البركة	رأس المال	الضرائب	القروض	
البنيان	الربا			

رءوس الموضوعات الرئيسة التالية أمام الباحث ليختار منها (يلاحظ أنها رءوس موضوعات فقهية وليست اقتصادية معاصرة في معظمها) .

ثم تأتي قائمة رءوس الموضوعات الفرعية بالصورة التالية :

الاقتصاد

الإقطاع

الأمانة

الإمساك

الأموال

- إفسادها
- اكتسابها
- تفاضلها
- توريثها
- تلفها
- الجهاد بها
- حرمتها
- حقها
- صلاحها
- عصمتها
- كثرتها
- أموال الزوجة
- أموال السلطان
- الأموال والائتمان
- الأموال والصدقات

الإنفاق

- تعويضه
- الحث عليه

– الإنفاق على الأبناء – الإنفاق على الأصحاب
– الإنفاق على الأهل – الإنفاق على الدابة
– الإنفاق على الزوج – الإنفاق على القرابة
– الإنفاق من الحرام – الإنفاق والإيمان

الأنفال

– قسمتها – نسبتها
– الأنفال والخمس

البخل

– التنفير منه

البر

البركة

البنيان

– التطاول فيه

البيع

– الخداع فيه – الخيار فيه

فإذا اخترنا موضوعًا كالإقطاع ، وجدنا فيه ثلاثة أحاديث ، أخرج الأول أبو داود والترمذي ، وأخرج الثاني أبو داود ، وأخرج الثالث مالك في موطئه ، كما هو مبين في هذه الصفحة المأخوذة من الكتاب المذكور [٣] :

الاقتصاد

* الاقتصاد في النفقة نصف المعيشة
١٣ (٢٧٨)

الإقطاع

* عن أبيّض بن حمال أنه وفد إلى النبي ﷺ فاستقطعه الملح الذي بمأرب ، فقطعه له .
٣ ٤ (٤٥٤٦) .
* أن النبي ﷺ أقطع بلال بن الحارث المزني معادن القبلية ...
٣ (٤٥٤٤)
* أنه ﷺ أقطع بلال بن الحارث معادن القبلية ، وهي من ناحية الفرع ، وتلك المعادن لا يؤخذ منها إلا الزكاة حتى اليوم .
٧ (٤٥٤٥)

الأمانة

* التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء
٤ (٤٥٩٣)
* لأن يلبس أحدكم ثوبًا من رقاع شتى ، خير له من أن يأخذ بأمانته ما ليس عنده .
١٣١١٨ (٤٦٠٨)

الإمساك انظر أيضًا البخل

* ... اللهم أعط ممسكًا تلفًا .
١ ٢ (٢٧٧٧)

الأموال انظر أيضًا : رأس المال ، النقود

نموذج لكشاف موضوعي في مجال الصحة النفسية (يعتمد على مكنز متخصص وليس على قائمة رءوس موضوعات هجائية)

الانحراف :

* «كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون» ...
* «لولا أنكم تذنبون لخلق الله خلقًا يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم» .... متفق عليه

الانحرافات الباطنة :

* «من كانت الدنيا أكبر همه جعل الله فقره في عينيه وفرق عليه شمله ولم يأته منها إلا ما قدر له» .... رواه مسلم .
* «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب» .... متفق عليه .

التوازن النفسي :

* قال ﷺ لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما «ألم أخبر أنك تصوم النهار وتقوم الليل ؟» قال : بلى يا رسول الله قال : «فلا تفعل : صم وأفطر ، نم وقم ، فإن لجسدك عليك حقًّا وإن لعينك عليك حقًّا وإن لزوجك عليك حقًّا وإن لزورك عليك حقًّا» .... رواه البخاري

التوافق النفسي :

* «الكيّس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ،

والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني» .

التوافق المهني :

* «ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده» .... رواه البخاري

السعادة الحسية :

* «إن في بضع أحدكم صدقة» قالوا أيأتي أحدنا شهوته وله في ذلك أجر ؟ قال : «انظروا لو وضعها في حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا بلى قال: «كذلك لو وضعها في حلال ، له في ذلك أجر» .... رواه مسلم
* «أخشى ما خشيت عليكم كبر البطن ، ومداومة النوم والكسل» .... رواه أحمد

تحقيق الذات :

* «خير الناس أنفعهم للناس ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه ، لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به» .... متفق عليه

الخواطر :

* «إن الله عز وجل تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم به» .... رواه مسلم

نموذج لكشاف موضوعي في مجال علم البيئة (يعتمد على مكنز متخصص وليس على قائمة رءوس موضوعات هجائية)

مشكلة الغذاء :

السلوك الغذائي :

* «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن كان لابد فاعلاً فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» .. رواه الترمذي

مشكلة التلوث :

التلوث المائي :

* «لا يبولن أحدكم في الماء الراكد» رواه البخاري

التلوث المائي والأرضي :

* «اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الماء وفي الظل ، وفي طريق الناس» .... رواه أبو داود

مشكلة المرور :

* «إن المؤمن ليؤجر في إماطة الأذى عن الطريق» رواه الترمذي .
* «إماطة الأذى عن الطريق صدقة» ... متفق عليه .
* «من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة» .... رواه البخاري
* «الإيمان بضع وستون أو وسبعون شعبة أدناها إماطة الأذى عن الطريق» .... متفق عليه

مشكلة التصحر :

* «من أحيا أرضًا ميتة فهي له» ...... رواه أبو داود والترمذي .

حماية المحيط الحيوي :

* «ما من مسلم يغرس غرسًا أو يزرع زرعًا فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة» ..... متفق عليه
* «من قتل عصفورًا عبثًا عج - أي رفع صوته بالشكوى - إلى الله يوم القيامة يقول يارب إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني منفعة» .... رواه النسائي وابن حبان .

كلمة أخيرة :

إذا كانت السنة النبوية الشريفة كنزًا من كنوز العلم والمعرفة - فضلاً عن كونها أصلاً من أصول الفقه والتشريع - فإن الكشافات هي المفاتيح التي توصلنا إلى مواطن هذه الكنوز ، وتيسر لنا مسالكها ، وتوفر جهودنا لمهمة أجلّ وأكبر ، وهي مهمة استلهام هذه الكنوز بما تحمله من الهدي النبوي ، القادر على إعادة بناء علومنا ومعارفنا ، وإلى إعادة تشكيل ثقافتنا ، بعد أن شوهتها قرون الانحطاط ، وطمستها عقود الاستعمار الحديث .

وإن الأمل معقود على المهتمّين بالسنّة النبويّة أن يُسهموا بإيجابية وفعالية في تحقيق هذا الطموح ، والله الهادي إلى سواء السبيل .

الهوامش

١ - الإشارة هنا إلى : «الكشاف الموضوعي لأحاديث صحيح البخاري» من إعداد المؤلف ، ونشر : المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م .- ٧٦٦ ص .- (سلسلة الأدلة والكشافات - ٢) .

٢ - محي الدين عطية : الكشاف الاقتصادي للأحاديث النبوية الشريفة .- بيروت : مؤسسة الرسالة ، والكويت : دار البحوث العلمية ، ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .- ١٢٨ ص .

٣ - «١- البخاري ٢ - مسلم ٣ - أبو داود ٤ - الترمذي ٥ - النسائي ٦ - ابن ماجه ٧ - مالك ٨ - أحمد ٩ - الدارمي ١٠ - أبو يعلى ١١ - البزار ١٢ - الطبراني الكبير ١٣ - الطبراني الأوسط ١٤ - الطبراني الصغير .

المراجع

* الأدب الإسلامي : إنسانيته وعالميته / عدنان علي رضا النحوي .- الرياض : دار النحوي للنشر، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م .- ٣٣٨ ص ؛ ٢٤ سم .
* البيئة والإنسان : رؤية إسلامية / زين الدين عبدالمقصود .- الكويت : دار البحوث العلمية ، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م .- ٣٠٣ ص؛ ٢٤ سم .
* التكشيف لأغراض استرجاع المعلومات / محمد فتحي عبدالهادي .- القاهرة : مكتبة غريب ، ١٩٧٧م .- ٢١٢ ص ؛ ٢٤ سم .
* الكشاف الاقتصادي للأحاديث النبوية الشريفة / إعداد محي الدين عطية .- الكويت : دار البحوث العلمية، بيروت مؤسسة الرسالة ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.- ١٢٨ ص ؛ ٢٤ سم .
* الكشاف الموضوعي لأحاديث وآثار صحيح البخاري / إعداد محي الدين عطية .- واشنطن : المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م .- ٧٦٦ص .- (سلسلة الأدلة والكشافات - ٢) .
* المدخل إلى علم الصحة النفسية / كمال إبراهيم مرسي .- الكويت : دار القلم ، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م .- ٢٧٢ص .- ٢٤ سم .- (الإسلام والعلوم الإنسانية) .



فئات رانجاناثان: جذعها عربي وجذورها في اليونان

فوزي خليل الخطيب
مكتبة جامعة اليرموك
إربد – الأردن

ملخص

المقال في التصنيف بعامة، وبأصله وفلسفته بخاصة. يبدأ المقال بذكر مقالتين منشورتين في أدب المكتبات، ثم ينتقل إلي المقولات العشر عند أرسطو وتعريفها، وذكر آراء فلاسفة الإسلام فيها؛ وينتقل بعد ذلك إلي فورفوريوس وكلياته الخمس، ثم يعرض المقولات الحديثة، وأخيرا يتناول فئات رانجاناثان محاولاً ردها لأصولها ونقدها؛ وتجيء الخاتمة موضحة الصلة الوثيقة بين التصنيف والفلسفة وهي صلة الفرع بالأصل.

مقدمة

استوقفتني مقولتان منشورتان في أدب المكتبات، وعلى الرغم مما بينهما من مفارقات تتصل بالمؤلفين من حيث العلم والثقافة والإنتاج الأدبي والقدرة على البحث إلاّ أن المقولتين تقعان في دائرة التصنيف، وتلتقيان عند المنبع، وتنتهيان إلى جذر واحد.

أمّا المقولة الأولى: فصاحبها عبدالوهاب أبو النور [1] أبو التصنيف العربي المعاصر؛ وفحوى المقولة أن رانجاناثان هو أول من ابتكر وقنّن صيغة للأوجه، بل أول من ابتكر المادة. وبعد خمسة سطور من السياق يستدرك أبو النّور ليصدمنا بتوكيده بأن رانجاناثان استخدم لفظ مقولة ليعبّر عن الفئة الأصلية؛ وهو متأثر في ذلك بمقولات أرسطو العشر التي أرجع إليها كل أنواع الأشياء، ولقد استخدم رانجاناثان هذا اللفظ في سياق التصنيف، ولذلك فلا شأن لنا بما قاله المناطقة عن هذه المقولات.

وأمّا المقولة الثانية: فوردت في معجم موسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات [2] – أجنبي المداخل وعربي الشروح –، وهي مقولة تحت المدخل الأجنبي: Porphyry , tree of [3]، وقد ترجم المؤلفان هذا المدخل الأجنبي إلى العربية ترجمة تتفق مع ثقافتهما وعلمهما فكانت: «شجرة بورفيري».

ويستلزم الأمر وقفة متأنية عند هاتين المقولتين لتسجيل بعض الملاحظات الملحة التي لا تحتمل الإرجاء، أما التفاصيل فستترد في ثنايا النص. وفيما يلي ملاحظات عامة تتصل بالمقولة الأولى:

١ – جمع أبو النور رانجاناثان المبتكر مع رانجاناثان المتأثر بمقولات أرسطو، وتنطوي هذه المقولة على تناقض بيّن بين القضيتين؛ ومن يستعير فكرة غيره ليس مبتكرًا، وقد عالجت الفلسفة بعامة والمنطق بخاصة معظم المفاهيم التي تضمنها تصنيف الكولون، وتغيير المسميات لا يلغي حقيقة الدلالات.

٢ – كان على أبي النّور – وهو عالم تصنيف – أن يبحث عن جذور فئات رانجاناثان عند العرب تأصيلاً وعند اليونان أصلاً، ولو فعل ذلك لما نعت رانجاناثان بالمبتكر، أو لقدّم دليلاً يدعم هذا النّعت.

٣ – إذا كان بكر كل [4] شيء: أوّله، وابتكر الشيء [5]: ابتدعه على غير مسبوق إليه؛ فإن الدّلالة اللغويّة لا تسجّل لرانجاناثان براءة اختراع. وإذا كان المصطلح: ابتكار أو اختراع أو ابتداع يعني [6] من حيث المدلول العام توفيق أو تنسيق بين عناصر حضارية موجودة لابتكار عنصر جديد منها فإن الدّلالة الاصطلاحية

لا تسمح بتسجيل رانجاناثان في قائمة المبتكرين أو المخترعين .

أما الملاحظات الخاصة بالمقولة الثانية والمعجم الذي تضمنها فهي :

١ - إن المصطلح الصحيح هو «شجرة فورفوريوس»، والصيغة الغربية في المعجم وهي «شجرة بورفيري» ، لم ترد في أي مرجع عربي أو معرّب .

٢ - ورد المصطلح «شجرة فورفوريوس» في معظم كتب المنطق وتاريخ الفلسفة ، وكل من قرأ كتابًا في المنطق أو تاريخ الفلسفة يعرف هذا المصطلح ، ويعرف فورفوريوس الصوري الذي تنسب إليه الشجرة .

٣ - أورد صاحبا المعجم في قائمة المراجع : معجم المصطلحات المكتبية للمرحوم الدكتور محمد البنهاوي ، ط٢ ؛ وقد ورد المصطلح في هذا المعجم بالصيغة الأجنبية(٧) Tree of Porphyry ، ويقابلها الترجمة العربية «شجرة فورفوريوس» .

٤ - في معجم المقولة الثانية أخطاء لا حصر لها ، وهو تجميع على غيرما وعي ، وبناء على غير ما نسق ، وترجمة تخلو من الحسّ باللغة العربية ودلالاتها . وقد أعود مرة أخرى لكتابة مقالة تستوفي هذا المعجم حقه .

والصلة بين المقولتين : الأولى وبؤرتها فئات رانجاناثان والثانية وبؤرتها «شجرة فورفوريوس» ، تتمثل في امتدادهما إلى جذر واحد ، ففئات رانجاناثان تمثل استخدامًا لمقولات أرسطو وما تعرضت له من تعديلات ، وشجرة فورفوريوس (٨) تمثل تعديلاً لمقولات أرسطو . وعندما انتقلت راية الفكر إلى العرب والمسلمين وجدوا في منطق أرسطو ومقولاته ، وفي التعديل الذي تعرضت له ، مادة خصبة تناولوها بالترجمة والشرح وعدّلوها حذفًا وإضافة وتصويبًا ، فنما الجذع مستقيمًا قويًا ، وأصبح الجو مهيأً للفروع والأوراق والثمار .

المقولات والجذر

ليس من اليسير تحديد نقطة الصفر التي انطلق منها التصنيف ، لأن التصنيف شأنه شأن العلوم الأخرى كائن متطور ونام ، لم يولد كاملاً راشدًا . ولا شك أن التصنيف كنوع من أنشطة العقل ، لا يمكن أن يُفهم بمعزل عن صلته بتاريخه الطويل الذي قضى جلّه أو كلّه في حضن الفلسفة؛ وإن كل ما تقدم من تاريخ التصنيف لم يكن إلاّ خطوات متصلة على خط مستقيم ، أدّت في النهاية إلى علم التصنيف الحديث، وظهور خطط التصنيف العالمية الشاملة ومنها تصنيف الكولون الذي تشكل الفئات الخمس أحد أسسه وخصائصه وطرق التقسيم الوجهي فيه .

وقبل الحديث عن فئات رانجاناثان ومعرفة صلتها بجذورها الفلسفية والمنطقية بعامة ، وصلتها بالمقولات بخاصة ، لابد من وقفة متأنية بهذه المقولات ، وبعض ما تعرضت له من تعديلات تمثلت في الزيادة والنقصان والدّمج والفصل ، وما تعرضت له من تطورات في دلالاتها وتعريفاتها وصلتها ببعض موضوعات المنطق والفلسفة واللغة .

وكلمة «مقولة» مشتقة من مصدر القول ؛ وهي ترجمة لكلمة Kategoria اليونانية ، ولا يعرف بالضبط أول من وضع هذا الاصطلاح في العربية والذي ليس له وجود في معاجم العربية . وقد دخلت في جميع اللغات (٨) بلفظها تقريبًا حتى كتب الفلاسفة المسلمين ، ومعناها في الأصل العلاقة ، ولعل كلمة «كلّيات» أقرب إلى أصل المعنى اليوناني الذي وضعه أرسطو من كلمة «مقولات» الشائعة .

وقد اختلف الفلاسفة في تعريف المقولات ودلالاتها وصلاتها بالمنطق وعلم الوجود والمعرفة واللغة ؛ ولما كانت التعريفات متعددة ، والدّلالات متفاوتة ؛ ولغة المعالجة معقّدة غالبًا ، فإن البعض هنا يغني عن الكل ، واختيار الصيغ السهلة الواضحة أولى من الصيغ الوعرة المبهمة .

يذهب ألكسندر ماكوفلسكي(٩) إلى أن المقولات تمثّل جزءًا من قوانين الفكر وأشكاله والتي يكشفها المنطق في الواقع ؛ وحينما نضع في حسابنا الرابطة الوثيقة بين الفكر واللغة ، نوقن بأن المقولات منطبقة في صميم اللغة ، ومنها يجب أن نستخلصها ، وأرسطو لا يستنبط المقولات كما يفعل كانت وهيجل ، ولكنه يصل إليها بواسطة تحليل المقولات النحوية التي تنطوي على المقولات المنطقية في شكل متدثّر بالأقنعة . ويذهب عبدالرحمن بدوي (١٠) إلى مثل هذا المعنى فيذكر أن المقولات هي أنواع الدلالات في القول ، وهي بمثابة أجزاء للقول . ويذكر جميل صليبا (١١) أن المقولات هي الأجناس العالية التي تحيط بجميع الموجودات ، أو المحمولات الأساسية التي يمكن إسنادها إلى كل موضوع .

وقبل الاستطراد في الحديث لابد من تحديد هذه المقولات العشر [١٢]، ولارتباطها باللغة والنحو خاصة، لابد من ذكر ما يقابلها فيه :

المقولات	اجزاء الكلام
١ - الجوهر	الاسم
٢ - الكيف	الصفة
٣ - الكم	العدد وتمييزه
٤ - الإضافة	صيغ التفضيل واسما الفاعل والمفعول
٥ - الأين	ظرف المكان
٦ - المتى	ظرف الزمان
٧ - الفعل	الأفعال المبنية للمعلوم
٨ - الانفعال	الأفعال المبنية للمجهول
٩ - الوضع	الأفعال اللازمة
١٠ - الملك	الماضي المبني للمجهول في اليونانية

وقد جمع بعضهم هذه المقولات في بيت الشعر التالي [١٣] :

قمرٌ غزير الحسن الطفُ مصره
لو قام يكشف غمّتي لما انثنى

فالقمر للجوهر، والغزير للكم، والحسن للكيف، وألطف للإضافة، ومصر للأين أو المكان، وقام للوضع، ويكشف للفعل، وغمّتي للملك، ولمّا (بتشديد الميم) للمتى أو الزمان، وانثنى للانفعال.

ويبدو أن هذه المقولات بحاجة إلى مزيد من التوضيح، ولذا فلابد من تعريفها بصورة أكثر تفصيلاً :

فالجوهر: هو الموجود القائم بنفسه سواء كان قديمًا أو حديثًا، أو الذات القابلة لتوارد الصفات، ومنها الماهية. والجوهر هو الموجود الذي لا يحتاج إلى غيره في وجوده. والجوهر [١٤] نوعان :

الأول وهو الفرد مثل زيد وفرس؛ والثاني هو النوع أو الجنس؛ فزيد فرد في نوع هو الإنسان، والإنسان نوع في جنس هو الحيوان؛ ونلاحظ هنا أن النوع أولى باسم الجوهر من الجنس، فعندما نسأل ما هو زيد، ونجيب بأنه إنسان يكون أكمل تعريفًا من أن نجيب بأنه حيوان. والجوهر الأول يدل غالبًا على واحد بينما يدل النوع أو الجنس على كثيرين يتميزون عن غيرهم تمييزًا جوهريًا.

والكم: هو عرض وليس جوهرًا، وهو مقابل للكيف [١٥] في علم ما بعد الطبيعة ويدل على التحدّد الكمّي للموضوعات [١٦] بواسطة الحجم والعدد والثقل والسّرعة التي تحدّد العمليات ودرجة تغيّر الصفات؛ فالكم هو محدّد شيء بحيث يمكن تقسيمه واقعيًا، ولا يرتبط بوجود الموضوع ارتباطًا وثيقًا كما يرتبط الكيف. والكم مقولة عقلية تطلق على جميع المعاني التي يتناولها علم الحساب وعلم الهندسة وعلم الميكانيكا، كالعدد والمقدار والامتداد والكتلة والحركة.

والكيف أو الكيفية هي صفة الشيء وصورته. والكيف هيئة قارّة في الشيء [١٧] احترازًا عن الهيئة غير المستقرّة كالحركة والزمان والفعل والانفعال؛ ولا يقتضي الكيف قسمة، وبذا يتميز عن المكان. والكيفيات أربعة :

المحسوسة : مثل الملوحة والاصفرار والخشونة.

المختصة بالكميات : مثل التربيع والتثليث والزوجية.

الاستعدادية: أي استعداد للقبول أو استعداد للدفع.

النفسانية : وهي إمّا راسخة فتسمى مككات، أو سريعة الزوال وتسمى حالات.

والكيفيات عند المحدثين : إمّا أولية وهي الخواص الهندسية والميكانيكية مثل الحركة والسكون والصلابة والامتداد، وإمّا ثانوية أو حسية مثل الصوت والطعم والحرارة والبرودة.

والطريقة الكيفية في البحث العلمي مقصورة على التعريف والوصف والتصنيف، أمّا الطريقة الكميّة فتعتمد على القياس للتعبير عن القوانين بالمعادلات.

ومقولة الإضافة: تعني النسبة المتكررة [١٨] التي يجمع فيها تصورين أو أكثر في فعل ذهني واحد، مثل الأبوة والبنوّة، ولا نعقل إحداهما إلا بتعقّل الأخرى أو نسبة إحداهما للأخرى؛ وتحصلان معًا، أي لا تسبق إحداهما الأخرى. والإضافة قد تكون متّفقة كالأخوة، أو مختلفة مثل الزيادة والنقص؛ وفي هذه الحالة فإن الأمرين المضافين يلحقهما التضاد، كما يقول ابن رشد [١٩]؛ ومنها الرذيلة والفضيلة، والعلم والجهل، ولكن هذه التضاد لا يوجد في كل الأشياء المضافة.

والإضافة تلحق جميع المقولات، وذلك أنها تعرض للجوهر كالأبوة والبنوّة؛ وتعرض للكم كالقليل والكثير، وتعرض للكيف كالعالم والمعلوم، أو تعرض للأين كالمتمكن والمكان، أو تعرض للمتى كالمتقدم والمتأخر، أو تعرض للوضع كاليمين واليسار، وتوجد في الفعل والانفعال.

والأيْن : يعني حصـول الجسم في المكان [٢٠] ، ويسمّى «أينًا» لوقوعه جوابًا للسؤال «أين» . والأين عند الفارابي [٢١] هو نسبة الجسم إلى مكانه ، أو الشيء الذي يقع جوابًا للسؤال أين هو ؟ ! ولكل جسم طبيعي نوع من أنواع الأين ، ومن ذلك : الإنســان ، ثم باقي أنواع الحيوان، وأنواع النبات والجماد ، ثم آخر العالم .

ويقول الغزالي [٢٢] : من الأين ما هو بذاته مثل زيدٌ في الدّار ؛ وما هو أين بالإضافة مثل : فوق وأسفل ويمنة ويسرة ، وحول ووسط وبين وما يلي ومع وعلى ، وما أشبه ذلك .

وقد يقال الأين لحصول الجسم فيما ليس مكانًا حقيقيًا له، مثل الدار أو البلد أو الإقليم أو القارّة أو العالم؛ فيقال مجازًا زيد في القاهرة، أي في مكان غير خاص به وحده .

ويسمّى الأين أيضًا «الكون» أو المحل ، والأكوان عند بعض الفلاسفة أربعة : السكون والحركة والاجتماع والافتراق ، والاجتماع حلول في مكان مع اتصال ، أما الافتراق فحلول في مكان مع انفصال .

والمتى : يعني حصول الشيء في الزمان [٢٣] ، في مقابل حصوله في المكان في مقولة الأين السابقة . وإذا كانت مقولة «متى» تعني الزمان وتعني الآن ، فإنّ الزمان يقبل التجزئة ، بينما لا يقبلها الآن . وهناك لفظ أيّان وهو قريب من متى، والفرق بينهما أن متى تصلح لمطلق الزمان، بينما أيّان فهي خاصة بالاستقبال .

والمتى عند الفارابي [٢٤] هو نسبة الشيء إلى الزمان المحدود ، وتنطبق نهايتا الشيء على نهايتي زمانه ؛ مثل تاريخ ميلاد شخص وتاريخ وفاته ومتى مثل أين ، تعني زمانًا حقيقيًا وتعني زمانًا مجازيًا .

والفعل والانفعال : هما المقولتان السابعة والثامنة ، ورأيت معالجتهما معًا لارتباطهما وتلازمهما . وهما مرادفان للتأثير والتأثّر ، والشيء الذي يفعل هو المؤثر ، والشيء الذي ينفعل هو المتأثّر . ففي عملية التسخين هناك فعل وانفعال ، والفعل يحدث بمؤثر هو النار ، ويمتأثر هو الماء ؛ فالنار مُسخّن والماء مُتسخّن ، والكيف هو السخونة .

والفعل بالمعنى العام عند الفلاسفة [٢٥] يطلق على كون الشيء مؤثرًا في غيره ، ومثاله أفعال الطبيعة ، وأفعال الصناعة كالقاطع ما دام قاطعًا ؛ ومنه تأثير الخطيب في الجمهور ، وتأثير المعلّم في المُتعلّم .

وفرّق الفلاسفة بين الفعل المادي والفعل الصوري ، فالفعل المادي متعلق بموضوع الإرادة أي بمادتها ؛ على حين أن الفعل الصوري متعلق بالقصد ، أي بالغرض الذي يوجه الإرادة .

والانفعال عند الغزالي [٢٦] هو نسبة الجوهر المُتغيّر إلى الجوهر المُغيّر ، فإن كل منفعل فعن فاعل ، وكل متقطع عن قاطع . والانفعال على الجملة تغير ، وقد يكون التغير من كيفية إلى كيفية مثل تغير الشعر من السواد إلى البياض بالتدريج .

ويقول الفارابي [٢٧] : لا فرق بين قولنا ينفعل وبين قولنا يتغير ويتحرك ، وأنواع الانفعال هي أنواع الحركة وهي : التكوُّن والفساد والنمو والاضمحلال والاستحالة والنُّقلة ؛ فالتكون هو المصير من لا جسم إلى جسم ، والفساد هو المصير من جسم إلى لا جسم ، والنمو هو تغيير الجسم من مقدار أنقص إلى مقدار أزيد ، والاضمحلال عكس النمو ، والحالان تغير في الكم ؛ والاستحالة تغير من كيف إلى كيف مثل التغير من البرودة إلى الحرارة ، والنقلة تغير من أين إلى أين مثل التغير من أسفل إلى أعلى . ويلاحظ هنا وجود التضاد بين البرودة والحرارة ، والزيادة والنقص والانتقال من فوق إلى تحت أو من تحت إلى فوق ، كما أن الفساد مضاد للكون ، والاضمحلال مضاد للنمو .

ومقولة الوضع [٢٨] : هي هيئة حاصلة من نسبة أجزاء الجسم بعضها إلى بعض ، ومن نسبتها إلى أمر خارجي عنها .

ووَضع الشيء في المكان أثبته فيه ، ووضع الشيء اختلقه ، ووضع العلم اهتدى إلى أصوله وأوّليّاته . والوضع [٢٩] كون الشيء بحيث يمكن أن يشار إليه بإشارة حسيّة . والوضع بالمعنى الفلسفي كون الجسم بحيث تكون لأجزائه بعضها إلى بعض نسبة في الانحراف والموازاة بالقياس إلى الجهات وأجزاء المكان ، مثل القيام والقعود والسجود والركوع .

والوضع إما طبيعي وهو ترتيب أجزاء الشيء كما هي عليه في الطبيعة ، مثل الشجرة : فجذورها تحت سطح التربة ، ثم يظهر ساقها ، ثم فروعها ... ؛ وإمّا اصطناعي أو غير طبيعي مثل ترتيب أجزاء الشيء ترتيبًا طارئًا

بالاتفاق أو المصادفة أو القسر أو الإرادة .

ومقولة الملك : هي [٣٠] نسبة الجسم إلى الجسم المنطبق على سطحه أو على جزء منه، مثل اللبس والانتعال والتَّسلّح ، فاللبس ينطبق على السطح كله ، والانتعال أو لبس النعل ينطبق على جزء منه ، وكذلك التسلّح ويسمي الفارابي هذه المقولة مقولة «له» . ومن أنواع الملك ما هو طبيعي مثل جلد الحيوان ولحاء الشجر وريش الطير ، وما هو إرادي مثل لبس الثياب والتسلح ، أما الماء في الإناء فهو من مقولة «الأين» . ومقولة الملك أو «له» تطلق على عدة أمور ، وذكر ابن رشد [٣١] منها ستة وهي :

- الملك والحال ، مثل قولنا : لنا علم ، ولنا فضيلة .
- الكم : فيقال : إن له مقدارًا طوله كذا .
- ما يشتمل على البدن كله أو جزئه : مثل الثوب والنعل والخاتم في الإصبع .
- نسبة الجزء إلى الكل ، مثل قولنا : له يد وله رجل .
- نسبة الشيء إلى الوعاء ، مثل : الحنطة في الكيل والشراب في الإناء .
- الملك ، مثل : له زوجة وله بنت .

والمعنى الأخير هو أبعد هذه الوجوه ، ويسميه ابن رشد المقارنة .

تطور المقولات

إذا كان أرسطو أول من وضع المقولات العشر ، فإنه اختزلها في نهاية كتاب المقولات إلى أربع ، هي : الماهية والكيفية والكمية والعلاقة . وتعرّضت مقولات أرسطو ومنطقه للشرح والتعديل والتلخيص على مدى التاريخ كله ؛ وقد وردت بعض آراء فلاسفة الإسلام في المقولات في المبحث السابق ، وسترد آراؤهم فيما يتصل بتطور المقولات بعد أرسطو .

وأبرز من تصدى لمنطق أرسطو ومقولاته قبل الإسلاميين هو فورفوريوس الصوري - وليس بورفيري صاحبَ المعجم - وفورفوريوس [٣٢] يعرف أيضًا بملكوس أو ملخوس ، وهو اسمه الأصلي ، ونسبته إلى مدينة صور بلبنان ، ولد عام ٢٣٣م وتوفي بين ٣٠١ و ٣٠٥ ؛ وهو تلميذ أفلوطين ونعته القديس أوغسطين بفقيه الفلاسفة ؛ واهتم - فضلاً عن الفلاسفة - بالنحو الصرف والبلاغة والتاريخ والفلك والطب ، وله ٧٧ كتابًا ، أشهرها «إيساغوجي» أي المدخل إلى مقولات أرسطو ، ويتضمن القيمة المعرفية للكليات الخمس وهي الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرض العام .

والجنس : هو ما يميز حقيقة الشيء [٣٣]، ويؤلف جزء الماهية المشتركة بينها وبين غيرها ؛ مثل كلمة حيوان التي يشترك فيها الإنسان وأفراد آخرون مثل الأسد والحصان . ويقع الجنس في ثلاثة مستويات أو مراتب وهي :

أ - الجنس العالي : وهو ما تندرج تحته كليات ولا يندرج تحت كل أعم منه ، فليس فوقه جنس آخر ، فهو جنس الأجناس مثل الجوهر .

ب - الجنس المتوسط : هو ما فوقه جنس وما تحته جنس مثل الجسم .

جـ - الجنس السافل : وهو الجنس الذي لا يكون تحته جنس آخر ، ويمثله المرتبة الدّنيا ، مثل الحيوان .

والنوع : كلّي يندرج تحت آخر أعم منه وهو الجنس ، ويطلق على كثيرين مختلفين في العدد ، مثل الإنسان الذي يطلق على زيد وعمر وخالد ... إلخ . وينقسم أيضًا إلى ثلاثة مستويات أو مراتب وهي :

أ - النوع العالي : وهو ما اندرج تحت كلّي واحد أعم منه واندرجت تحت كليات أخص منه ، مثل النبات .

ب - النوع المتوسط : وهو ما اندرج تحت كليات أعم منه ، واندرجت تحته كليات أخص منه ، مثل الأشجار .

جـ - النوع السافل : وهو ما اندرج تحت كليات أعم منه واندرجت تحته جزئيات ، مثل نخلة .

والفصل : هو الكلي المفرد ، وله عند المنطقيين معنيان [٣٤] : أحدهما ، ما يتميز به شيء عن شيء ، ذاتيًا كان أو عرضيًا ، لازمًا أو مفارقًا ، شخصيًا أو كليًا ؛ وهو مرادف للفرق . وثانيهما ، ما يتميز به الشيء في ذاته ، وهو الجزء الداخل في الماهية ، كالناطق مثلاً ، فهو داخل في ماهية الإنسان ومقوِّم لها ، ويسمّى بالفصل المُقوِّم .

والفصل إمّا قريب أو بعيد ، فالقريب ما كان مميزًا عن المشاركات في الجنس القريب، كالناطق للإنسان ، فإنه يميزه عن مشاركاته في الحيوان . أما الفصل البعيد فهو ما كان مميزًا عن المشاركات في الجنس البعيد فقط ، كالحسّاس للإنسان ، فإنه يميزه عن مشاركاته في الجسم النامي .

والحدّ الدّال على الماهية يتألف عند المنطقيين من الجنس القريب والفصل النوعي ؛ فإذا قلنا : الإنسان حيوان ناطق ، كان الحيوان جنسه القريب والناطق فصله النوعي المقوّم لماهيته ، وبهذا وحده يكون التعريف بالحّد جامعًا مانعًا ، أي جامعًا لأمثاله ومانعًا لأغياره .

والخاصة : هي الكلي المفرد الذي يوجد لنوع ما [٣٥] ، دون أن يعرّف ذاته وجوهره ، مثل الصَّهَّال للفرس والنابح للكلب . والخاصة تستعمل لتمييز نوع عن نوع تمييزًا لا يمس الجوهر . وهي تختلف عن الفصل في أنها لا تميز النوع في جوهره .

ويطلق لفظ الخاصة عند المنطقيين على معنيين [٣٦] : الأول ما يختص بالشيء بالقياس إلى ما يغايره ، كالضاحك للإنسان . والثاني ما يختص بالشيء بالقياس إلى بعض ما يغايره ، كالمشي للإنسان . والمعنى الأول يدل على خاصة مطلقة ، والثاني يدل على خاصة إضافية .

وقد يكون اللفظ الواحد خاصة بالنسبة إلى كلّي عام، وعرضًا عامًا بالنسبة لكلي خاص ، فالمشي خاصة للحيوان ، وعرض للإنسان .

وقد لخص فورفوريوس الصوري معاني الخاصة الأربعة التي تضمنها منطق أرسطو ، وجاءت في كتاب إيساغوجي أو المدخل ، وهي :

١ – ما هو لنوع واحد ، ولكنه لا يوجد لكله ، مثل المهندس للإنسان .

٢ – ما هو للنوع كله ، ولكنه يوجد لغيره ، مثل الرجلين للإنسان والحصان .

٣ – ماهو للنوع كله ، ولكنه مؤقت ، مثل الشيب للإنسان .

٤ – ماهو للنوع كله ، وموجود دائمًا ، مثل الضاحك للإنسان .

وقد فرق الفلاسفة بين الخاصة والخاصية ، فقالوا إنّ الخاصية تستعمل في الموضع الذي يكون فيه السبب مجهولاً . وعليه فإن الخاصة أعم من الخاصية ، وتجمع الخاصة على خواص والخاصية على خاصيّات .

ويبدو أن لفظ الخاصة اختلط بلفظ الخاصية في القرن العشرين ، فيرد اللفظ خاصية ترجمة للفظ Property الذي يعني خاصة وليس خاصية ، فالخاصية ترجمة للفظ Particularity .

والخاصيّة في الموسوعة الفلسفية [٣٧] «الروسيّة» تعني جانبًا من موضوع ما يحدّد اختلافه عن الموضوعات الأخرى ، أو تشابهه معها ؛ ويظهر هذا الجانب عند تفاعل الموضوع مع الموضوعات الأخرى مثل الامتداد والمرونة واللون والمسلك الكهربي . والخصائص الكامنة في الشيء أو المتصلة بطبيعة المادة نفسها تسمى خصائص كليّة . والخصائص مختلفة فهنالك الأساسية والضرورية والعارضة والجوهرية والخارجية ... إلخ .

أما العرَض : فهو عند الفارابي [٣٨] الكلي المفرد الذي يوجد لجنس أو نوع ، من غير أن يعرّف في شيء منها ذاته وجوهره ، مثل الأبيض والأسود والقائم والقاعد والمتحرك والساكن والحار والبارد . ومثل [٣٩] : كون الإنسان شابًا مرة وشيخًا مرة ، وكونه متحركًا مرة ، وساكنًا مرة ؛ وبعض هذه الأشياء من الطبع ومن الإرادة ، وبعضها من أسباب خارجة كالمرض ؛ كما أن بعضها مُطَاوِلة كالشباب والشيب ، وبعضها سريعة المفارقة كالقيام والقعود .

ويقول ابن سينا [٤٠] : يقال عرض لكل موجود في موضوع ؛ وكل ذات قوامها في موضوع فهي عرض ، وكل ذات قوامها في غير موضوع فهي جوهر .

ويقول الغزالي : العرض اسم مشترك يطلق على كل موجود في محل أو في موضوع ، ويطلق العرض على المعنى الكلي المفرد المحمول على كثيرين حملاً غير مُقوّم ، والمعنى الموجود للشيء خارج عن طبعه .

ويقسم الفلاسفة العرض إلى : عرض لازم وعرض مفارق ، فالعرض اللازم هو ما يمتنع انفكاكه عن الماهية كالكاتب بالقوة بالنسبة للإنسان ، والعرض المفارق هو ما لا يمتنع انفكاكه عن الشيء ، وهو إما سريع الزّوال كحمرة الخجل وصفرة الوجل ، وإما بطيء الزوال كالشباب والشيب .

والعرضي هو المنسوب إلى العرض ، وهو ضد الجوهري والذاتي والضروري . والتصنيف العرضي ضد التصنيف الموضوعي ، والتصنيف الموضوعي جوهري وضروري ، بينما التصنيف العرضي طارئ وغير ضروري؛ والعرض العام :هو الكلي المقول على أفراد حقيقة واحدة قولاً عرضيًا ؛ وهو مرادف للمقولات التسع بعد مقولة الجوهر ، وهي : الكم والكيف والأين والوضع والملك والإضافة ومتى والفعل والانفعال .

والعرض في مفهوم الفلسفة الحديثة [٤١] : صفة مؤقتة انتقالية غير جوهرية ، ويقابل ماهو مهم وجوهري .

المقولات الحديثة

بقيت مقولات أرسطو العشر ، وبقيت كلياته الخمس – وهي الوجه الآخر للمقولات – هي السائدة طوال العصر الوسيط ، الإسلامي والمسيحي وبداية العصر الحديث .

وبدأت مقولات حديثه تظهر منذ القرن الثامن عشر ، وأول من وضع مقولات حديثة هو عمانويل كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤) وجعل المقولات أربعًا [٤٢] ، وفرّع من كل واحدة منها ثلاثًا ، كما يتضح ذلك في الجدول التالي :

(١)	(٢)	(٣)	(٤)
الكم	الكيف	الإضافة	الجهة
الوحدة	الواقع	الجوهر والعرض	الإمكان
الكثرة	السلب	العلة والمعلول	الوجود
الشمول	التحديد	التبادل	الضرورة

ومن واضعي المقولات في العصر الحديث شارل نوفيه (١٨١٥ – ١٩٠٣) وهو فيلسوف فرنسي ومؤسس مذهب الشخصية . ومقولات – نوفيه [٤٣] تسع مقولات ، وتتألف كل واحدة من ثلاثة أوجه هي : الموضوع ، ونقيض الموضوع ، ومركب الموضوع ، ويمثل الجدول التالي هذه المقولات :

المقولة	الموضوع	نقيض الموضوع	مركب الموضوع
الإضافة	التمييز	الهوية	التعين
العدد	الوحدة	الكثرة	الشمول
الوضع	النقطة	المكان (فترة)	الامتداد
التوالي	الآن	الزمان (فترة)	المدة
الكيف	الاختلاف	الجنس	النوع
الصيرورة	العلاقة	اللاعلاقة	التغير
العلية	الفعل	القدرة	القوة
الغائية	الحالة	الميل	الانفعال
الشخصية	الذات	اللاذات	الشعور

شجرة فورفوريوس

سبق الحديث عن فورفوريوس في تطور المقولات ، أما شجرة فورفوريوس – وليس بورفيري – فهي تصنيف مشجر للتصورات ، يبين علاقاتها الهرمية ، وتوضح الصورة التالية هذه الشجرة :



ويمثل هذا التقسيم نمطًا من التقسيم الهرمي الذي يتدرج من الجنس العالي إلى الأسفل ، كما يمثل أيضًا التدرج النوعي .

وطريقة التصنيف هذه هي القسمة الثنائية ، وهي انقسام الكلّي إلى نوعين ، نوع له صفة من الصفات ، ونوع ليست له هذه الصفة . والقسم الثنائية أيضًا هي المثل الأعلى عند افلاطون مثل قولنا السياسة علم ، والعلم يقسم إلى نظري وعملي ، وتدخل السياسة في النظري ، والنظري علم يأمر وآخر يقرر ، والسياسة تدخل في العلم الذي يأمر ، وهكذا دواليك حتى يتحدّد معناها .

وجاء بعد ذلك أوكتاف هاملان (١٨٥٦ – ١٩٠٧) وهو فيلسوف فرنسي ، سعى إلى إيجاد تفسير شامل للكون ، فوضع مقولات [٤٤] تتألف كل منها من ثلاثية تبدأ من المجرد وتنتهي بالعيني ، على النحو التالي :

١ – الإضافة	العدد	الزمان
٢ – الزمان	المكان	الحركة
٣ – الحركة	الكيف	التغير
٤ – التغير	التنويع	العلية
٥ – العلّية	الغائية	الشخصية

وكان آخر من وضع مقولات في هذا القرن هو الفيلسوف المصري عبدالرحمن بدوي (١٥) ؛ ولكنه انطلق من العاطفة والإرادة ، فجاءت مقولاته محصورة في دائرة علم النفس ، ويمثل الجدول التالي هذه المقولات :

العاطفة

أصل	تألم	حب	قلق
مقابل	سرور	كراهية	طمأنينة
وحدة متوترة	تألم سار	حب كاره	قلق مطمئن

الإرادة

أصل	خطر	طفرة	تعال
مقابل	أمان	مواصلة	تهابط
وحدة متوترة	خطر أمن	طفرة متصلة	تعال متهابط

وقد انتقد كل من كانت وهيجل (١٦) مقولات أرسطو وقيامها على نحو تحكمي ، وافتقادها لأي نسق . وهو نقد ضعيف الأساس ، ذلك لأن جداول المقولات عند كانت وهيجل وغيرهما من فلاسفة العصر الحديث هي تحكمية إلى مدى أكبر من نسق مقولات أرسطو . وإن نسق أرسطو له طابع تجريبي ، كما أن ما يسمى بالمقولات الحديثة تقوم على مقولات أرسطو مع تعديل أدى إلى تشويهها وعدم شمولها .

فئات رانجاناثان

يُرجع رانجاناثان جميع الأقسام الوجهية إلى خمس فئات أو خمس مجموعات وهي : الشخصية والمادة والطاقة والمكان والزمان ؛ وقد رتبها رانجاناثان بهذه الصورة استنادًا إلى مبدأ تناقص المحسوسية أو التدرج من المحسوس إلى المجرّد .

ولم يكن رانجاناثان موفقًا في حصر الأوجه الرئيسة بهذه الفئات الخمس ، ففي وجه الشخصية مثلاً اصطدم رانجاناثان عند تقسيم الموضوع أن هذا الوجه يظهر في الجنس والنوع والصنف ، فحاول التخلص من هذه الورطة بما يسميه الدوائر والمستويات ، ولكن هذه الطريقة في التخلص لم تكن دائمًا موفقة . ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن فيكري (١٧) أضاف إلى فئات رانجاناثان الجزء والفعل والذات والعملية ، وهو توكيد لقصور هذه الفئات الخمس .

ووجه المادة عند رانجاناثان غير محدّد المعالم ، ويتداخل كثيرًا مع وجه الشخصية ، كما أن الشيء الواحد يكون شخصية في فرع الموضوع ، ويكون مادة في فرع آخر لهذا الموضوع نفسه . فدوائر المعارف مادة في مجموعات المكتبة ، ولكنها شخصية في موضوع الببليوجرافيا . كما أن مصطلح المادة له معنيان : أحدهما عقلي ويطلق على العناصر غير المعيّنة التي يتألف منها الشيء ، مثل مادة المعرفة ، وهي المعطيات التي يتألف منها مضمون الفكر . وثانيهما حسّي ويطلق على المادة المحسوسة مثل الخشب والمرمر والكتب . وهو ما لم يدركه رانجاناثان .

أما الطاقة عند رانجاناثان فهي مصطلح لم يستخدم في الدلالة التي يحتملها ، وأقحم عليه مصطلحات ليست من الطاقة مثل الطريقة والمرحلة والمشكلة . ويبدو أن رانجاناثان في تحليلاته الوجهية كان يواجه أمورًا جديدة فيحاول نسبتها إلى إحدى الفئات الثلاث وهي الشخصية والمادة والطاقة ، وبذا وقع في دائرة التلفيق . ويبدو أن رانجاناثان وضع الفئات الخمس مسبقًا وحاول إخضاع الأوجه لها ؛ وهذا يذكرنا بقوانينه الخمسة في علم المكتبات وهو ما وقع فيه ملفل ديوي عندما وضع الأساس العشري لتصنيفه ، وما وقع فيه هيجل في تقسيماته الثلاثية .

ومن الجدير بالذكر أن تحديد رقم لأي تقسيم ، واتخاذه أساسًا مسبقًا للتقسيم ، أمر فيه كثير من التعسف ومجافاة المنطق .

وأمّا فئتا المكان والزمان فهما أكثر الفئات وضوحًا وتحديدًا ، وتمثلان تقسيمات الموضوعات المختلفة جغرافيًا وتاريخيًا ، وهما عاملان مشتركان في كل نظم التصنيف القديمة والحديثة ، وتلعبان دورًا مهمًا في رءوس الموضوعات .

صلة الفئات بالمقولات

بعد الحديث عن المقولات العشر ومفهوم كل مقولة ، وبعد الحديث القصير عن فئات رانجاناثان ، فليس من العسير الربط بينهما وتوضيح الصلة الوثيقة بينهما ؛ وأن الفئات الخمس ليست إلا بناء جديدًا للمقولات .

ففئة الشخصية عند رانجاناثان خليط من الجوهر والماهية والنوع والجنس ، وقد استخدم رانجاناثان مصطلح الشخصية ليقابل في دلالته «الاسم» في النحو ،

وبذلك شمل مساحة واسعة من رؤوس الموضوعات ؛ ولكن مصطلح الشخصية له دلالات مختلفة عند كل من الفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع ، فهو عند الفلاسفة التشخص الفردي أو الفردية ، وعند المحدثين جملة من الخصائص الجسمية والعقلية والوجدانية التي تحدّد هوية الفرد . والشخصية عند علماء الاجتماع تشكل نفسي خاص بأفراد مجتمع معيّن ، والشخصية قد تكون فردية أو جمعيّة ، وتكون حقيقية أو معنوية كشخصية الهيئات والمؤسسات والشركات .

أما فئة المادة فتتصل ببعض مفاهيم مقولة الجوهر عند أرسطو والمنطقيين ، والمادّة مقولة فلسفية تعني الواقع الموضوعي الذي يوجد مستقلاً عن الوعي ومنعكسًا فيه ، وهي تكثّر لا نهائي للظواهر الموجودة والأشياء والأنظمة ، وهي قوام العلاقات والتفاعلات وأشكال الحركة المختلفة . والمادة عند بعض الفلاسفة (١٨) مرتبطة ارتباطًا مستمرًا بالحركة والزمان والمكان . ولكن مفهوم المادة عند رانجاناثان يظهر في العلوم والتكنولوجيا ويغيب فيما عداها .

وأما فئة الطاقة فتقابل مقولتي الفعل والانفعال أو التأثر والتأثير ، وتتسع عند رانجاناثان لتشمل كل العمليات والمشكلات والطرق والمراحل والتداول . وللطاقة في الفلسفة الحديثة معنيان : الأول نفسي ويعني القدرة على بذل الجهد أو استطاعته فعل الشيء ، والثاني طبيعي أو مادي ويعني القدرة على إنتاج عمل ميكانيكي وللطاقة في علم الميكانيكا صورتان : الأولى الطاقة الحركية أو الفعلية ، والثانية الطاقة الممكنة . وللطاقة في علم الفيزياء عدة صور ، كالطاقة الحرارية والضوئية والكهربية والمغناطيسية . ونظرية الطاقة هي تفسير جميع ظواهر الكون بالطاقة . ويرى بعض الفلاسفة المحدثون أن الطاقة هي المقياس العام للأشكال المختلفة لحركة المادة .

وأما فئتا المكان والزمان عند رانجاناثان فتتصلان بمقولتي الأين والمتى . ويبدو أن المكان والزمان هما العنصران اللذان لهما دلالة محدّدة واضحة ، يتفق فيها اللغويون والفلاسفة والعلماء والمكتبيون . كما أنهما عنصران مشتركان في جميع العلوم ، ويظهر دائمًا في أي نظام للتقسيمات الموضوعية ، وغالبًا ما تكون لهما جداول أو قوائم مستقلة تمثّلها أرقام خاصة .

خاتمة

إذا كانت العلوم قد انفصلت عن الفلسفة في العصر الحديث ، وأصبح لكل علم ذاتيته واستقلاله وطبيعته وخصائصه ، فليس معنى ذلك أن الصلة بين هذه العلوم قد انقطعت ، وأن العقد الذي ينظمها قد انفرط ؛ ولعل علم اللغة يكفي وحده للدلالة على ذلك ، فاللغة هي وسيلة التعبير الوحيدة التي تدل على مضمون أي علم ، وبدون لغة متقنة ودقيقة يستغلق فهم أي علم مهما كان شأن الكاتب أو الناطق في علمه أو موضوعه .

والتصنيف أحد العلوم التي تتصل اتصالاً لا يمكن أن تنفصم عراه بجميع العلوم بعامة ، وبالفلسفة واللغة بخاصة ؛ وكل من أراد أن يدرس التصنيف أو يكتب فيه دون معرفة اللغة والفلسفة ، يكون مصيره مصير من يطارد سرابًا بقيعة .

والغريب أن معظم من تصدوا لتصنيف أرسطو - إن لم يكن كلهم - أخذوا منه التصنيف الجاهز (علوم نظرية وعلوم عملية وعلوم إنتاجية) وتركوا أساس التصنيف أو فلسفته متمثلاً بالمقولات والكليات ، وهي أغزر معنىً وأمتن أساسًا من تقسيمه السابق للعلوم لأنها تمثل الفكر التصنيفي أو تصنيف الفكر .

والغريب أيضًا أن جامعي مصطلحات المكتبات من المؤلفين العرب ، أغفلوا مصطلحات الفلسفة أو غفلوا عنها حتّى وهم يكتبون عن مصطلحات التصنيف ، واستعان بعضهم بمعاجم التربية - وليس فيها غناء - . وإذا كانت المقولات والكليات تمثل جزءًا من كلٍ وهو الفلسفة ، تتضمن كثيرًا من مفاهيم التصنيف ومصطلحاته وأسس التقسيم فيه ، فإنّ الفلسفة تغطي كل التصنيف أو تكاد .

والمفاهيم الفلسفية التي استعارها التصنيف كثيرة جدًا ، ومنها - على سبيل المثال لا الحصر - مفهوما الجنس والنوع وهما أساس تصنيف علم الحيوان والنبات وقسم من الطب ؛ كما أن مصطلح الرتبة أو الدرجة يعكس مستويات الجنس والنوع ، وهي العالي والأوسط والأسفل ، كما أن مصطلح الهرميّة أو التدرج Hierarchy أصله في الفلسفة ، ويعني ترتيب الأشخاص أو الأفكار أو الأشياء ، ففي الأشخاص يدل على خضوع بعضهم للبعض الآخر في المنزلة أو الوظيفة ، وفي الأفكار يكون

بعضها مبدأ والآخر نتيجة ، وفي الأشياء يدل على أن بعضها متعلق ببعض . وكذلك مصطلح التقسيم مثل تقسيم الجنس إلى أنواعه وفصوله ، وقسمة الموضوع إلى الأغراض التي تتعاقب عليه ، وقسمة العرض إلى أنحائه المختلفة ؛ والتقسيم هو إرجاع الجنس إلى أنواعه والكل إلى أجزائه، وهذا ما يفعله التصنيف .

ومن المصطلحات الفلسفية التي يستخدمها التصنيف مصطلح العيني Concrete ، والعيني ما يدرك بالحواس وهو عكس المعنوي ، ويعرف أيضًا بالمشخَّص الذي يقابل المجرّد Abstract . والانتقال من المجرد إلى المشخَّص مبدأ أساسي في نظم التصنيف القديمة والحديثة .

ومن المصطلحات الفلسفية التي استعارها التصنيف واستخدمها مصطلح الفرق أو الفصل Difference ، ومصطلح القسمة Division وهو إرجاع الكلي إلى أجزائه أو عناصره ، ويسمّى هذا الإرجاع تجزئةً أو تحليلاً ؛ أو إرجاع الكلّي إلى جزئياته ، وتباين الجزئيات يكون بما هو ذاتي أو بما هو عرضي أو بهما معًا، والتباين الذاتي يسمى الأنواع، والتباين العرضي يسمى الأصناف، والتباين الذاتي والعرضي معًا يسمى الأقسام .

المراجع والحواشي

١ – أبو النور ، عبدالوهاب . التصنيف الببليوجرافي لعلوم الدين الإسلامي ، القاهرة : دار الثقافة ، ١٩٧٣ -- ص ٤٩ .
٢ – الشامي ، أحمد محمد وسيد حسب الله . المعجم الموسوعي لمصطلحات المكتبات والمعلومات : إنجليزي – عربي -- الرياض : دار المريخ ، ١٩٨٨ -- ص ٨٨٦ .
٣ – ورد المدخل في المعجم (Poyphry , tree of) ويبدو أنه خطأ مطبعي ، وذلك لأن المدخل صحيح تحت الإحالة ص١١٣٩ .
٤ – لسان العرب . مادة «بكر» .
٥ – المعجم الوسيط . مادة «بكر» .
٦ – فكار ، رشدي . علم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية : معجم موسوعي عالمي -- باريس : جتنير ، ١٩٨٠ -- مج ١ : ص ١١٩ .
٧ – البنهاوي ، محمد أمين . معجم المصطلحات المكتبية : إنجليزي – عربي -- ط ٢ ، مزيدة ومنقحة ومشروحة -- القاهرة : دار الفكر العربي ، ١٩٨٥ -- ص ٢٧٨ .
٨ – البليدي ، محمد الحسني . المقولات العشر ؛ صححه وقدم له ممدوح حقي -- بيروت : دار النجاح ، ١٩٧٤م -- ص ١٢ .
٩ – ماكوفلسكي ، ألكسندر . تاريخ علم المنطق ؛ نقله إلى العربية نديم علاء الدين وإبراهيم فتحي -- بيروت : دار الفارابي ، ١٩٨٧ -- ص ١١٦ .
١٠ – بدوي ، عبدالرحمن . موسوعة الفلسفة -- بيروت : المؤسسة العربية للدراسات ، ١٩٨١ -- ج ٢: ص ص ٤٥٨ – ٤٥٩ .
١١– صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي -- بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٧٣ -- جـ ٢ : ص ٤١٠ .
١٢– ماكوفلسكي ، ألكسندر . تاريخ علم المنطق -- ص ١٢٥.
١٣– البليدي ، محمد الحسني . المقولات العشر -- ص٢٣ .
١٤– ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد . تلخيص منطق أرسطو ؛ تحقيق جيرار جهامي -- بيروت : الجامعة اللبنانية ، ١٩٨٢ -- ص ١٧ .
١٥– صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي -- جـ ٢: ص٢٤١.
١٦– الموسوعة الفلسفية / وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين ؛ ترجمة سمير كرم -- ط٢ -- بيروت : دار الطليعة ، ١٩٨٠ -- ص ٤٠٠ .
١٧– صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي -- جـ ٢ : ص٢٥١ .
١٨– البليدي ، محمد الحسني . المقولات العشر -- ص٤٤ .
١٩ – ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد . تلخيص منطق أرسطو -- ص ص ٣٧ – ٣٨ .
٢٠– البليدي ، محمد الحسني . المقولات العشر . ص ٤٦.
٢١– الفارابي ، أبونصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي ؛ تحقيق رفيق العجم -- بيروت : دار المشرق ، ١٩٨٥م .
٢٢– صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي -- ط١ -- بيروت: دار الكتاب اللبناني -- جـ ١ : ص ١٨٨ .
٢٣– البليد ، محمد الحسني . المقولات العشر . ص ٤٧ .
٢٤– الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي -- جـ ١ : ص ١٠٨ .
٢٥– صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي -- جـ ٢ : ص١٥٢ .
٢٦– المرجع السابق -- جـ ١ : ص ١٦٤ .
٢٧– الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي -- جـ١ : ص ص ١١٤ – ١١٥ .

٢٨- البليدي ، محمد الحسني . المقولات العشر .- ص٤٨ .

٢٩- صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي .- جـ ٢ : ص٥٧٦ .

٣٠- الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي .- جـ١ : ص ١١١ .

٣١- ابن رشد ، أبو الوليد محمد بن أحمد . تلخيص منطق أرسطو .- ص ٧٥ .

٣٢- طرابيشي ، جورج . معجم الفلاسفة .- بيروت : دارالطليعة ، ١٩٨٧ .- ص ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

٣٣- محمد ، ماهر عبدالقادر . المنطق ومناهج البحث .- بيروت دار النهضة العربية، ١٩٨٥ .- ص ص٢٩ - ٣٠.

٣٤ - صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي .- جـ ٢ : ص ص ١٤٧ - ١٤٨ .

٣٥- الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي .- جـ١ : ص ٨٣ .

٣٦- صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي .- جـ ١ : ص ص ٥١٦ - ٥١٧ .

٣٧- الموسوعة الفلسفية / وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين .- ص ١٨٨ .

٣٨- الفارابي ، أبو نصر محمد بن محمد . المنطق عند الفارابي .- جـ١ : ص ٨٣ .

٣٩ - ابن سينا ، أبوعلي . منطق المشرقيين ؛ تقديم شكري النجار .- بيروت : دارالحداثة ، ١٩٨٢ .- ص ٤٥ .

٤٠- صليبا ، جميل . المعجم الفلسفي .- جـ ٢ : ص ٦٩ .

٤١- الموسوعة الفلسفية / وضع لجنة من العلماء والأكاديميين السوفياتيين .- ص ٢٩٤ .

٤٢- بدوي ، عبدالرحمن . موسوعة الفلسفة .- جـ ٢ : ص٤٦٠ .

٤٣- المرجع السابق .- ص ص ٤٦٠ - ٤٦١ .

٤٤- المرجع السابق .- ص ٤٦١ .

٤٥- المرجع السابق .- جـ ١ : ص ٣١٠ .

٤٦- ماكوفلسكي ، ألكسندر . تاريخ علم المنطق .- ص ١١٧.

٤٧- ملز ، ج . نظم التصنيف الحديثة في المكتبات ؛ ترجمة وتقديم عبدالوهاب أبي النور .- القاهرة : مكتبة غريب ، ١٩٨٣ .- ص ٢٣٢ .

٤٨- الموسوعة الفلسفية / وضع لجنة من العلماء والأكاديميين .- ص ٤٢٩ .



الكتابات والأسماء العربية في جرائد ومنشورات الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١م ، ومجلدات وصف مصر

بدر الدين عوض بدر

جمهورية مصر العربية





تمهيد

حصلت الكتابات والأسماء العربية على أهمية خاصة ومتميزة في الأعمال التي تخص الحملة الفرنسية على مصر ، والتي وقعت فيما بين عامي ١٧٩٨ – ١٨٠١م سواء في جرائد ومنشورات الحملة التي نفذت طباعياً في مصر أو في المجلدات التي طبعت من بعد في فرنسا وسميت «مجموعة الملاحظات والبحوث التي أجريت في مصر أثناء وجود الجيش الفرنسي» والتي تسمى «وصف مصر Descrption de L'Egypte» .

ولقد أتت هذه الكتابات إما داخل كتب كاملة طبعت باللغة العربية ، والتي سجلها بعض من مستشرقي الحملة ومترجميها وأخرى متفرقة بين سطور المنشورات والجرائد التي تخص حملة الشرق أو في مجلدات الوصف ، وتأتي أهميتها في كونها تسجيلاً أميناً لخدمة الهدف المستخدمة من أجله والتي في عمومها خصصت لمساعدة الفرنسيين سواء من كان منهم في مصر أو خارجها على التعرف على معانيها أو أماكنها بالنسبة للمواقع .. بالإضافة إلى توصيل أية معلومة إلى المصريين من خلال المنشورات والأوامر .

الكتابات العربية في منشورات وجرائد الحملة

أدرك «نابليون بونابرت» منذ لحظة توليه مسئولية تكوين حملة الشرق [بغرض الاستيلاء على مصر وطرد الإنجليز من جميع البلاد الشرقية وهدم المراكز التجارية التي كانت لهم في البحر الأحمر وحفر قناة السويس واتخاذ كل الوسائل اللازمة ليضمن للحكومة الفرنسية امتلاك البحر الأحمر] أن الدعاية هي السلاح الماضي الذي قد يكسب به قلوب المصريين فكان عليه أن يعد العدة لحملة من الدعاية يوطد أركانها بمطبعة يحملها معه لتساعده فيما يرمي إليه .. وحرص على تزويد المطبعة بالحروف العربية واليونانية والفرنسية وعني عناية خاصة برجال المطبعة الجديدة ومعداتها (١) .

وأوكل إلى «مونج Monge» – أحد علماء الحملة – مهمة جمع حروف عربية للطباعة في ٥ مارس ١٧٩٨م ، بالإضافة إلى الطباعين والمترجمين وغيرهم من الخبراء ، حيث حصل على هذه الحروف من مكتب الطباعة الملحق بمركز خاص بالدعاية الرومانية في فرنسا . وكانت نماذج جيدة لأشكال متنوعة من الخطوط استخدمتها مطابع الحملة [شكل ١] (٢) .

وقبل وصول الفرنسيين إلى الإسكندرية لم يكن قد طبع في مصر سطر واحد كما لم يكن في الدولة العثمانية بأسرها سوى مطبعتين ليست في مصر واحدة منهما . وبوجه عام نجد أن «بونابرت» قد جلب مع حملته مطبعتين، ظلت إحداهما في الإسكندرية [مطبعة الحملة الرئيسية] [شكل ٢]

إلى نهاية عام ١٧٩٨م وعليها طبعت جميع منشورات الحملة بالإضافة إلى أول كتاب يطبع في مصر وكان «تطبيقات في العربية الفصحى مختارة من القرآن لينتفع بها دارسو العربية» [٣] .

وكان يدير هذه المطبعة المستشرق «جان جوزيف مارسيل J.J.Marcel» (١٧٧٦ - ١٨٥٤م) أما المطبعة الثانية فكانت خاصة شحنت للقاهرة مع زحف الجيش الفرنسي وكان صاحبها يدعى «مارك أوريل Marc Aurel» [٤] ، ولقد اختصت مطبعته بإصدار صحيفة «بريد مصر Le Courrier de L'Egypte» [٥] بالإضافة إلى دورية علمية أدبية سميت بـ «العشرية المصرية La Decade Egyptienne» والتي كانت لسان حال المجمع العلمي [٦] . وهكذا اقترن اسمه بجهود اللجنة العلمية الخاصة بدراسة مصر ، وإن لم تكن له بها صلة رسمية [٧] . واضطر إلى بيع مطبعته للحملة والسفر إلى فرنسا عام ١٧٩٩م بعد سحب حق طبق الجريدتين حيث أوكل إلى «مارسيل» مدير مطبعة الحملة إخراجهما في مطبعته [٨] .

وبوجه عام استقدمت الحروف الطباعية التي أحضرها بونابرت مع حملته كالتالي :

١ - **الحروف العربية** : واستخدمت في طبع المنشورات والبيانات التي كانت تلصق على أبواب الحارات وفي نشر بعض النصوص العربية في جريدة «العشرية المصرية» .

٢ - **الحروف الفرنسية** : استخدمت في طبع أوامر القائد العام اليومية بالإضافة إلى صحيفتيه وغيرهما من المطبوعات .

٣ - **الحروف الإنجليزية** : استخدمت في عدة عبارات داخل النص الفرنسي وفي الهامش ترجمة بالفرنسية لها .

٤ - **الحروف العبرية والسريانية والقبطية** : استخدمت في شرح أصول بعض الكلمات العربية في الكتب التي طبعت في مصر .

٥ - **الحروف اليونانية** : استخدمت في طبع البيانات التي كانت توزع على اليونانيين الموجودين في مصر .

الكتابات العربية في مجلدات وصف مصر :

جاءت مجلدات «وصف مصر» موسوعة ضخمة اضطلع بتحريرها جمع من العلماء والمتخصصين بين مهندسين وجغرافيين وأنثروبولوجيين وعلماء طبيعة ورسامي خرائط، ويعدّ الجزء الجدير بالاهتمام من هذه الموسوعة هو الجزء الخاص بالحالة الحديثة «L'ETAT Moderne» - إذ إن شروح الجزء الخاص بالحالة القديمة «L'Antiquite» أصبح بعد الاكتشافات التالية والتقدم المذهل لعلم المصريات غير ذي قيمة ، إلا أننا لا ننكر حق هذا الجزء من حيث كونه اللبنة الأولى في علم المصريات وتلك الأعمال الفنية المسجلة والتي احتوتها هذه الموسوعة [٩] .

النسق الإملائي المتبع في مجلدات وصف مصر بالنسبة للكلمات العربية :

خضعت عملية نقل الكلمات العربية إلى كتابتها بالحروف الفرنسية لصعوبات لم يستطع منفذو أعمال الوصف من التغلب عليها بشكل نهائي ؛ لأنها كانت ناتجة عن اختلافات أساسية في النغمات الخاصة بكل من اللغتين ، وحاولا التقرب بدقة كافية بعض الشيء من النطق الصحيح للكلمات العربية دون اللجوء إلى استخدام علامات لم تكن مستخدمة من قبل ، كما اتبعوا

نظامًا موحدًا للإملاء كان القصد الرئيسي منه أن يتم تزويد الرحالة بوسيلة مؤكدة تجعلهم يتعرفون على الكمات عند سماعها تلفظ في البلاد . كذلك قرروا فيما بينهم كمؤلفين ألا يستخدموا سوى حروف هجائهم . واحتفظوا في كل كلمة بالحروف الساكنة الأصلية متجنبين استخدامات لا جدوى منها للحروف المضعفة ، وهذه تغير على نحو طفيف من النطق . ولم يستخدموا إلا حرفًا واحدًا لكل الأنواع المختلفة من حروف d . h . s . R . T . Z- وهي أصناف من الحروف لا تختلف في مصر إلا بضخامة أو رقة نطقها كذلك استخدموا حروفًا مركبة (من حرفين أو أكثر) للدلالة على نطق غريب عنهم مثل الخاء والألف المكسورة والرنين وغيرها (١٠) .

أما بالنسبة إلى الكتابات العربية المسجلة في مجلدات الوصف فتأتي مركزة في «الأطلس الجغرافي Atlas Geographique» وهو أحد مجلدات الوصف – غير مرقم – ويحتوي على ٥٢ مسطحًا طباعيًا ، واحتوت جميع الخرائط الخاصة بالمدن المصرية على كتابات عربية كما كان الوطنيون يطلقونها على الأماكن ، وهذه خاصية كانت تميز خرائط الأطلس فقط أما بقية الخرائط الموزعة على مجلدات الحالة القديمة والحالة الحديثة فلم تحتو على مثل هذه الكتابات . ولقد احتوى الأطلس على ٤٧ خريطة عامة لمصر وللمدن الكبرى بها وأجزاء من سوريا .كما بدئ بالعديد من المعلومات التي تخص الرموز والتأثيرات المستخدمة للتعبير عن كل تفصيل داخل الخرائط والتي تتمثل في أشكال الخطوط المستعملة في التعبير عن المياه والمرتفعات والمباني والأشجار وغيرها ، بالإضافة إلى شروح لأساليب الكتابة ونغمة الحروف العربية ومضاهاتها بالحروف الفرنسية Alaphabet «Hormonique» وذلك لاستخدام الكتابات والأسماء العربية كما كان الوطنيون ينطقونها (١١) .

ومما يدل على دقة تسجيلهم للكتابات العربية يذكر «جومار» – أحد علماء الحملة (١٢) – وصاحب الوصف المتميز لحالة مدينة القاهرة في ذلك الوقت (١٣) عندما بدأ جولته في القاهرة واستغرقت شهرين كاملين دون انقطاع يوم واحد «كان يصحبني في هذه الجولة مترجم وكاتب (أودا باشي) يعرف المدينة على أكمل وجه ، ومعهم ثلاثة أو أربعة أدلاء آخرين وكانت الخيول تتبعنا في صحبة الخدم ، وفور حصولنا على أية إشارة كان يتولى كتابة الأسماء على الخريطة الأصلية بالعربية كاتب قبطي أو يوناني أو مسلم، كما أكتبها أنا شخصيًا بالحروف الفرنسية» (١٤) .

وبذا نلحظ أهمية وجود الكتابات العربية في هذه الأعمال التسجيلية ، التي كانت ولا تزال لسان حال المصريين في ذلك الوقت بوجه خاص، ومثل هذه الأعمال بوجه عام والتي تخص دراسات الشعوب العربية التي تمت عن طريق بعثات أو حملات عسكرية أو كشفية أو رحالة جذبهم سحر الشرق للوقوف على حال البلدان التي تدور فيها الأحداث والوقائع .

الهوامش

١ – خليل صابات – تاريخ الطباعة في الشرق العربي – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية ١٩٦٦م – ص١٣١ .

٢ – «ج . كريستوفر هيرولد» – بونابرت في مصر – ترجمة فؤاد أندراوس – الهيئة المصرية العامة للكتاب – جمهورية مصر العربية – الطبعة الأولى ١٩٨٦م، ص ٣٩ .

٣ - تذكر بعض المراجع أن أول كتاب طبع في مصر باللغة العربية والفرنسية للمستشرق «جان جوزيف مارسيل» ويسمى «حكايات لقمان الملقب بالحكيم» وتسبقها مقدمة عن هذا الرجل - وكان الجزء الواحد يقع في حوالي ١٢٠ صفحة [صحف بونابرت في مصر ١٧٩٨ - ١٨٠١م - ترجمة صلاح الدين البستاني - دار العرب للبستاني - مصر - الجزء الأول - الطبعة الأولى ١٩٧١م - ص ٢١٤].

٤ - كان «بونابرت» فيما مضى قبل الحملة مبسطًا رعايته على مكتبة والد «أوريل» (عندما كان بونابرت ملازمًا شابًا) في الفترة التي قضاها على رأس الحامية في «فالنس» بفرنسا - و«مارك أوريل» واحدًا من «جماعة الملتزمين» - أصحاب الامتيازات الكثيرين الذين كانوا يرافقون الجيوش الفرنسية في ذلك الوقت.

٥ - صحيفة «بريد مصر» تخصصت في الأنباء السياسية والعسكرية، وكانت منذ إنشائها تهتم بجمع المعلومات التي قد تفيد التاريخ الأدبي للحملة الفرنسية على مصر يومًا ما، ولم تكن موجهة للمصريين وإنما إلى جنود الحملة وإلى رجال الحكم في فرنسا للوقوف على أخبار الغزو وتقوية الروح المعنوية، وكان مقرها في ميدان الأزبكية ولم يتعد الإصدار الواحد منها أربع صفحات. ونشرت في ١١٦ إصدارًا فقط وظهر الأول منها في أغسطس ١٧٩٨م - أي بعد دخول الحملة مصر بشهرين تقريبًا وكان آخر أعدادها في يونيو ١٨٠١م.

٦ - دورية «العشرية المصرية» اختصت بالآداب والاقتصاد السياسي بالإضافة إلى كونها لسان حال المجمع العلمي المصري، ووقع كل عدد منها في أربع ملازم كل منها ثماني صفحات ومرت بالعديد من المراحل وانتهت إلى أن تحولت إلى ثلاثة مجلدات كل منها ١٠٠ صفحة وتم إهداء المجلد الأول إلى «بونابرت» ثم إلى القائد الثاني «كليبر» ثم أهدي الثالث إلى الجنرال «مينو» ثالث قادة الحملة الفرنسية لجيش الشرق وآخرهم.

٧ - ج. كريستوفر هيرولد - بونابرت في مصر - ترجمة فؤاد أندراوس - المرجع السابق صفحات ١٤٨ - ١٧٧ - ١٧٨.

٨ - برغم ما يلاحظ على الأعداد التي أنتجتها مطبعة «مارك أوريل» من أنها سيئة الإخراج كثيرة الأخطاء المطبعية وسحب حق طباعة وإصدار الأعداد إلا أن مطبعته استطاعت أن تقدم للحملة أجل الخدمات خلال الأشهر الثلاثة عشر التي عاشتها تحت إدارة صاحبها علاوة على كونها أول مطبعة عرفتها القاهرة.

٩ - طبع هذا السفر الضخم، والذي يعد بحق «الموسوعة المصرية الأولى» مرتين - الأولى واستغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى ١٨٢٢م وكانت موزعة كالتالي: مجلدان: لدراسة التاريخي الطبيعي، ثم أربعة مجلدات لدراسة العصور القديمة، ثم ثلاثة مجلدات لدراسة الحالة الحديثة.

أما المطبعة الثانية فلقد بدأ العمل فيها من عام ١٨٢١ وانتهت في عام ١٨٢٩م حيث صدرت في ٢٦ مجلدًا بالإضافة إلى ١١ مجلدًا للوحات وأطلس جغرافي، وهي كالتالي - ٥ مجلدات للوحات الحالة القديمة، ومجلدان في ثلاثة أجزاء للتاريخ الطبيعي، ومجلدان للحالة الحديثة بالإضافة إلى مجلد واحد يشتمل على مقدمة لمسيو «فوربيه» مع شرح اللوحات ثم الأطلس الجغرافي، وهما مجلدان غير مرقمين - وتسمى الطبعة الثانية باسم طبعة «بانكوك» نسبة إلى مقدم اقتراح إعادة طباعتها وهو المسيو «س. ل. ف. بانكوك».

١٠- مسيو «فوربيه» مقدمة تاريخية - مصر والحملة الفرنسية - المجلد الأول من الترجمة العربية الكاملة لوصف مصر - ترجمة زهير الشايب - مكتبة مدبولي - مصر - الطبعة الثانية ١٩٧٩م - ص٣٦٦ - ٣٧٠.

١١- مسيو فوربيه - مقدمة تاريخية - المرجع السابق، ص ٣٦٥.

١٢- هو المهندس الجغرافي والأثري الفرنسي: «أدم فرانسوا جومار Jomard،Edme Francais ولد في فرساي عام ١٧٧٧م وكانت له محاولات في فك رموز «حجر رشيد» لمدة من الزمن قبل «فرانسوا شامبليون» وشغل منصب سكرتير هيئة تحرير كتاب وصف مصر لمدة عشرين عامًا بمعاونة علماء آخرين.

كما شارك في تأسيس الجمعية الجغرافية في باريس عام ١٨٢١م . وأسهم في تأسيس قسم الخرائط واللوحات الأهلية في باريس وتوفي عام ١٨٦٢م في باريس .

«أدم فرانسوا جومار» – وصف القاهرة وقلعة الجبل – ترجمة أيمن فؤاد سيد – مكتبة الخانجي بالقاهرة – الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ، ص١٣ ، ١٤ .

عرفة عبده علي – رحلة في زمان القاهرة – مكتبة مدبولي – مصر – الطبعة الأولى ١٩٩٠م ، ص٨٤ ، الهوامش .

١٣ – لجأ جومار إلى العديد من التراجم لمؤلفين عرب أمثال المقريزي وعبداللطيف البغدادي – حيث وجد عائقًا كبيرًا وهي مشكلة اللغة والترجمة إلا أن هذه المؤلفات وغيرها ساعدته كثيرًا في كتابة الأسماء العربية باللغة الفرنسية .

١٤ – أدم فرانسوا جومار – وصف القاهرة وقلعة الجبل – ترجمة أيمن فؤاد سيد ، ص ١٥٥ – المرجع الأسبق .


TEXTE .

بسم الله

الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين
الرحمن الرحيم مالك يوم الدين
اياك نعبد واياك نستعين
اهدنا الصراط المستقيم
صراط الذين انعمت عليهم
غير المغضوب عليهم ولا الضالين

أنموذج من حروف الطباعة العربية التي استخدمتها مطابع الحملة الفرنسية

Ce Journal paraîtra tous les dix jours. Chaque numéro sera composé de quatre feuilles *in-4.°* environ. L'abonnement est de 9 livres par volume ou trimestre composé de neuf numéros. Chaque numéro pris séparément sera payé une livre ou 28 médins.
On s'adresse pour les abonnemens chez le directeur de l'Imprimerie nationale, au Kaire, place Ezbekyéh.

أنموذج من حروف المطبعة الأهلية الفرنسية بالقاهرة

الشكل (١)
أنموذج من حروف الطباعة



الشكل (٢)

محمّد بن علي الدُّكالي السّلاوِيّ

وأرجوزته : "إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا"

نجاة المرينيني
كلية الآداب - الرباط

يشكل التأليف في تاريخ المدن المغربية حرص مؤلفي هذه الكتب على تدوين أخبار مدنهم وأخبار رجالها وملوكها ومظاهر أنشطتها الفكرية والحضارية إسهامًا منهم في التعريف ببلدانهم ، وإبراز أدوارها التاريخية والسياسية والفكرية عبر العصور .

من هذا المنطلق عُني المغاربة منذ القديم بالكتابة في تاريخ المغرب وحضارته فدحضوا أوهامًا خاطئة حول إهمال المغاربة التأريخ لبلادهم ، إذ «يتوهمُ الكثير من الناس أن تاريخ المغرب الأقصى مجهول غامض يصعبُ التوصل إليه ، لما يُرى من تبعثره وعدم التئامه ، ويظنون أن جمعه وترتيبهُ والوقوف على حقيقته من أبعد البعيد» كما أشار ابن سودة في مقدمة كتابه دليل مؤرخ المغرب الأقصى (ص ١٧ - الطبعة الأولى) ويرى ابن سودة الذي أقدم على تجربته المتميزة في كتابه دليل مؤرخ المغرب الأقصى أن «هذا القول ظنٌّ مخالف للحقيقة ، ومجازفةٌ عابثةٌ لمجدنا القومي وتراثنا العظيم ، وتهاون بكرامة آبائنا وعزتهم النفسية ، ليس من باعث عليه سوى جهل مُطْبِق بتاريخ المغرب الزاهر وماضيه الحفيل ، وتقصير في البوح عن مساير هذا التاريخ ومخدرات المكتبة في الخزائن العلمية» (ص ١٧) .

والواقع أن الكتابة عن تاريخ [illegible] البلاد ، وجغرافيتها عامة والحديث عن أخبار ملوكها ، ومنها ما اهتم بتراجم (علماء وصلحاء وفقهاء وأدباء) ، ومنها ما اهتم بأحوالها وأخبارها وعمرانها ، إلى غيرها من الكتابات ككتب المدن والبلدان ، وكتب الأنساب والقبائل ، وكتب سير الملوك وأخبارهم ، وكتب التراجم ، وكتب الطبقات والفهارس والبرامج ، والمنظومات الشعرية التاريخية ، وغير ذلك .

ويظهر أن علم التاريخ - منذ القدم - كان من العلوم الأساسية التي انصرف إليها الاهتمام ، بوصفه تعبيرًا عن أحوال المجتمع في مظاهر الحياة المتعددة : الاجتماعية والاقتصادية ، والعلمية ، والسياسية ، وغيرها . لذلك فمن الطبيعي أن يُعنى المغاربة بتاريخ وطنهم ، وتراجم رجالهم وعلمائهم وصلحائهم منذ عصور قديمة .

أما البحث في تاريخ المدن ، فيشكّل - في رأي محمد زنيبر - «مساهمة أساسية في تاريخ المغرب ، وهو ما أدركه أجدادنا الأقدمون بحَدْسٍ تلقائي ، حين خصّصُوا المدن مثل مراكش ومكناس وفاس وتطوان والرباط وسلا وأسفي تآليف منها القصير والطويل ، لكنهم لم يكونوا مسلّحين بمنهاجية كافية ورؤيا واضحة للمفهوم من التاريخ» (١) .

وقد خصّ ابن سودة في دليله ، الكتب المؤلّفةَ في المدن والبقاع المغربية بمسرد مطوّل جعله القسم الأول من مؤلفه (٢) ، أتى فيه بمايزيد على مئةٍ وأربعةٍ وخمسين كتابًا (١٥٤) منها المطبوع ومنها المخطوط ومنها المفقود .

ويمكن تصنيف المؤلفات التاريخية التي وضعت في التاريخ للبلدان إلى صنفين :

أولاً : صنفٌ اهتم بالكتابة التاريخية عن المدينة من حيثُ تاريخها وعمرانها وسكانها وتراجمُ رجالها ، ومن بين هذه المؤلفات :

- **كتاب جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس** : لعلي الجزنائي ، من أهل القرن الثامن الهجري ،

وقد حقق الكتاب وقدم له عبدالوهاب بن منصور . وقد ظهرت له طبعتان ؛ أولى سنة ١٩٦٤، وثانية سنة ١٩٩١م .

– **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون** : لمحمد بن غازي المكناسي ، وقد حققه عبدالوهاب بن منصور ، ظهرت له طبعتان ، الأولى سنة ١٩٦٤ ، والثانية سنة ١٩٨٨ .

– **أسفي وما إليه قديماً وحديثاً** لمحمد بن أحمد الكانوني العبدي ، طبع بمصر سنة ١٩٣٥م .

– **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس** : للمؤرخ عبد الرحمن بن زيدان العلوي ، طبعت منه خمسة أجزاء ١٩٣٣م . كما أعيد تصويره سنة ١٩٩١م .

– **الإتحاف الوجيز المهدى للمولى عبدالعزيز** لمحمد بن علي الدكالي ، قال عن مخطوطه ابن سودة في دليله (ص ٣٣) : «يقع في عشرة كراريس ، يتضمن الخبر عن مدينة سلا بعُدْوَتيْها ووصفًا جغرافيًا علميًا أخلاقيًا تاريخيًا ، ممّا يتعلق بمساجدها ومدارسها وزواياها وأبراجها وأسواقها ومعارف أهلها ، وما يحسنون من الصنائع والمهن والحرف» نشرته الخزانة العلمية الصبيحية سنة ١٩٨٦ بتحقيق مصطفى بوشعراء .

– **مجالس الانبساط بشرح تراجم علماء وصلحاء الرباط** : لمحمد بن علي دينية ، طبع سنة ١٩٨٦م .

– **الاغتباط بتراجم أعلام الرباط** : لمحمد بوجندار ، طبع سنة ١٩٨٦م .

– **مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح** : لمحمد بوجندار ، طبع سنة ١٩٢٦م .

ثانيًا : صنف اهتمَّ بالتأريخ للبلدان والرجال في منظومات وأراجيز تاريخية [٢] أقلُّها في مئة بيت ، وأكثرها في ثلاثة آلاف بيت ، وقد خصَّ ابن سودة المنظومات التاريخية في القسم الثامن من الدليل بمَسْرد تناول أربع عشرة أرجوزةً (١٤) أغلبُها في الأنساب وتراجم العلماء والشرفاء، من أهم هذه الأراجيز التاريخية:

– **أرجوزة في صلحاء فاس** : لأبي زيد عبدالقادر الفاسي [٤] ، تتضمن مئة وعشرين بيتًا شعريًا (١٢٠) ، ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، رقم ١٢٦٤ ك .

– **أرجوزة دُرَّة التيجان ولقطةِ اللؤلؤ والمرجان** : لأبي عبدالله محمد الدلائي [٥] : وهي في نسب الأشراف من آل النبي عليه الصلاة السلام تتضمن ثلاث مئة وعشرة أبيات (٣١٠) ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ١٢٣٤ ، ونسخة أخرى ضمن مجموع رقم ٢١٣٤ د ، بالخزانة العامة بالرباط ، ونسخة ثالثة ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط رقم ١١٨٠ك .

– **أرجوزة : فريدة الدرِّ الصفيِّ في وصف الجمال اليوسفي** : لمحمد بن الطيب القادري [٦]: وهي في نسب الفاسيين مع إشارة إلى معركة وادي المخازن سنة ٩٨٦هـ ، وانتصار المسلمين فيها انتصارًا كبيرًا . تضمُّ الأرجوزة مئتين واثنين وتسعين بيتًا شعريًا (٢٩٢) ، ضمن مجموع بالخزانة العامة بالرباط ، رقم ١٢٣٤ ك .

– **أرجوزة في مشاهير صلحاء مدينة فاس** : لمحمد المدرع الأندلسي الفاسي المتوفى سنة ١١٤٧هـ ، اختصرها من الروض العاطر الأنفاس وزاد عليه ، فجاء نظمها ينيف على خمس مئة بيت (٥٠٠) ، وأهميتها في تحديد المدافن بفاس للأعلام والصالحين الذين أورد ذكرهم [٧] .

– **أرجوزة نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك** : لعبدالعزيز الملزوزي [٨] ، وقد صدرت ضمن منشورات المطبعة الملكية سنة ١٩٦٣م ، تبلغ أبياتها ألفًا وثلاث مئة وخمسة وعشرين بيتًا (١٣٢٥) .

– **إتحاف أشرف الملا ، ببعض أخبار الرباط وسلا** : لأبي عبدالله محمد بن علي الدكالي السلاوي [٩] ، يصف ابن سودة هذه الأرجوزة في دليله بقوله (ط ١ / ٤٤) «تقع في نحو الثلاثة آلاف بيت ، نظمه سنة ١٩١١م ، استهله بقوله :

يقول راجي رحمة المولى العلي
محمدٌ السلاويُّ وهو ابن عليّ

وقال في تسميته :

سميته إتحاف أشرف الملا
لبعض أخبار الرباط وسلا»

– **أدب المجالس** : لأبي عبدالله محمد بن الفضل غريط [١٠] ، تكلّم فيه على تاريخ الأندلس والمغرب ، يقع في نحو الست مئة بيت (٦٠٠) ، ذكره ابن سودة في الدليل (ط١ ، ص ٤١٤) .

محمد بن عليّ الدّكالي السَّلاَوي وأرجوزته إتحاف أشرف الملا

حياة محمد بن علي الدكالي [١١] : ١٢٨٥- ١٣٦٤هـ ١٨٦٨ - ١٩٤٥م

هو محمدُ بن محمد ابن الحاج محمد بن علي الدكالي السلاوي ، حفظ القرآن بمسقط رأسه مدينة سلا ، كما أخذ مبادئ العلوم الدينية والأدبية عن شيوخ العلم والفقه بسلا آنذاك ، منهم القاضي الحاج إبراهيم ابن الفقيه الجريري المتوفى سنة ١٨٨٥م ، والقاضي أبو محمد عبدالله بن خضراء المتوفى سنة ١٩٠٦ ، والمؤرخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري المتوفى سنة ١٨٩٧ وغيرهم .

التحق بجامع القرويين بفاس ، وأخذ عن علمائها كالشيخ جعفر الكتاني والتهامي كنون وغيرهما ، وبعد سنوات من التحصيل عاد إلى سلا ليمارس التدريس كما ترجم لنفسه إذا قال [١٢] : «وقد تصديت للتدريس في علم العربية والفقه مدةً تجاوزُ ثلاثة أعوام لازمني فيها طلبة نجباءُ منهم من صار إلى رحمة الله ، ومنهم من هو اليوم متصدّرٌ للدراسة والعدالة والكتابة بشريف الأعتاب ، ومنهم من هو متصدّر للتدريس والإفتاء ، ولا يزالون يعترفون بفضل الله عليهم» .

تقلّب محمد بن علي الدكالي في عدة وظائف إدارية، عدلاً ، وكاتبًا لباشا سلا ، ثم كاتبًا في البنك المخزني المغربي ، ثم في السلك المخزني بفاس ، ثم عضوًا في المحكمة العليا ثم مندوبية العلوم والمعارف إلى أن وافاه الأجل المحتوم مساء يوم الجمعة سادس جمادى الآخرة ١٣٦٤هـ ، الموافق ١٨ مايو ١٩٤٥م .

يتحدث عنه عبدالله الجراري في كتابه «من أعلام الفكر المعاصر» ج٢/ ١٧٩ : «كان ابن عليّ السلوي من أكابر المؤرخين ، فما من موضوع تاريخي إلا وله فيه اليد الطولى ، كانت له مع الأستاذ عبدالحي الكتاني [١٣] مكاتبات ومبادلات تتعلق بالكتب ونفائس الذخائر ، وغرر التآليف النادرة ، كما كانت له صلة بأكابر العلماء والمستشرقين والمؤرخين» .

ووصفه عبدالحي الكتاني بأنه «العالم الأديب ، المؤرخ البحاثة ، الناظم الناثر ، شيخُ مؤرخي العصر الحاضر بالمغرب أبو عبدالله محمد بن علي الدكالي السلوي» [١٤] .

مؤلفاته :

يقول المؤرخ ابن علي الدكالي متحدثًا عن مؤلفاته [١٥]:

«ومن التآليف التي صدرت عني : السراج الوهاج والكوكب المنير من سنا صاحب التاج مولانا الحسن الأمير [١٦] ، قدّمتُه لمولانا الحسن سلطان عصرنا ، فأجازني عليه بمائة ريال وكسوة وأثْنَى ثناءً جميلاً . ومنها الإتحافُ الوجيزُ المهدى للمولى عبدالعزيز في تاريخ أحوال العدوتين ووصفهما الجغرافي الأثري ، أجاز عليه المولى عبدالعزيز بمائة ريال وكسوة وظهير شريف بالتوقير والاحترام للمؤلف ووالده [١٧] .

ومنها إتحاف أشرف الملا لأخبار الرباط وسلا : نظم في ثلاثة آلاف بيت من بحر الرجز ، أهديته بعد نظمه بفاس للمولى عبدالحفيظ ، فاستحسنه وأجازني عليه بمائة ريال ، وظهير تجديد لظهير صنوه المولى عبدالعزيز بالتوقير والاحترام» .

ويستعرض ابن علي في هذه الأوراق أسماء مؤلفاته، فيقول عن «التاريخ الكبير المسمى أدواح البستان في أخبار العدوتين ومن درج بهما من الأعيان في أربعة أجزاء ضخام ، ولخصت تأليفًا جاء آية من آيات الإحسان والإجادة سميته الدرة اليتيمة في أخبار شالة الحديثة والقديمة» .

أما عبدالله الجراري ، فقد ذكر أن لابن علي الدكالي خمسة عشر مؤلفًا دون أن يشير إلى مظانها ، ولعلّهُ اطلع عليها أو استقى معلوماته عن صاحبها مباشرة إذ لازمه أثناء اشتغاله معه بمندوبية العلوم والمعارف أزيد من خمس سنوات [١٨] أمّا مصطفى بوشعراء محقق كتاب الإتحاف الوجيز ، فقد جعل مؤلفات ابن علي صنفين [١٩] :

الأول : صنف معلوم المظان : ويضم أحد عشر مؤلفًا ، منه كتاب إتحاف أشرف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا .

الثاني : صنف مجهول المظان ، ويضم ثلاثة عشر مؤلفًا ، أهمه أدواح البستان في أخبار العدوتين ومن درج بهما من الأعيان : مخطوط في أربعة أجزاء ، ذكره ابن سودة في دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، ١٢ / ٣٧ ، وقال

عنه : «كتب إليّ مؤلفه رحمه الله في حقّه ما يلي : كتاب كبير جمع فأوعى ، وشمل الغث والسمين ، والأجاج والمَعين ، به لأسماء رجال العدوتين ، ومن له تعلّق بها من الأفّاقين الذين زاروها واستوطنوها في وقت من الأوقات ما ينيف على ألفي ترجمة لعلمائها وصلحائها وأدبائها وملوكها . ورجال الأسطول البحري الأندلسي السلاوي والعلوي ... ودعت الضرورة إلى البحث على أول ما يُعرف من تاريخ عمارتها القديمة من عهد الفينيقيين والقرطاجنيين والرومانيين في دولة الأولى الغربية ، والثانية البيزنطية الشرقية ، إلى أن دخل الإسلام أفريقية والمغرب الأقصى ، وتطرق البحث في آثارها إلى الكلام على الحياة بها قبل عصر التاريخ ، للعثور على ما يدل على ذلك من آثارها الفطرية الساذجة ، فجاء جرمه في أربعة أجزاء ضخمة ، والعمل فيه مستمر إلى الآن سنة ١٣٥٩هـ ، موافق ١٩٤٠م» .

وأغلب كتابات المؤرخ محمد بن علي الدكالي تتناول تاريخ العدوتين الرباط وسلا ؛ بل إنه في بعض الأحيان يقول ويُعيدُ في الموضوع نفسه في أكثر من مؤلف وفي أكثر من تقييد، ولعله كان يخاف ضياع تقييد أوكناسٍ ، فيلجأ وهو يستعرض معلوماته ويشحذُ ذاكرته إلى إعادة كتابة ما سبق أن أدرجه في الموضوع نفسه في كتاب جديد .

ففي تاريخ العدوتين ترك لنا مجموعة من المؤلفات أهمها الإتحاف الوجيز وأدواح البستان وإتحاف أشرف الملا .

إتحاف أشرف الملا :

الكتاب عبارة عن أرجوزة تاريخية وصفية تشتمل على ثلاثة آلاف بيت مزدوج أو ألفين وثمان مئة وستة وثمانين بيتًا كما ورد في بعض النسخ – في أخبار عدوتي الرباط وسلا ، وترجم فيها لمن غبر بهما من العلماء والصلحاء والشعراء متبعًا التقسيم الذي اتبعه ابن الخطيب في مقامته «المفاضلة بين مالقة وسلا» ، وتاريخ تأليفها سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م . تتضمن الأرجوزة (١٩) المقاصد الآتية:

مقدمة : في عنوان الأرجوزة ، والسلطان المهداة إليه ، وتضم اثنين وأربعين بيتًا .

فذلكة تاريخية : في موضوع الأرجوزة ومقاصدها ، وتضم سبعة وأربعين بيتًا .

المقصد الأول : وصف سلا الجغرافي والطبيعي والتاريخي ، ويضم أربعة وثلاثين بيتًا.

المقصد الثاني : في العمارة مدققًا في وصف المباني والأسوار والقصبة وغيرها عبر العصور التاريخية. ويضمُ ستين بيتًا.

المقصد الثالث : فيما ذكر من الحضارة وفيه عبر ، منذ العصر الروماني إلى عصرنا الحاضر ، ويضم مئة بيت وبيتين .

المقصد الرابع : في الصناعة ، وأهم المعامل التي أنشئت بها ، ويضم واحدًا وخمسين بيتًا .

المقصد الخامس : فيما يعد من النضارة لدى من قد غبر ، ويضم ثمانية وعشرين بيتًا .

المقصد السادس : فيما يفتخر به من الشنْعة ، وهو مختصر ، ويضم سبعة وأربعين بيتًا.

المقصد السابع : في ذكر المنعة ، ويضم مئة وأحد عشر بيتًا .

المقصد الثامن : في الفلاحة ، ويضمُّ ثمانية وعشرين بيتًا .

المقصد التاسع : في المساكن ذات الشفوف ، ويضم تسعة وثلاثين بيتًا .

المقصد العاشر : وهو في ساكن قد ضمنته البلد ، وهو أكبر مقصد يضم ألفين ومئة وواحدًا وأربعين بيتًا .

لاحقة : في الردّ على ابن الخطيب فيما وصف به مدينة سلا في مقامته «مفاضلة بين مالقة وسلا» ، وتضمُّ ثمانية وثلاثين بيتًا ، منها خمسة عشر بيتًا في الردّ على ابن الخطيب ، وثلاثة وعشرون بيتًا في تاريخ نظم الأرجوزة وعدد أبياتها ، والغاية من نظمها .

مخطوطات الأرجوزة :

اعتمدتُ في التعريف بالأرجوزة على مخطوطات :

أولاً : قسم الوثائق والمخطوطات بالرباط ، وتوجد به ثلاث نسخ لهذه الأرجوزة المخطوطة :

- النسخة الأولى : رقم ١١ د ، في ١٣٤ صفحة، مسطرة ٢٣ × ١٧,٥٠ سم ، عدد سطور الصفحة الواحدة أي الأبيات الشعرية واحد وعشرون بيتًا ، بخط مغربي واضح ، انتهى المؤلف من كتابتها يوم الإثنين ٢٣ ذي

القعدة عام ١٣٣٠هـ ، ناسخها هو الشيخ أحمد بن اليمني الناصري الرباطي ، خالية من تاريخ النسخ ، يبلغ عدد أبياتها كما أشار الناسخ إلى ذلك في هامش آخر صفحة ألفين وثمان مئة وعشرة أبيات (٢٨١٠) ، لكن بعد عدّ هذه الأبيات اتضح أنها ألفان وسبع مئة وثمانية وستون بيتًا ، وهذه النسخة مهداة إلى السلطان المولى يوسف كما جاء في المقدمة ، يقول الراجز :

يقول راجي رحمة المولى العلي
محمد السلاوي وهو ابنُ علـيّ
وسقتُه إلى الجناب اليوسـفي
مـلاذ كلّ راغـب ومحتـفـي

– **النسخة الثانية** : رقم ٤٦٦ ك ، في ٨٧ صفحة ، مسطرة ٣١,٥٠ × ٢٠,٥٠ سم ، في كل صفحة اثنان وثلاثون سطرًا أي بيتًا شعريًا ، بخط مغربي جميل ، في ملكية الشيخ محمد عبدالحي الكتاني ، خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ .

أما تاريخ التأليف ، فهو الثالث والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٣٠هـ . وضع المؤلف للأرجوزة في الصفحة الأولى فهرسًا عامًا عنوانه : «مقاصد الكتاب المرجز» تليه ستة أبيات شعرية يتحدث فيها عن موضوع الأرجوزة وعن السلطان الذي أهديت إليه المولى يوسف ، يقول :

هذا كتاب جامع	**منه تضيء اللمع**
به مسالك سلا	**وخبرها المرفع**
وما حوى رباطها	**مما غدا يستبدع**
وتاريخ الأعيان من	**كل جليل يرفع**
قدّمته هدية	**لمن سناه يلمع**
مولانا يوسف الرضى	**خير إمام يتبع**

وكتب الشيخ محمد عبدالحي الكتاني بعد هذه الأبيات بخطه : «الحمدلله ، مات صاحب هذا التاريخ المنظوم ، الحلو الجامع ، والخط البديع ، العالم الأديب المؤرخ البحاثة الناظم الناثر شيخ مؤرخي العصر الحاضر بالمغرب أبو عبدالله محمد بن علي الدكالي السلوي عشية يوم الجمعة ٦ جمادى من عام ١٣٦٤هـ بسلا عن سن يناهز الثمانين سنة ، ودفن بالزاوية القادرية» .

وقد ذيّل المؤلف أرجوزته بقوله : «انتهى بحمد الله ومنّه ، وجميل عونه ، على يد ناظمه ومؤلفه محمد بن محمد بن علي سامحه مولاه» .

– **النسخة الثالثة** : رقم ٢٣٩١ ك ، في ٩٩ صفحة ، مسطرة ٢٧,٥٠ × ١٨,٥٠ سم ، في كل صفحة ثلاثون سطرًا ، بخط مغربي كذلك ، خالية من اسم الناسخ وتاريخ النسخ ، ويظهر أن هذه النسخة انتُسخت عن نسخة الشيخ محمد عبدالحي الكتاني رقم ٤٦٦ ك ، إلاّ أنها خالية من التعليق الذي كتبه – الكتاني – إثر وفاة صاحب الأرجوزة ، وقد انتهى المؤلف من كتابة هذه النسخة في ٢٣ ذي القعدة عام ١٣٣٠هـ . كج تساوي ٢٣ بحساب الجمل : وفي ضحى الاثنين تمّ نظمه بـ [٢٣] لج قعدة بدا ختامه عام ثلاثين توافي بعد ألف مع ثلاث مئة بها وقف .

ثانيًا : الخزانة الحسنية : وتتوفر على نسختين :

– النسخة الأولى : رقم ٢٢٧ ، مسطرة ٨١٤ + ٦,١٨ سم في مئة واثنتين أربعين صفحة ، (ص١٤٢) ، وتضمّ كل صفحة عشرين بيتًا ، بخط مغربي ، كتبها مؤلفها يوم الجمعة ٢٩ شوال من عام ١٣٢٩هـ .

وتمّ نظمنا بيوم الجمعة
ضحى بكز من شوال مُثبت
من عام تسعة وعشرين وألف
مع ثلاثمائة بها وقف

وعدد أبيات الأرجوزة ألفان وثمان مئة وستة وثمانون بيتًا .

كما جاء في آخر بيت : دي في حساب الجمل ١٤

أبياته ألفان مع سبعمائة
تقل عن دي بخير مُنبئَهْ

جاء في الصفحة الأولى من هذا المخطوط :

لا خيْل عندي أهْديها ولا مـالُ
فليُسعد النُطق إن لم يُسعد الحال
هديتي إتحاف أشرف الملا
ببعض أخبار الرباط وسلا

وقد أهدى المؤلف الأرجوزة إلى السلطان المولى عبدالحفيظ

سميته إتحاف أشرف الملا
ببعض أخبار الرباط وسلا
وسقته للخزنة الشريفة
ذات العلوم الجمة الوريفة

هدية لطيفة إن اقتضى
نظر مولانا الإمام المرتضى
مولاَنا عبدالحفيظ المرتضى
الملك الحائز أخلاق الرضى

وقد وصف محمد المنوني في «فهارس مخطوطات الخزانة الحسنية» (٢٠) هذه الأرجوزة المخطوطة بقوله : «تاريخ شعري مرجّز، من ٢٨٨٦ بيتًا مزدوجًا، نظم فيه جُلّ أخبار الرباط وسلا ، وترجم لمن غبر بهما من الأعلام والصلحاء وذوي النباهة ، كما ضمّنه الرّدّ على لسان الدين ابن الخطيب في رسالة مفاخرة بين مالقة وسلا» .

كما أشار إلى هذه النسخة محمد عبدالله عنان في فهارس الخزانة الحسنية (٢١) بقوله : «هذا المخطوط قدّمه مؤلفه هدية إلى السلطان المولى عبدالحفيظ، راجيًا قبول هديته ، والإنعام على ناظمها بما يقتضيه كرم مولانا وإحسانه .

وهو عبارة عن منظومة طويلة تتناول ذكر سلا وخططها وما تميّزتْ به من العمارة والحضارة والصناعة والمنعة ، ثم وَصْفَ أهلها وطبائعهم وعقائدهم ، ثم ذكر علمائها ، ويختتمُ الكتاب بقصيدة يردّ فيها على ابن الخطيب بشأن ما ذكره عن سلا في كتابه (ريحانة الكتاب) وتفضيله عليها مالقة والجزيرة» .

– **النسخة الثانية** : رقم ١٢١٠٩ ز ، ضمن مجموع ، تشتمل على ١٣٧ صفحة من ص ١ إلى ص١٣٧، مسطرة ٢١,٢ × ١٢ سم ، عدد أبيات الصفحة الواحدة واحدٌ وعشرون بيتًا .

كتبها الناسخ أو المؤلف (*) في ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٠هـ ، وأهداها إلى السلطان المولى يوسف .

قدّمتها هدية لمن سناه يلمع
مولانا يوسف الذي له الكمال الأرفع

أمّا مقاصد الكتاب ، فكانت الإشارة إليها في آخر الكتاب كفهرس عام للأرجوزة .

مؤسسة علال الفاسي : توجد بها نسخة واحدة حسب علمي تحت رقم ٣٨٤ ع ضم مجموع يوجد فيها أيضًا مخطوط الإتحاف الوجيز لابن علي ، في ١٤٨ صفحة ، مسطرة ٢٣ × ١٨ سم تتفاوت أبيات الصفحة الواحدة ، فهي مرة عشرون بيتًا وأخرى تسعة عشر بيتًا . وهي مهداة إلى السلطان المولى يوسف أيضًا كتبها الناسخ الذي لم يذكر اسمه في ٢٣ ذي القعدة عام ١٣٣٠هـ .

سبب تأليف الأرجوزة :

ذيَّل محمد بن علي الدكالي أرجوزته «إتحاف أشرف الملا ...» بلاحقة تتضمّنُ الرّدّ على ابن الخطيب السلماني في مقالة له بـ «ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب» (٢٢) سمّاها «مفاخرة بين مالقة وسلا» . وبالرجوع إلى هذه المفاخرة نجد ابن الخطيب يفاضل بين المدينتين بكثير من الكبرياء منتصرًا لمالقة معتزًا بصناعتها وعمارتها وحضارتها ، منبّهًا إلى أنّ المفاضلة يجب أن تكون في أمور هي : المَنَعَة، الصّنعة ، البقعة ، الشّنْعة ، المساكن ، الحضارة والعمارة والإثارة (الفلاحة) ، النُّضارة .

ومن ثُمّ أخذ ابن الخطيب في تناول كل عنصر ، مادحًا مالقة قادمًا لسلا «بلد الرجال ، ومراعي الجمال» (٢٣) ، في أسلوب تغلبُ عليه الصنعة والسجع .

وقد نبّه المؤرخ جعفر الناصري إلى أن لابن الخطيب قطعة شعرية في هجاء سلا وأبنائها أثبتها في نفاضة الجراب، نقلها بعد أن وقف عليها في مكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، (٢٤) ، فبعث بها إلى صديقه المؤرخ محمد بن علي الدكالي «مع أوراق الرحلة وبعض فوائدها ومقيّداتها ، وقلتُ له مداعبًا له في الكتاب الذي وجّهته له : يُسلِّمُ عليك الوزيرُ لسانُ الدين بن الخطيب ، وهذه تحفة منه إليك كان أعدّها لك منذ نحو ستة قرون ، ولما رجعنا من رحلتنا ردّ إليّ تلك الأوراق ، وكتب لي صُحبتها رسالة يقول فيها :

الحمدلله – حِبّنا الأعز الأرضى الفقيه الأديب الكاتب البارع الأمجد الأحظى سيدي جعفر الناصري .

سلام على السيادة ورحمة الله وبركاته

يصلُ جنابَكُمُ الرفيع أوراقُ الرحلة المباركة ، وإنني أشكركم جميعًا شكرًا جمًّا ، وأرجو من الله أن يزيدكم رفعةً وعلوّ شأن ، ما تعاقب المَلَوان .

وقد فتح الله بسبب أبيات ابن الخطيب السلاوية في تقييد مقالة أسميتها «**اغتنام المسرّة باتّقاء المعرّة**» مثّلْتُ فيها ابن الخطيب في حالتي رضائه وبؤسه ، وطلاقته وعُبُوسِه ، وبيّنتُ الأسباب التي دعته إلى المعاداة ، ومخالفة العادات ، في حال ثَوَران بركانه ، واتّقاد أفرانه ، وقد صرّح عن نفسه أنه يقول مثال ذلك في غير رشده ، ويحمله الباعث على طاعة الشيطان وجنده ، ومهما أقرّ الخصم

ارتفع النزاع ، وقد بذلنا في مقابلة المثل بالمثل غاية المستطاع .

وعند إخراج المقالة من المسوَّدة نوجِّهُ لكم نسخة منها بحول الله» (٢٤) .

ويضيف الناصري قائلا : «إلاّ أنَّهُ لم يَفِ بوعده ، ولم يُوجّه لي النسخة التي ذكرها ولا أدري مآلها ، غير أنه لمّا وقف على ما هو مُسجّل بـ (ريحانة الكتّاب) من هذه المقامة التفضيلية خصصّ القسم الأول من أرجوزته المسماة (إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا) لنقضها ونثر ما انتظم من عِقْدِها ، وخصَّص خاتمتها للإعلان بالردّ عليه» (٢٥) . والذي يدعو إلى التساؤل أن الناصري ذكر في كتابه «ابن الخطيب في سلا» ، بأنَّ الدكالي نظم أرجوزته بعد اطلاعه على المفاخرة بين مالقة وسلا دون تحديد تاريخ نظمها (٢٦) في حين أنَّ الراجز أشار إلى أن تاريخ نظمها كان سنة ١٣٣٠هـ . إنَّ الناصري لم يزد على أن أورد رسالة الدكالي إليه بتاريخ كتابتها وهو ١٣٥٤هـ ، وفيها تصريح بكتابة مقالته «اغتنام المسرّة باتقاء المعَرّة» للرد على ابن الخطيب في أبياته الشعرية التي أثارت حفيظته ، وأخرجته عن هدوئه .

وعن مقالته «اغتنام المسرّة باتّقاء المعَرّة» ، فهو دون شك ، قد كتبها على طريقة ابن الخطيب في مفاخرته مِثلاً بمثل ، فإننا لم نتوصل – مع الأسف – إلى هذه المقالة ، ولا ندري عن مصدرها شيئاً ، خصوصًا وأن الناصري تفرّد بالإشارة إليها من خلال رسالة الدكالي .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن العناصر التي بنى عليها ابنُ الخطيب السلماني تأليفهُ «المفاضلة بين مالقة وسلا» هي التقسيم نفسه الذي أجراه الدكالي في أرجوزته ، «واقتضى الحالُ النّسْجَ على منواله ليكون الردُّ عليه من نوعه وأشكاله» (٢٧) كما يقول . ويظهر أنَّ الدكالي كان قد شعر بعد قراءته الأبيات الشعرية (٢٨) أنَّ الأرجوزة التي نظمها في الردّ على ابن الخطيب لم تكن حادة وجارحة بالنسبة لقصيدة ابن الخطيب ومقالته ، إذ كان أقرب إلى العفة والسّماحة ، وهكذا حركت فيه الأبيات الشعرية النعرة العصبية لبلدته والانتقام لها من ابن الخطيب، فكتب مقالته .

أمّا الأرجوزة التي تضمّنت الثلاثة آلاف بيت فلا يُستفادُ من مقدّمتها ولا من «فذلكتها» إنَّ المقصود هو الردُّ على ابن الخطيب ، وإنما يستفاد ذلك من «اللاحقة» (٢٩) التي شكّلت خمسة عشر بيتًا في آخر الأرجوزة .

لم يكن المؤرخ ابن علي متسرّعًا في ردّه ، ولا عنيفًا في أوصافه ، وإنما وصف العدوتين سلا والرباط ، وذكر مزاياهما ، وأرّخ لعلمائهما وأدبائهما وصلحائهما ، مترفّعًا عن الإساءة إلى مالقة وأهلها ، يقول :

وقد حللتُ مُبْرِم الوزير
وانتصرتْ سلا مع التحرير
ولم أسْمْ مالقة بِسَوْم
فلم تكن خصماً لنا بيَوْم
فبيننا البحارُ والبراري
وحَسْبُنا تفاخر الجوار

ولعلّ في هذه الأبيات إشارةً صريحة إلى تجنّي ابن الخطيب على سلا التي «آوته لما لفَظَتْهُ بلادهُ، وتمزّقَ شَمْلُه، وتفرّقَ طارِفُه وتَالِده (٣٠) ، فعاشَ فيها فترةً من عمره ، ... تجري بها عليه النِّعَم ، ويُظلِّلُه المجدُ والكرمُ ، فلا يعُدُّ من عمره إلاّ أيامَ مُقامِهِ بها ، وسُكْنَاهُ فيها ، مُفَرَّغًا إلى ما يريدهُ من دنيا وآخرة ، وعافية شاملة وجنّة عالية ...» (٣١) .

غير أنه – أي الدكالي – لم يكن مسيئًا في ردّه ، ولا متحاملاً على ابن الخطيب في أرجوزته ؛ بل اكتفى بتوجيه خطاب مباشر إليه يَعْتِب عليه فيه ما كتبه عن بلدته ومسقط رأسه سلا :

إنَّ الوزيرَ ابنَ الخطيب قد كتبْ
بما يسوء أرضنا وما أصابْ
أودع في ريحانة الكتّاب
مقالةً تُخلُّ بالآداب
فاضل بينها وبين مالَقَهْ
من الجزيرة فأبدى حمَقَهْ

وينبّه الدكالي في هذه الأبيات إلى أنَّ ابن الخطيب لم يكن مصيبًا في إساءته ولا منصفًا في ادعاءاته ، وإنما أساء إلى نفسه ، فجحدَ الفضلَ وتنكّرَ لها تَنَكُّرَ الدهر له .

ويبقى السؤال معلقًا حول الأسباب التي حدت بابن الخطيب إلى الإساءة والذم بعد الإشادة والمدح (٣٢) ، يقول: حسين مؤنس «إننا لا ندري شيئاً عن السبب الذي حفَّزَ ابن الخطيب على إنشاء هذه المقامة» (٣٣) .

أما محمد بنشريفة فيرى «بأن مالقة وسلا في مفاضلة ابن الخطيب ليستا سوى رمزين للأندلس والعدوة (أي المغرب) . ويبدو أن هذه المفاخرة ظلت بدون ردٍّ إلى

أن جاء المؤرخ الدكالي ، فنهض للردّ عليها بأرجوزته» (٣٤) .

وقد تنبّه الدكتور حسين مؤنس – الذي لم يقف على ردّ ابن علي كما يقول بنشريفة – إلى أن مفاخرة ابن الخطيب هي «جملة تخلو من الذوق على سلا ، وهي مدينةٌ طالما آوت ابن الخطيب . وأحسنت إليه ، ولكن هذا كان شأنُ الكثيرين من الأندلسيين مع المغرب – وغير المغرب – من البلاد» (٣٥) .

وانتصارًا للمغاربة ، فقد أكد بنشريفة «أن الأندلسيين كانوا على العموم هم البادئين بالتجنّي على أهل العدوة الذين كان لهم الحظُّ الأوفر في فتح الأندلس والإسهام في بناء حضارتها أوّلا ، ثم الذودُ عن حماها والمحافظة على بقاء الإسلام فيها ثانيًا» (٣٦) ومهما يكن سبب حقد ابن الخطيب على مدينة سلا وجحوده لفضلها ، ونكرانُه لصنيعها ، فإنَّ الدكالي – وهو يردّ على ابن الخطيب بطريقة غير مباشرة – لم ينتصر لبلدته سلا فحسب ، وإنما انتصر للعدوتين الرباط وسلا ، وكان حكيمًا في ردّه ، متزنًا في مقاله ، فلم يُشر – إطلاقًا – في كلّ الأرجوزة إلى خلاف أو تعصّب ضد ابن الخطيب ، وإنّما نجد الأرجوزة فسحةً تاريخية شملت تاريخ العدوتين منذ العهود الفينيقية الأولى إلى عهد السلطان المولى يوسف عمارةً وحضارةً وفكرًا وأدبًا .

الأرجوزة :

تتألف الأرجوزة من عشرة أبواب أو مقاصد كما اصطلح عليها الراجز ومقدمة وفذلكة ولاحقة .

المقدمة : وتضم اثنين وأربعين بيتًا ، فبعد أن حمد الله وشكر نعمه وصلى على نبيه وصحابته انتقل إلى الحديث عن منافع العلم وفوائده ، يقول :

وبعدُ ، فالعلمُ لدى أهل النهى
كمالُ للإنسان يلقحُ الدُّها

وعالمٌ أخو بلاغ يفضل
بنعمة من الإله تشملُ

وإنّ من مزيّة الإنسان
تخليد فخر شامخ الأركان (٣٧)

وفي هذه المقدمة يتحدث عن موضوع الأرجوزة وعنوانها والسلطان المهداة إليه .

وقد نظمتُ رَجَزًا مُبتكرا
لقصد يفيدُ كلَّ من درى

في جلّ أخبار الرباط وسلا
وحالِ من غبر فيها من مَلاَ

من كلّ ذي علم وذي صلاح
وذي اشتهار من ذوي النجاح

سميته إتحاف أشرف الملا
ببعض أخبار الرباط وسلا

وسقته إلى الجناب اليوسفي
ملاذ كلّ راغب ومعتفي

هدية لطيفة كما اقتضى
نظر مولانا الإمام المرتضى

ويظهر أن الدكالي أهدى أرجوزته مرتين : مرة إلى السلطان مولاي يوسف كما في الأبيات السابقة (٣٨) ، ومرة إلى السلطان مولاي عبدالحفيظ (٣٩) عندما كان مستخدمًا معه في فاس ، يقول :

وسقته للخزنة الشريفة
ذات العلوم الجمّة الوريفة

هديةً لطيفةً كما اقتضى
نظر مولانا الإمام المرتضى

مولانا عبدالحفيظ المرتضى
الملك الحائز أخلاق الرضى

فذلكة (٤٠) : في موضوع الأرجوزة ومقاصدها ، وقد نبّه المؤلفُ أو الناسخُ الشيخ أحمد بن اليمني الناصري في الحاشية (ص ٣) إلى أنه اتّبع في تقسيم مقاصد الأرجوزة تقسيم ابن الخطيب في مقامته السابقة ، يقول : «هذا التقسيم أجراه ابن الخطيب السلماني في تأليف المفاضلة بين مالقة وسلا ، فاقتضى الحال النسج على منواله ليكون الردّ عليه من نوعه وأشكاله» .

وقد جاء في طرّة النسخة 66 U ك في تعريف الفذلكة : «جملةٌ من الكلام تسبق المقصود لارتباطها به ابتداءً» ويظهر أنه تعريف العالم عبدالحي الكتاني .

تضمُّ الفذلكة سبعة وأربعين بيتًا تقصّى فيها أخبار العدوتين منذ القديم ، مستعرضًا أخبار الملوك الذين تعاقبوا على حكم المغرب :

واعلم بأنّا سنقُصّ الخبرا
عمّا مضى بها وعمّا حضرا

وجُلّ ذاك أثرٌ لمن ملك
أو نائبٌ بها وفيها قد سلك

المقصد الأول : البقعة : وفيها يصف سلا والرباط وصفًا جغرافيًا وطبيعيًا وتاريخيًا ، «شقهما الوادي» فسميتا بالعدوتين ، يقول :

وهي فسيح ذو انبطاح جيّد
قد شقه الوادي لبَحْرٍ مُزْبِدِ
وقسّمَ البقعـــة فرقتـيـن
شرقًا وغربًا سُمِّيَ بعدوتين
سلا على المشرق وبالغرب الرباط
كلتاهما ذات جمال واغتباط
قد حلتا بحلق ذاك الوادي
مثل وشاحين لدى نجـاد
بها مياهٌ ومروج وغـياض
ثم بساتين وكَرْمٌ وريـاض

هذا ؛ ويضمُّ هذا المقصد سبعة وأربعين بيتًا .

المقصد الثاني : العمارة ، وفيه ينعت العدوتين بنعت خاص هو «المِصْرُ» :

إنّ سلا بعدوتيها تُحْسَبُ
مصراً عظيما أحكمته النُّسُبُ

أما عن تجديد بناء سلا وإنشاء الرباط فيقول :

وجُدِّدتْ سلا على البحر المحيط
في صدر خامس المئين بالبسيط
وحقّق المباني لها ابن عشـره
لقاسم يُعزَى روى من خـبره
وبالربـاط خـطّ تاشـفين
قصـبة بـربـوة تـزيـن
فكان أول اختطـاط يُعْرَفُ
لدى رباط الفتح وهو أنصـفُ
كما ابتنى المعقل عبدالمومـن
ثم الربـاط بـعد ذا بزمـن

ويلاحظ - كما يرى محمد بنشريفة - : «أن الدكالي يستعمل كلمة التجديد بدلاً من كلمة الإنشاء والتأسيس ... كما أنه يعزو بناء مدينة سلا أو تجديدها إلى القاسم بن عشرة .

إذا كان الضمير في قوله : يُعزى : عائدًا إلى البناء لا إلى الباني - ويذكر أن تاريخ البناء كان في صدر القرن الخامس الهجري ؛ بل إنه يُحدّده بسنة ٤٢٠هـ» (١١) .

ويتضح من هذا القول أن مؤرخ العدوتين تراجع عن رأيه حول باني أو مجدد مدينة سلا ، فقد جاء في كراسته «لمحة من تاريخ سلا» ، ونقله عنه شفويًا المراقب المدني لمدينة سلا في العشرينات في كتابه «بيوتات مدينة سلا» ، يقول : «بنيت سلا في عهد *تميم بن زيري الزناتي الإفراني مقلك شالة وتادلة* ، وكانت مملكته من *شالة إلى فاس*» (١٢) ولعله يقصد تجديد بنائها ، أما بانيها الأول فلعلهم الرومان .

ولعل السبب في هذا التراجع اطلاعه على مصادر عديدة ، من بينها كتاب الاستبصار الذي جاء فيه : «وقد كان اتخذ أرباب البلد العشريون وأولياؤهم مدينة بالعدوة الشرقية ، وهي المعروفة الآن بسلا ، فيها ديارهم بحومة الجامع» (١٣) كانت العدوتان محط كل الأجناس الوافدة من الشرق ، ومن العدوة ، وهما مركزان تجاريان وعسكريان ، استعرض الراجز في هذا المقصد أحوالهما منذ عهد بني عشرة ، مرورًا بالمرابطين والموحدين والمرينيين والسعديين ، وظروف الجهاد بهما أثناء الحرب البرتغالية في عهد المجاهد العياشي ، منتهيًا بوصف أحوالهما في عهد الأشراف العلويين .

ويضم هذا المقصد ستين بيتًا .

المقصد الثالث : في الحضارة ، ويضم مئة بيت وبيتين ، يتناول الدكالي في هذا المقصد حضارة سلا ومبانيها المتمثلة في المساجد والمدارس والمستشفيات ، الدالة على مكانتها وعلى صفات سكانها ، فهم علماء فضلاء نبلاء .

فهي على حضارة معتبرة
ونسـبة في كتبـها مقرّره
وهذه سلا بلاد الحضـر
قدماً وحادثاً بغـير منكر
.. كفى سلا فخراً ويكفي حضراً
أن رحلَتْ إلى بنيها الكُبرا
.. كانت لها الرحلة في القديم
لما حوت من مَفْخَرٍ عظيم
من جلّة الشيوخ والنّظار
وقادة الأساتيذ الأخـيار

وفضائل الإسلام أكثر من أن تُعد :

ثم أتى الإسلام يحمل السَّنا
فبثَّ علماً ومعارف وهنا
وشاد كلَّ مسجد ومعبد
ولطف الطباع من كل ردي
وسبح الناس ببحر المعرفة
واتَّصف الدين بأكمل صفه
فملة الإسلام نبراس الهدى
ومنهج الحق وينبوع النَّدا

ويوجه الدكالي الخطاب إلى القارئ بالوقوف عند هذه الأوصاف التي تبعث على الاستغراب ، ويُستدلُّ بها على حضارة المدينة ، يقول :

إذا أحاط فكرك العجيب
بما سردنا قُلْتَ ذا غريب
وكل ذا يشهد بالحضارة
وانبذ سواه ، باء بالخساره

وحظيت المرأة السـلاوية بعناية المؤرخ ابن علي ، فتحدث عن نساء سلا وعن علمهن وكفاءتهن ، فهن عالمات مقرئات ، صالحات عفيفات ، يقول :

وكانت النساءُ فيها عالمات
وللبنات مقرئات مرشدات
فكم صدورٍ حفظت قرآننَا
وكم عقولٍ جمعتْ بَيَانَنَا
وكم لسانٍ بالبيان يصدحُ
وكم نقابٍ عن غريب يشرحُ
وكم صلاحٍ وعفافٍ قد غرب
وكم أيادي بالمعالي تكتسب
أدركتْ من ذا رونقاً عجيبا
لم يبقَ منه للنَّدا مُجيبا

المقصد الرابع : في الصناعة ، ويضم واحداً وخمسين بيتًا ، يكاد هذا المقصد يقتصر على الصناعة في سلا ، فتحدث عن دار صنعة بني مرين ، ومعمل القطن ومقصر الكتان ، وسوق اللحم ، وصناعة الدباغة ، وصناعة الأصواف ، وملاحة البحار ، وصناعة السفن أو الأجفان كما يسميها ، يقول :

وهذه سلا بها ما يُذكرُ
من الصنائع وما يُسطَّرُ
وكم بها من عملٍ مُحْكَم
وكم بناء للخلود ينتمي
.. ودار صنعة بني مرين
وغيرها ممَّا بقي للحين
فجودة البناء فيها تُعرف
وحُسن ما يُبدي العيان أنصفُ
.. وعندهم ملاحة البحار
معروفة بكثرة الأسفار
.. والآن يختص بنوها بالعمل
في كل زورق وجفن حيث حلّ

المقصد الخامس: في النضارة ، ويتضمن ثمانية وعشرين بيتًا. يهتم هذا المقصد بالحديث عن جمال المدينة وعن طبيعتها، مستشهداً بوصف ابن الخطيب لها في مقامة البلدان «فهي العقيلة المفضلة» ، ولعله يريد بهذه الإشارة التنبيه إلى تناقض ابن الخطيب في مدحه لسلا مرة ، وفي ذمه لها مرّة ثانية . يقول :

إنَّ المقادير كستْ أرض سلا
من المحاسن مناظر عُلاَ
.. ولم تزل تُذكر بالجمال
قدما وحادثا وبالكمال
.. وابن الخطيب نصَّ في المقامه
على انشراحها مع الوسامه
وكونها عقيلة مفضلة
وسورة لحسنها مفصلَه
ذات نضارة وذات خصب
وحسنها على البلاد مُرْبي

المقصد السادس : فيما يفتخر به من الشنعة وهو مختصر ، ويضم سبعة وأربعين بيتًا ، ويظهر أن المقصود بالشنعة هو السمعة والذكر الحسن . فعناية الحكام بالعدوتين عمارة وحضارة جعلتهما سوقًا تجارية مهمة ، تقصدها سفن التجار من كل مكان يقول :

وقد كفاها شنعة الأساطيل
بها فخار آخر وأوّل
وبلغ الحال بعيد الألف
أن صار ذكرها رهيب وصف

أمّا عن أهم دور لسلا في القرن الحادي عشر، فهو الدور الجهادي الذي قامت به في محاربة الإفرنج ، أمّا شهامة

أبنائها وتقاهم فقد كان مدعاة للافتخار والاعتزاز، يقول :

كفى اشتهاراً وكفاها فخراً
وجلّ وصفها وجلّت ذكـــرا
مع ما حوته من صدور العلما
وصفوة الصلاح ناس عظما

المقصد السابع : في ذكر المنعة ، ويشمل مئة وأحد عشر بيتًا ، فسلا حصن منيع منذ القديم ، ومركز جهادي ، قصدتها الجالية الأندلسية بعد سقوط الأندلس ، فوجدت عند أهلها حفاوة وتكريمًا :

اشتهرت في عهدها القديـــم
بمربط الجهاد في الإقليم
دامت سلا حصناً حصيناً مانعاً
مصلحة البر كبحر جامعا

وعن شجاعة أبنائها ودفاعهم عنها ؛ يقول :

واسترجعوا بها الثغور الشاسعة
وافتتحوا الأقاليم المتسعه
وحصدوا الجموع في الأراك
وهاجموا الحصون بالعراك
وكان جيشهم مع الأسطول
يرهب أهل العالم المفصول

المقصد الثامن : وصف الإثارة بمعنى الفلاحة

تمتاز سلا بأراضيها الفلاحية الخصبة ، ومناخها المعتدل ، ووادیها الذي يجلب الخير للعدوتين معًا ، فهي مصدر رزق المنطقة ، وهي بخضراواتها وفواكهها تغري بالتعامل مع أبنائها تجارة واستقرارًا ؛ بل إن خصوبة الأرض وعطاءها قد يكون سببًا للنزاع بين سكان العدوتين ، فتراهم يتنازعون ويتخاصمون ، لكن مع ذلك فهم في وداد وصفاء، يقول عن سلا :

ثم سلا رملٌ خصيب جيدُ
بها الكفايةُ وحالٌ يُحمـــدُ
.. فهي لذا ذاتُ اجتماع وافتراق
وعامروها في خلافٍ ووفاق
وكل قسم مستقل مكتـمل
والناس من هذا لذاك تنتقل
ومن غدا بالجانب الغربي
يغبط من بالجانب الشرقي
والعكس واقع بلا خـــلاف
فهم على خلفٍ وفي تصاف

أما عن زرعها ونعمها وخيراتها فيقول :

ثبت أنَّ لسلا أعمـــــالا
أخصب مرعاها وجلّتْ حالا
لها زروع ومواشي ونعم
ولم تعزى لخير من قـــدمْ
تفيض بالحب وبالمال معاً
وحَسُنَ الحال بها واتّسَعَا

ويتضمن هذا المقصد ثمانية وعشرين بيتًا .

المقصد التاسع : في المساكن ذات الشفوف

تميزت سلا منذ القديم بالمساكن الفخمة والقصور البديعة، والبساتين المخضرّة ، وبالبنايات الضخمة كالمسجد والمدرسة والأسوار والمارستان وغيرها ، وكلها مبانٍ تخلّد عظمة الباني وحضارته ، يقول عنها :

قد بان من منظرها الجميل
أنها بستانٌ بلا تطويـــل
وكلَها أوجلَها قصور
بديعة وحسنها مشـــهور
.. أنشا أبو العباس بن عشره
قصراً بديعاً بسلا وعمّره
وقصدته الشعراء للمدح
مهنـــئين طـلبا للمنـح

يضم هذا المقصد تسعة وثلاثين بيتًا .

المقصد العاشر : «وهو أفيد في ساكن قد ضمنته البلد» هو أكبر مقصد في الأرجوزة ، تبلغ أبياته ألفين ومئة وواحدًا وأربعين بيتًا (٢١٤١) ، وفيه يكشف ابن علي الدكالي عن علمه الغزير واطلاعه الواسع على تاريخ المغرب العلمي والأدبي والفقهي ، وعن مكانة سلا العلمية .

يُنبّه المؤرخ الدكالي إلى أن الناس قد اعتادوا على تقسيم الناس إلى طبقات حسب رتبهم ، فيتحدثون أولاً عن :

- طبقة الأملاك والحكام .
- ثم عن طبقة ذوي العقل والفطنة .
- ثم عن ذوي المال .
- ثم عن ذوي الأدب .

أما هو فإنه سيقسم في هذا المقصد الناس إلى طبقات حسب الترتيب الآتي :

– زمرة أهل الله وهم الصلحاء . – ذوو العلوم .

– القضاة . – حملة الآداب . – أملاك العلا .

يقول رجزًا :

وها أنا أقسِّمُ هذا المقصدا
إلى مراتب تعدُّ سردا
مقدِّمًا زُمْرَةَ أهل الله
من صالح وخاشع أواه
وبعدهم ذوو العلوم الكبرا
ممن روى قدمًا وأملى ودرى
وولي القضاء في أعصار
محمود سيرة بلا إنكار
وبعدهم حملة الآداب
وليسوا بالكثير للإغراب
ثمت أختم بأملاك العُلا
وقصدنا بذا ختامٌ قد حلا
مع أنهم أحق بالتقديم
وأجدر السادات بالتكريم
لكنه يختار للختام
جلائل الأشياء للإعظام

الرجال الصلحاء : تحدث المؤرخ الدكالي عن أكثر من خمسين وليًا وصالحًا في العدوتين ذاكرًا مناقبهم وكراماتهم وما يرونه في منامهم أو في غيبوبتهم ، مفصلاً القول في المؤلفات التي ذكرتهم وتحدثت عنهم ، متتبعًا بكثير من الدقة الوقائع والأحداث التي روتها كتب المناقب أو التي شاعت مشافهة على ألسنة العامة ؛ بل إنه ذكر كتبًا لم تشر إليها المصادر التاريخية ، مثل : تآليف في مناقب سيدي محمد العياشي وسيرته ، دون أن يذكر اسم مؤلفه ، ولا أعتقد أنه كتاب عبدالقاهر أبي إملاق صاحب كتاب الخبر عن ظهور الفقيه العياشي بهذه البلاد ، الذي حققه الدكتور عبداللطيف الشاذلي كملحق لكتابه الحركة العياشية (١٥) .

كما أنه أشار إلى تآليف في خبر سيدي أحمد حجي، وهو تآليف لم أتمكن من التوصل إليه ضمن مخطوطات الخزانة العامة .

طبقات القضاة والعلماء : يخصص ابن علي الدكالي سبعة وعشرين بيتًا في مقدمة هذه الأبيات للحديث عن العلم وفضله ، وولع أهل العدوتين به ، يقول :

وقل على الإجمال لا التفصيل
مقالة تعرب عن تحصيل
إنّ العلوم والفنون وصلت
إلى سلا بوجهتين اتصلت
رحلة أرباب التعاطي النجبا
منها ورحلة الغريب نحوها
... والعلم ذو الكمال ممّا يتّسع
فيه بحال العقد فاعرف واتبع

أما العلماء والقضاة فهم خمسة وستون عالمًا مفتيًا أو قاضيًا وقد فصّل القول عن كل واحد في سلا وفي الرباط ، ذاكرًا مؤلفاتهم (١٦) وفي بعض الأحيان فتاويهم ، فذكر لشيخ الفضلاء إبراهيم التادلي أكثر من خمسين مؤلفًا وقف عليها الناظم (١٦) ، يقول :

في كلّ علم غيرُ ما تصنيف
وكم غريب الصنع من تآليف
رأيتُ جلّها غريبًا ممتعا
في نحو خمسين كتابًا مقنعا

وأثناء استعراض المؤرخ الدكالي للعلماء القضاة ينبه إلى فائدة سيدرجها في هذه الأبيات (١٧) :

قال المرجّز وهاكم فائده
ليستْ بحشوٍ لا ولا بزائده
تبصرة لمن يريد أن يرى
أحوال غير مسلم من الورى
فإن هذا الجيل جيل معرفه
بحالة الدّنا بإمعان صفه
وأمم الغرب أحكموا العمل
وشاركوا الناس بما قلّ وجلّ
وامتلكوا بما بدا من مقدره
وعمروا من البسيط أوفره
وأتقنوا معرفة الأشياء
وحيروا العمران في نماء

ففي هذه الأبيات يتحدث المؤرخ عن مدنية أوربا في عصرنا الحاضر ، وعن الاكتشافات العلمية التي مكّنت الغرب من التقدم في جميع الميادين ، مبديًا تحسّره على

العرب الذين لا يسايرون عصرهم ، ولا يعملون على تطوير معارفهم وعلومهم :

ولو مشى الشرق كسير الغرب
لأحـــرزَ الـفـوزَ بكلِّ صـــوب
لكـــنـه أهمــل مـا قـد خُوِّلا
مـن المعـارف فـظـل عاطــلا
ألم يك الشرق عجيـب الحـال
في العـلـم والـقـوة والأمـوال
ألم يك الشـرق منـاط المجـد
في كل ما قــد دنـا له بجـدِّ
... فقل على الإجمال قول حق
من جدّ سار في معالي السبق
ومن تواني قد أضاع المجـدا
وأهمل النفس فجـاز الحــدَّا

إنّ تأخّر العـرب وتقـهـقـرهم راجع إلى توانيـهم وخمـولهم ، فـضـيَّعـوا أمـجـادهم وتخلّفـوا عن الركب الحضاري، وهم مسئولون عن كلّ ما حصل لهم .

طبقة الأدباء : يستهل الراجز الحديث عن هذه الطبقة بمقدمة يصف فيها أهل الأدب ، يقول :

هنا انتهى القول بثاني الرتب
مع اختصـار جامع النخب
وإنما ذكرتُ أهـل المعرفـه
وحدت عن حشو بها لن أصفه
وإن تشا فكاهــة الألبـاب
فاسمــع إلـى طبقـة الآداب
إنّ الأديب من تبدأ متقنـــا
لاثني عشر من العلـوم علنـا
وهي التي تعرف بالوسائـل
وبمعـــارف اللســان الأكمـل
وكان في سلا حديثًا وقديـم
أئمـــة بـــدوا كمـــالاً للعليم
قد نظموا وحاضروا ونثروا
في ميادين المعالي حضـروا

وقد بلغ عدد الأدباء والشعراء الذين ذكرهم الراجز ثلاثة وعـشـرين أديبًا ، منهم العـلامـة المشـارك ، وأديب عصره ، والأديب ، وأعجوبة الدهر ، والقاضي المشارك ، والأديب الماهر ، إلى غيرها من الأوصاف التي كان ينعت بها كل شخصية يريد الحديث عنها ، ويتميز الراجز بقدرة عـجـيـبـة على الاستـشـهـاد بآراء النقـاد والمؤرخين الذين ترجـمـوا للأديب المتـحـدث عنه ، وعلى أسـمـاء الكتب الأندلسية والمغربية التي تناولت حياتهم وآثارهم الشعرية أو النثرية ، مع ذكر تاريخ وفاة كلّ واحد منهم .

كما أنّ الراجز يعنى بالترجمة لهؤلاء الأدباء حسب التسلسل التاريخي ، مبتدئًا بأبي العباس بن عشرة ، ومنتهيًا بأبي العباس بن محمد بن علي «عمّ الشاعر» .

طبـقـة الأمـلاك : وخـصـصّ هذا القـسـم من الأرجوزة للحديث عن الملوك والأمراء الذين استقرّوا بسلا، أو كانوا من حين لآخر يتخذون منها مركزًا لنشاطهم وقد تميـز هؤلاء الملوك بالتـشـيـيـد والبناء وبالاعـتـناء بالعلم والعلمـاء ، والجـهـاد ضـد الأسـبـان والبـرتـغـال ، فكان الأسطول البـحـري من أهم الإنجازات في مـدينة سـلا خصوصًا في القرن الحادي عشر الهجري ، كمـا أن العناية بالطلاب كانت فائقة في سلا والمغرب ، وفي البعثات الطلابية التي حرص عليها السلطان المولى الحسن الأول ، وقد حظي السلطان سيدي محمد بن عبدالله بنصيب كبير في هذه الأرجـوزة ، فـتـحـدث عن صفـاته الحـمـيـدة وعن مناقبه الكثيرة ، مما جعل العلماء يهتمون به وبأخباره ، ويدوّنون الكتب الكثيرة في سيرته وعلمه ، ولحرصهم على تداول هذه الكتب وانتشارها فقد لحقتها مـخـتـصـرات مفيدة، يقول عنه :

وحال هــذا الملك الجليل
تجلّ عن عرف وعن تحصيل
قد دوّن الناس بها أسفارا
قد خُصّصت وعُممّت جِهـارا
وشأن هذا النظم الاختصار
ليحسنُ التحصيل والتذكار

أما الملوك والأمراء الذين ذكرهم فتسعة .

لاحقة : يتفاوت عدد أبيات اللاحقة من نسخة إلى أخرى ، أقلُّها خمسة وعشرون بيتًا في نسخة الخزانة الحسنية رقم ٢٢٧ ، وأكثرها ثمانية وثلاثون بيتًا في نسخة الخزانة العامة رقم ١١ د ، لكن كل النسخ تثبت الخمسة عشر بيتًا في الرد المباشر على ابن الخطيب الذي ذمّ سلا وما أصاب ، وإنما أساء إلى نفسه بعد أن أحسنت المدينة

إليه وأكرمت وفادته ، يقول :

إن الوزير ابن الخطيب قد كتب
بما يسوءُ أرضنا وما أصاب
أودع في ريحانه الكتاب
مقـالـــة تخـلّ بالآداب
فاضل بينها وبين مالقه
من الجزيرة فأبـدى حمَقَـه

ويحرص الراجز على تنبيه ابن الخطيب إلى أنه لن يسيىء إلى مالقة ، ولن يهجوها كما فعل هو ، لأنها لم تسئ إليه ولم تكن خصمًا له ولا لبلدته ذات يوم ، يقول :

وقد حللتُ مبرم الوزير
وانتصرت سلا مع التحرير
ولم أسـم مالقة بَسوم
فلم تكن خصماً لنا بيوم
فبيننا البحار والبراري
وحسبنا تفاخـر الجـوار

ويعتز الراجزُ بأرجوزته ويذكر تاريخ نظمها ، وعدد أبياتها ، وكونها هديةً يرجو أن تنال القبول فيحظى بالمنحة والعطية ويقول :

مُعَوِّلاً على رجـا الفتـاح
في نيل ما أملت من أمناح
ومن جميل الستر والغفران
لعظم ذنب وارتفاع شان
.. ثمت أرجو من أيادي المولى
قبولـه هـديـة تُحلّـى
بكل خير من أيادي نعمته
وكلّ إسعاف لداعي رغبته

أما عن قيمة الأرجوزة ، فيقول الراجز :

وتمّ ذا النظم بكلّ شـرف
لخصته من وضعنا المصنَّف
وزدتُ فيه من درر لم تُعرف
ألحقتها زوائداً كالطُّرف
فجاء تأليفاً عزيز المثـل
علماً وموضوعاً وحسن شكل

خاتمة وتعليق

يتضح من خلال دراسة هذه الأرجوزة أن الدكالي كان كغيره من العلماء ذوي العلم الغزير والاطلاع الواسع ، فهو لا يكتفي بسرد الخبر في المقصد الواحد ؛ بل يتناوله بطرق شتى في المقاصد الأخرى تأكيدًا وتوثيقًا ، وفي هذه الأرجوزة أخبار تاريخية كثيرة عن العدوتين ، وعن المعارف والعلوم والصنائع ، وعن الصلحاء والعلماء والأدباء والملوك كما تتضمن فوائد كثيرة كانت تتخلل تراجم الرجال الصلحاء والأدباء والفقهاء ، منها ما يتعلق بالأحكام النجومية ، ومنها ما يتعلق بأحوال التمدن الجديد ، وبالأمور الغيبية وغير ذلك .

ولعلّ سعة معلومات المؤرخ ابن علي الدكالي أوقعته في الكثير من التكرار ، فهو ينقل الخبر مرة ومرتين وإن تعدّدت صيغ نقله .

بل أكثر من ذلك ، فبمقارنة أولية بين الأرجوزة وكتاب «الإتحاف الوجيز» يتأكد لنا أن الراجز عمد إلى نظم الإتحاف الوجيز رجزًا ، إلاّ أنّه في الأرجوزة – خصوصًا ما يتعلق بالتراجم – أظهر قدرة كبيرة على تصنيف الرجال وعلى تصنيف مؤلفاتهم ، وعلى ذكر علاقاتهم ببعضهم أو بسكان المدينة .

وإذا كان المؤرخ الدكالي واسع الاطلاع ، فإنه كان على دراية دقيقة بما ينظم القول فيه ، إذ تجاوز عددُ المصادر التي أوردها في أرجوزته الثلاثين مصدرًا منها المخطوط ومنها المطبوع : في التاريخ والجغرافية والتفسير والحديث والأدب والفهارس وغير ذلك ، كما أنه ذكر أنه اطلع على أكثر من خمسين مؤلفًا لشيخ الفضلاء إبراهيم التادلي الرباطي (ص٥٧ نسخة ٤٦٦ ك) .

واللافت للنظر أن الدكالي يذكر المصدر دون أن يشير إلى صاحبه ، خصوصًا فيما يتعلق بالمصادر القديمة ، أمّا المؤلفات الحديثة كمؤلفات الحافي وأبي بكر بناني وعبدالسلام الرندي ، فهو يكتفي بالإشارة إلى صاحب التأليف فقط ، ولا بأس من تقديم مسرد للمؤلفات التي أوردها في كتابه واعتمد عليها في استقاء معلوماته :

- نزهة المشتاق أو وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية للإدريسي .
- الاستبصار في عجائب الأمصار لمجهول ، وقد حقق محمد بنشريفة نسبته إلى ابن عبد ربه الحفيد (؟) : انظر : مجلة (الأكاديمية) ع ٥ .
- المسالك والممالك (جزء من المغرب في ذكر بلاد

إفريقيا والمغرب) لأبي عبيد البكري الأونبي .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبدالواحد المراكشي .
- قلائد العقيان للفتح بن خاقان
- الفتوحات المكية لمحي الدين بن عربي .
- التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات التادلي
- تحفة الزائر بمناقب الشيخ ابن عاشر لأحمد بن عاشر الحافي السلاوي .
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني : محمد بن الطيب القادري .
- درة الحجال في غرة أسماء الرجال لأحمد بن القاضي .
- جذوة الاقتباس فيمن حلّ من الأعلام مدينة فاس لأحمد بن القاضي .
- تحفة الناظر لأحمد بن عبدالقادر التستاوتي .
- مناقب سيدي محمد العياشي ؟
- فهرسة في أخبار العكاري (أو البدور الضاوية في ذكر الشيخ وتلاميذه وبناء الزاوية) لعلي بن محمد العكاري .
- فهرسة الحافي في ذكر أشياخه .
- ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتباع لمحمد المهدي الفاسي .
- البستان الظريف في دولة أولاد مولاي علي الشريف للزياني .
- تآليف أبي بكر بناني في التصوف .
- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في ذكر صلحاء الريف لعبدالحق الباديسي .
- شرح مقصورة ابن دريد .
- تفاسير القرآن .
- شروح الإمام مسلم .
- نظم في السيرة .
- شرح خليل .
- صفوة من انتشر من صلحاء القرن الحادي عشر لليفرني .
- مختصر المعيار لعبدالسلام الرندي .
- مختصر السنوسي في المنطق للقاضي المنصوري ابن سعيد .
- شرح كبرى السنوسي في التوحيد للقاضي المنصوري ابن سعيد .
- حواشي على شفاء القاضي عياض للشيخ أبي سرحان .
- حاشية على شفاء عياض للقاضي أبي عمران موسى الدغمي .
- كتاب لامية الأفعال للشيخ ابن المجراد الفنزاري السلوي .
- تاريخ الضعيف .
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس لابن عميرة الضبي .

وقد تميزت الأرجوزة بالدقة والوضوح ، فهو لا يتحدث بمعلومات نقلت إليه أو سمعها ؛ بل من المؤكد أنه يأتي بمعلومات مضبوطة اطلع عليها في مصادر ووقف عندها لنظمها شعرًا في أرجوته .

لغة الأرجوزة سليمة بسيطة ، خالية من المحسنات اللفظة أو المعنوية . قريبة المأخذ ، يسهل على القارئ تتبعها وفهم مراميها .

وإذا كانت سلا قد حظيت في هذه الأرجوزة بنصيب أوفر ، أثناء الحديث عن العدوتين مثل ما كان عليه الأمر أثناء التاريخ للعدوتين نثرًا في كتابه **الإتحاف الوجيز** ، فإن مردَّ ذلك على ما يبدو انتماؤه إلى سلا ، واستقراره بها ، واحتكاكه بعلمائها وبسيرة رجالها ، وقد تنبّه المؤرخ الدكالي لهذه الملحوظة وأجاب عليها في كتابه الإتحاف الوجيز قائلاً (٤٨) :

«إنّي لا أنكرُ فضل الرباط ، ولا أُغْفلُ ذكره ، فيكون فيَّ إفراط ، وإنما ذكرتُ في حق سلا ما بلغني عن أولئك الأعلام ، فلا يَتَوجَّهُ إليَّ مَلاَم» .

لقد كان ابن علي الدكالي أمينًا في حديثه ، دقيقًا في ملاحظته ، فهو لا يتعصب لسلا أبدًا ؛ بل في كثير من الأحيان يتحدث عن سلا ويقصدُ العدوتين سلا والرباط(٤٩) :

إنّ سلا بعدوتيها تُحْسَبُ
مصراً عظيماً أحكمته النّسبُ

أو عندما يقول (٥٠) :

وقَسِّمتْ بالنهر عُدوتين
ونسبَتْ كلتاهما لزَيْن

إن أرجوزة «**إتحاف أشرف الملا**» مصدر من

مصادر التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والأدبي للعدوتين ، فيها تتضح معالمُ الحضارة المغربية ، ومظاهرُ العمران ، ورخاءُ الحياة وقسوتها حسب العصور ، وفيها الشيءُ الكثير عن معالم الحركة الأدبية والثقافية في العدوتين برجالها وأعلامها . إنّ هذه الأرجوزة - لو اقتصرنا فقط على قسم الأعلام فيها - تُعدُّ بحق ثروةً أدبية قدّمتْ لنا مادةً أساسيةً للترجمة للرجال المغمورين في العدوتين على الأخصّ ، أما بالنسبة للمشاهير فقد أضافت معلومات أخرى تغني في التعرف إلى البيئة العلمية التي نشأ فيها المترجم لهم .

ولا شك أن هذه الأرجوزة نالت اهتماماً خاصاً من طرف من أهديت إليهما السلطانان المولى عبدالحفيظ والمولى يوسف ، كما أنها نالت اهتمام الأدباء والمؤرخين المعاصرين لابن علي الدكالي ، فانتسخوها أكثر من مرة ، وإن كنّا لا ندري بالضبط كم عدد نسخها عند أسرة المؤرخ ابن علي أو عند أصحابه ومعاصريه ممن لم تساعدنا الظروف على الاتصال بهم ، والاستفادة من غزير علمهم لأن أغلبهم قد انتقل إلى الدار الآخرة .

إنّ هذه الأرجوزة بمادتها الخصبة المتنوعة تلفت النظر إليها لتحقيقها ودراستها دراسة متأنية دقيقة ، تكشف عن خباياها فيما يتعلق بالتاريخ للعدوتين منذ القديم إلى عصرنا الحالي ، وتُعرِّفُ بأعلامها وبمؤلفاتهم خصوصًا وأنّه وقف عندها طويلاً ، أمّا الفوائد والطرف التي تضمنتها الأرجوزة فهي مادة علمية من جهة ، ومادة فكاهية من جهة ثانية يحاول بها التخفيف على القارئ .

وأخيراً ؛ فالأرجوزة صفحة مشرقة من صفحات تاريخ العدوتين وتاريخ المغرب .

الهوامش

١ - شذرات تاريخية عن مدينة سلا ، من كتاب في النهضة والتراكم ص ٢٤٢ .

٢ - ط ١ ، ص ٣٣ - ٨٤ .

٣ - جاء في لسان العرب ، «الرجز بحر من بحور الشعر معروف ، ونوع من أنواعه يكون كلّ مصراع منه مفرداً ، وتسمى قصائده أراجيز ، واحدتها أرجوزة ، وهي كهيأة السجع ، إلا أنه في وزن الشعر ، ويُسمى قائلهُ راجزاً ، كما يسمّى قائل بحور الشعر شاعراً» .

- انظر كتاب العمدة لابن رشيق ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، ج ١/ ١٨٢ - باب في الرجز والقصيد .

٤ - المتوفى سنة ١٠٩٦هـ ، انظر نشر المثاني ج ٢ / ٣٢٥ .

٥ - المتوفى سنة ١١٤٢هـ ، انظر سلوة الأنفاس ج٢/ ١٠٠ .

٦ - المتوفى سنة ١١٢٤هـ ، انظر النبوغ المغربي ج ١ / ٢٧٢ .

٧ - انظر المصادر العربية لمحمد المنوني ج ١/ ١٦٣، رقم ٣٩٤ .

٨ - المتوفى سنة ٦٩٧هـ ، انظر الجزء ٩ ، من سلسلة ذكريات مشاهير رجال المغرب لعبدالله كنون .

٩ - المتوفى سنة ١٩٤٥ ، وسنفصل الحديث عنه بوصفه موضوع البحث .

١٠- المتوفى سنة ١٩٤٥ ، انظر التأليف ونهضته في المغرب ص٢٠٤ .

١١- انظر مصادر ترجمته في :

- ترجمة محمد بن علي الدكالي في وريقات بخطه ضمن مجموع بمؤسسة علال الفاسي ، رقم ٢١٥ ع .

- العلامة المؤرخ محمد بن علي الدكالي ، للسيد محمد بن عبدالله المغربي ، جريدة السعادة ، عدد ٦٤٧٠ ، فاتح غشت ١٩٤٥ .

- من أعلام الفكر المعاصر : عبدالله الجراري ، ج٢ / ١٧٧ .

- التأليف ونهضته في المغرب : عبدالله الجراري ص١٩١ - ١٩٤ .

- الأعلام للزركلي ، ط ٤ - ج ٧ / ٨٣ .

- مقدمة تحقيق الإتحاف الوجيز لمصطفى بوشعراء ص ٥ - معجم المطبوعات المغربية للإدريسي ص١١٦ .

١٢- وريقات ضمن مجموع رقم ٢١٥ ع .

١٣- أشار عبدالحي الكتاني إلى علاقته بالمؤرخ محمد بن علي الدكالي بخطه في الصفحة ١ من نسخة إتحاف أشرف الملا ، مخطوط الخزانة العامة رقم ٤٦٦ ك ، «كانت بيني وبينه صداقة ووداد ، وكلما وردت لسلا بدأنا بالزيارة وأكثرنا التردد ، ولو جمعت الرسائل التي كانت بيننا وبينه لخرجت مني مجلدات نفيسة» ويتابع مسجلاً بخطه : «وأهداني عدة كتب نفيسة ، وآخر اجتماع لي به في سلا قبل موته بنحو ثلاثة أشهر ، واستجزته في نظمه وشعره لأولادي» .

١٤- المصدر السابق ، وهو يعني المؤرخ الدكالي الذي وافاه الأجل عشية يوم الجمعة ٦ جمادى من عام ١٣٦٤هـ بسلا ، عن سن يناهز الثمانين سنة ، ودفن بالزاوية القادرية صباح يوم السبت ، رحمه الله رحمة واسعة .

١٥- وريقات بخط ابن علي ، مجموع رقم ٢١٥ ع .

١٦- م ح ح رقم ١١٦٤٧ ز .

١٧- حقق الكتاب مصطفى بوشعراء ، ط ١٩٨٦ .

١٨- من أعلام الفكر المعاصر ، ج ٢ / ١٨٠ .

١٩- ص ٦ - ٨ ، وانظر كذلك مقال محمد حجي عن «محمد بن علي الدكالي السلوي مؤرخ العدوتين» وفيه جرد لأسماء

مؤلفاته، (كتابة تاريخ العدوتين) ضمن منشورات النادي الجراري ص ٣١ إلى ٣٩ .

١٩م – اعتمدتُ بصفة خاصة على النسخة رقم ١١ د ، ذلك أنّ عدد الأبيات الشعرية يتفاوت من نسخة إلى أخرى .

٢٠– ط ١٩٨٣ ، ص ٨٤ – رقم ١٢٨ .

٢١– ج١ ، فهرس التاريخ وكتب الرحلات ، ص١٧ ، ط ١٩٨٠.

* – المرجح أنها بخط المؤلف ، إذ جاء في أول ورقة : إتحاف أشراف الملا ببعض أخبار الرباط وسلا لابن علي الدكالي السلاوي ، الدار بخطه .

٢٢– ص ٣٥٥ ج ٢ حققه ووضع حواشيه محمد عبدالله عنان ، ١٩٨٠ ؛ وانظر كذلك مشاهدات لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق أحمد مختار العبادي ط ١٩٥٨ ، ص٥٧ ، مطبعة جامعة الإسكندرية .

٢٣– ص ٣٥٧ ، المصدر نفسه .

٢٣م – مع الأسف ، لم يذكر الناصري أبيات ابن الخطيب ، وبعد البحث والتنقيب اتضح أنها ثمانية أبيات أوردها الشاعر في نفاضة الجراب ص ٣٦٢ .

٢٤– من رسالة للدكالي إلى المؤرخ جعفر الناصري مؤرخة في ٢ ذي القعدة عام ١٣٥٤هـ / ٢٦ يناير ١٩٣٦ ، انظر ابن الخطيب في سلا لجعفر الناصري ص ١٠٩ – ١١٠ ، ط ١٩٨٨ ، لم يورد أي مصدر ترجم للدكالي هذه المقالة .

٢٥ ، ٢٦– المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

٢٧– ص ٣ ، ٢٢٧ خ ح .

٢٨– «اغتنام المسرّة ، باتقاء المعرّة» ، ابن الخطيب في سلا ، ص١١٠ . وانظر الأبيات في نفاضة الجراب ، تحقيق أحمد مختار العبادي ص ٣٦٢ .

٢٩– ص ١٤١ ، نسخة ٢٢٧ خ ح .

٣٠– ابن الخطيب في سلا ص ١٠٨ ، في الأصل «تلاده».

٣١– المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

٣٢– انظر معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة ، ص ٧٤ .

٣٣– نقلاً عن محمد بنشريفة في مقاله «من مفاخرات العدوتين» ص ١٣» ، مجلة كلية الآداب ، العدد الأول ، سنة ١٩٧٧ .

٣٤ ، ٣٥– المقال نفسه ، والصفحة نفسها .

٣٦– المقال نفسها ، ص ٨ .

٣٧– ص ١ ، نسخة رقم ١١ د ، خ ع .

٣٨– ص ٢ ، نسخة رقم ١١ د .

٣٩– ص ٢ نسخة رقم ٢٢٧ خ ح .

٤٠– انظر الذيل والتكملة ، س ٨ ، ق ١ ، مقدمة الكتاب ص٧٨ .

٤١– هذا التنبيه أورده الناسخ أو القارئ في الحاشية ، ص٧ . انظر : أسرة بني عشرة ، ص ٦٩ – ٧٠ ، مجلة البحث العلمي، عدد ١٠ ، سنة ١٩٦٧ .

٤٢– لمحة من تاريخ سلا ، مخطوط بالخزانة الصبيحية ، بيوتات مدينة سلا : تأليف جان كوستي وبلقاسم بلعربي عشاسي ، تحقيق وتقديم نجاة المريني ، ص٢٥ .

٤٣– الاستبصار في عجائب الأمصار لمجهول ، تحقيق سعد زغلول عبدالحميد ، ص ١٤٤ .

٤٤– ط ١٩٨٢ / ص ١٨٥ .

٤٤م – ذكر محمد حجي في مقاله : (محمد بن علي الدكالي مؤرخ العدوتين) : كتابة تاريخ العدوتين ص ٣٦ : أنّ للفقيه ابن علي كتابا باسم : «السفينة المنجية في أخبار أهل الزاوية الحجية» توجد صفحات منه عند حجي / كتابة تاريخ العدوتين .

٤٥– ص ٥٧ من نسخة ٤٦٦ ك .

٤٦– انظر الملحق حيث مسرد عام للمؤلفات التي ذكرها الدكالي .

٤٧– انظر ص٨٥ من نسخة ١١ د ، وص٥٥ من نسخة ٤٦٦ ك .

٤٨– تحقيق مصطفى بوشعراء – ص ٣٦ .

٤٩– نسخة ١١ د .

٥٠– نسخة ١١ د .



ديوان معن بن أوس المزني

عبدالمجيد الأسداوي
جمهورية مصر العربية

معن (١) بن أوس بن نصر بن زياد بن أسعد بن سُحَيْم بن ربيعة بن عداء بن ثعلبة بن ذؤيب بن سعد بن عداء ابن عثمان بن عمرو المزني من الشعراء المخضرمين الذين ترددوا وإلى كلٍّ من عُبيد الله بن عباس (ت ٥٨هـ) وسعيد بن العاص (ت ٥٩هـ) ، ومعاوية بن أبي سفيان (ت ٦٠هـ) وعبدالله بن الزبير (ق / ٧٣هـ) ، وعبيدالله بن جعفر (ت ٨٠هـ)، وتبادل الشعر مع الفرزدق (ت ١١٢هـ) في المربد ، وتقلبت عليه ظروف الحياة بعد صبا رغدٍ إلى كهولةٍ فقيرة بائسة، حتى أسنّ وأصابه العمى، وظل يعيشُ، بعد عودته من الشام والعراق في منازل قومه بجوار المدينة ، حتى وافته منيتُه بين سنتي (٦٤هـ) و (٧٣هـ) .

ويستفاد مما ذكره ابن النديم (٢) أن أبا سعيد السكري (ت ٢٧٥هـ) قد عمل شعر معن . ويبدو أنه حظي باهتمام كل من أبي عمرو الشيباني (ت بين ٢٠٥ - ٢١٣هـ) ، والأصمعي (ت ٢١٦هـ) وثعلب (أبو العباس أحمد بن يحيى) (ت٢٩١هـ) (٣) . غير أن ذلك كله قد ضاع من ذاكرة التاريخ ، باستثناء ما نقله أبو علي القالي (ت ٣٥٦هـ)، إلى الأندلس، سنة (٣٣٠هـ) في كراستين (٤)، ولم يصل إلينا هذا الجزء كاملاً ، بل تعرّض هو الآخر لشيء من النقصان والتلف ، حتى وقعت يدُ (باول شفارتز ١٨٦٧ - ١٩٢٨م) على مخطوطةٍ وحيدة منه بمكتبة الدير الملكية في الأسكوريال ، تحت الرقم (١٩٢١) ، فوصفها بأنها مخطوطةٌ من رقٍّ قديم ، كانت صفحاتُه مشدودةً ببعضها بخيوط جلدية ، وهي مع الأسف، ناقصة الأجزاء ، ويحتل ديوانُ مَعْنٍ فيها ست عشرة ورقة ، والنهاية مفقودة منذ زمن بعيد على ما يبدو ؛ لأن الصفحة الأخيرة (رقم ١٦) ، ممحية إلى درجة استحالتْ معها قراءةُ الخط قبل استعمال مواد كيماوية كاشفة ، أما خط المخطوط فهو (المغربي - الأندلسي) ، ولا يذكر الكاتب اسمه ، ولكننا نفهمُ من إمضائه في القطعة الثانية ، بأنه كان يُدوّن القصائد وهو يستمع إلى شخص يُملي عليه . فالمخطوطة إذًا دفترُ محاضرات طالب ، ويُحتَملُ أنه كان يتلقى العلم في قرطبة على يد القاليٍّ نفسه ، أو أحدِ تلامذته، ويستمع إلى المحاضرات عن الشعر العربي القديم ... (٥) .

ويذهب نوري القيسي وحاتم الضامن (٦) إلى أنه ربما كانت هذه النسخة من الديوان هي من صنع القاليٍّ نفسه. وهو مذهبٌ لا أملك من الشواهد والأدلة أو القرائن ما يؤيّدُه ، أو ينفيه . ومهما يكن من أمر فقد قام (شفارتز) بنشر هذه المخطوطة بمطبعة (ليبزج) عام (١٩٠٣م) .

وذكر سزكين أن كُلاًّ من (ريكندوف) و (جاير) قد كتبا عن هذه الطبعة عرضين نقديين وأن ثانيهما قد أضاف إليها إضافات وتخريجات للنصوص ، وأن (ريشر) قد أعدّ ترجمة ألمانية لهذا الديوان ، ضمن كتابه المتضمن دراسات عن الشعر العربي (٧) .

وباستثناء المقطّعات القصيرة التي أثبتها القاليٍّ منسوبة للمحرق ابن أخت معن ، يخاطب فيها خاله ، ويهجو بني الأدرع ، ويتغزل .. فقد وصل إلينا في هذه المطبوعة (٢٥٧) بيتًا ، جاءت في إحدى وعشرين قصيدةً ومقطّعة ، أوردها الناشر ، مُتبعًا كلّ عدة أبيات بشروح القالي نفسه ، أو صانع الديوان ، بدون ترقيم للأبيات أو القصائد و المقطعات، مُعقبًا عليها بعمل فهرست للقوافي، مذيلاً بالتقديم لعمله والترجمة للديوان إلى اللغة الألمانية .

وتحتل القصائد وفهارسُها بالعربية الصفحات من (١ - ٣٨) بترقيمها اللاتيني .

وقد أشار نجيب العقيقي (٨) إلى أن المستشرق نولدكه (١٨٣٦ - ١٩٣٠م) قد عمل ديوان معن ابن أوس ، ونشره في المجلة الآشورية، (١٧ / ٢٧٤) ، وهو عمل لم يتيسّر لي الاطلاع عليه بعد ، ولعله يعتمد على مخطوط الأسكوريال ، مع بعض الزيادات التي أضافها صاحبه مما عثر عليه من أشعار معن في المصادر المختلفة.

وفي سنة (١٩٢٧م) قام كمال مصطفى بالاطلاع على مطبوعة شفارتز فجعلها أساسًا لدراسة حياة معن

وشعره وأخباره ، وهي دراسة تضمنت شعر معن بمطبوعة (ليـبـزج) ، دون تعـديل ، مع وضع عناوين لكثـيـر من القصائد، والمقطّعات ، كشطرة من القصيدة ، مضيفًا إليها ما عثر عليه للشاعر في كتاب الأغاني وغيره ، بمايصل إلى خمسة وثلاثين بيتًا ، ملحقًا به نبذة مختصرة في تراجم الأعلام ، الأعلام الذين ورد ذكرهم في مقدمته ، أو في الديوان ، مـذيلاً هذه القصـائد والمقطّعـات ، إضـافـة إلى شروح القالي ، بتفسير بعض الألفاظ دون ترقيم القصائد، أو الأبيات ، مختتمًا عمله بإيراد ما يُضربُ به المثل من شعر معن .

ويقع أصل الديوان في هـذه المطبوعة من صـفـحـة (١ – ٦٣) إضافة إلى بيتين وردا في صفحة (٧١) ، أما المقدمة التي تناول فيها المؤلف نسب معن ومولده ، ووفاته وشعره ، ومنزلته عند أهل الأب ، وأخلاقه ، وحالته المادية ، وإقـلاله ، ونسـخـة ديوانه ، وترتيبه ، وشـرحه – فـتـقع في الصـفـحات (ب – ي) بينما تحتل الإضافات من صفحة (٦٣ – ١١٦) .

وقـام نوري القيـسي وحـاتم الضـامن بصنعة ديوان معن ، مـسـتـفـيـدين من مطبـوعـتي (ليبزج والقاهرة) ، مقسّمين الديوان ثلاثة أقسام، جاء شعر معن برواية القالي، مضافًا إليه خمسة أبيات في القسم الأول، وتلاه شعر معن في غيـر الديوان ، مـرتبًا حسب حروف الهـجـاء ، مُنسّقـة مفردات كل قافية وفق حركاتها : الضم فالفتح ، فالكسر ، فالسكون ، فالموصول بالهاء ، شارحين بعض المفردات .

وتبلغ أبيـات هذا القسـم اثنين وثـمـانين بيـتًـا ، أمـا القسم الأخير ، فقد احتوى على خمسة أبيات ، مما نُسِب لمعن ولغـيـره من الشـعـراء ، مُذيلاً بـتـخـريج القـصـائد والمقطعـات في كل أقـسـام الديوان ، فـثـبت بالمصـادر والمراجع .

وتتـصـدر الشـعـر في هذا العمل مـقدمـتـان ، الأولى للمـحـقـقين ، وقـفـا فـيـهـا على الموقع الجـغـرافي لمُزَينة ، ومكانتها في الإسلام ، معرّجين على حياة معن وأحواله الاقتصادية والاجتماعية وغيرها ، ملمين بالخصائص الفنية والموضوعية لشعره ، مختتمين بالحديث عن ديوانه ، وما تبقى منه ، والإشارة إلى منهجهما فيه ، ثم مقدمة شفارتز بعد ترجمتها .

والقـصـائد والمقطّعـات في هذه المطبـوعـة مُرقّمـةٌ ، مضبوطةٌ ، ومشكولةٌ ، وقد ظهر هذا العمل لأول مرة في مجلة كلية الآداب، جامعة (؟) بالعراق ، في عددها الحادي والعشرين ، المجلد الثاني لسنتي (٧٦ / ١٩٧٧م)، ويحتل ديوان معن بهذا المجلد الصفحات من (١٦٠ – ٣٠١) .

ثم قـام المحققان بطبعه بدار الجاحظ ببغداد سنة (١٩٧٧م) ، وتقع هذه المطبـوعـة في أكـثـر من (١٣٤) صفحة، تحتل مقدمة المحققين فيها (١ – ٢٢) ، ومقدمة باول شـفـارتز (٢٣ – ٢٨) ، فـالشـعـر (٣٣ – ٩٦ و ٩٩ – ١١٤ و ١١٧) ، فـتـخـريج القـصـائد والمقطّعـات (١١٩ – ١٣٤) ، فالمصادر والمراجع بعد ذلك .

والشعر بهذه المطبوعة محقّق تحقيقًا علميّاً دقيقًا ، بأجود ما يكون التحقيق .

وأخـيـرًا ؛ فـيـمـا أعلم ، ودون اسـتـفـادة من هذه المطبوعة، قام عمر القطان بجمع ما تيسر له من شعر معن وتحقيقه ونشره ، معتمدًا على مطبوعة كمال مصطفى، مضيفًا إليها ما أتيح له من اطلاعه ، منسوبًا لمعن ، مرتبًا القصائد والمقطّعات والأبيات ، تبعًا للترتيب الهجائي ، مع ترقيم الأبيات والقصائد وضبطها ، مـصـدّرًا عمله هذا بمقدمة، وضّح فيها تاريخ معرفته بصاحب الشعر وديوانه، وما تيسرت اليه معرفته عنه ، وأبان منهجه في الديوان ، منوّها بمكانة صاحبه لدى القدماء ، مُعرّجًا على نسبه وقبيلته ومكانته وتاريخ ولادته ووفاته (٥ – ١٥) .

ومجموع أبيات شعر معن بهذه المطبوعة هو ثلاث مئة وتسعة عشر بيتًا على سبع وأربعين قصيدة ومقطعة (١٦ – ١٢٠) ، ولا يعني ارتفـاع عـدد هذه القـصـائد والمقطعات زيادة الأبيات والقصائد والمقطعات الموجودة بها عما هو في مطبوعة بغداد ، ولكن محقق هذه المطبوعة (القطان) ، قام بتشويه بعض القصائد وتقطيع أوصالها ، بتقسيم بعض القصائد الطويلة وجعلها أكثر من قصيدة ، ومقطّعة ، مثل داليته التي نشرت في طبعات شعر معن الثلاث السابقة كاملة مستهلة بقوله :

قفـا يا خليـليّ المطـيّ المقـرّدا
على الطلل البالي الذي قد تأبّدا

إذا جعل الأبيات التي تبدأ بهذا البيت وما بعدها ، حتى الثاني والعشرين ، وهو قوله :

على أنني والله يؤمل حارسٌ
من الخبل نفسي أن تموتَ وتكمدا

ثم ترك الثالث والعشرين ، مُستأنفًا بالرابع والعشرين ، وما بعده ، ثم ترك السادس والعشرين ، والثامن والعشرين ، والثلاثين ، وما بعده ، ووضع الثاني والأربعين بعد الثاني والثلاثين (الذي يحتل في ترتيبه هو : الثامن والعشرين) ، ثم أثبت الثالث والثلاثين وما بعده ، وترك الخامس والثلاثين ، وما بعده ، وأثبت في مكانهما السابع والثلاثين وما يليه ، فالرابع والأربعين ، فالحادي والأربعين ، فالتاسع والثلاثين وما يليه ، فالثالث والأربعين ، فالخامس والأربعين .

ثم جعل في قصيدة أخرى ، تحمل عنده الرقم (١٠) الأبيات التي أخلّ بترتيبها في المطبوعات السابقة ، لتحمل أرقامًا جديدة من (١ - ٧) .

وسلك هذا المسلك عينه في ميمية معن التي رُويت في المطبوعات السابقة ، إضافة إلى كتاب «منتهى الطلب» ، بجزئه الأول ، على نسق واحد ، مستهلة بقوله :

عفا وخلا ممّنْ عهدتَ به خُمُّ
وشاقك بالمسحاء من شرف رسمُ

فبدأ بالبيت الحادي والعشرين منها ، وأعطاها الرقم (٣٨) ، مُثبتًا بعد هذا البيت الأبيات التالية له ، مُقدّمًا السادس والعشرين في محل ما قبله ، غير مُثبت الثالث والثلاثين ، إضافة إلى الأبيات من (٣٩ - ٤٥) ، ثم جعل الرقم (٣٩) للأبيات التي استهلها معن بقوله :

بعينيك راحوا والحُدُوجُ كأنها
سفائنُ أو نخلٌ مُذلّلةٌ عمُّ

وهو البيت الخامس في المطبوعات السابقة ، ومخطوطة منتهى الطلب، حتى البيت العشرين، مرقمة عنده، من (١ - ١٦)، ثم وضع الأبيات التي جعلها معن في مُستهل قصيدته (١ - ٤) في مقطّعة خاصة ، تحمل رقم (٤٠)، مضيفًا بعد بيتها الأول المضموم الرويّ، كسائر أبيات القصيدة ، بيتًا من ميميةٍ معن المكسورة الرويّ ، مما توجه به إلى عاصم بن عمر بن الخطاب وهو قوله :

وأخطب في فنواء ينتف ريشه
وطيرجْرتْ يوم العقيق حوائم

ثم خصّص المقطّعة رقم (٤١) للأبيات التي لم يثبتها في أبيات القصيدة التي كان قد أعطاها رقم (٣٨).

ثم سلك ديدنًا آخر بضمّه أبيات لامية معن التي وردت في مطبوعات شعره السابقة وغيرها من المصادر ، مستهلة بقوله :

لعمرك ما أهويتُ كفي لريبة
ولا حملتني نحو فاحشة رِجْلي

مع أبيات لاميته الأخرى التي تحمل في المطبوعات السالفة رقم (٢١) ، بادئة بقوله :

تضمنتُ بالأحساب ثم كُفيتُها
وهل تُوكَلُ الأحسابُ إلا إلى مثلي ؟ ؟

في قصيدة واحدة أعطاها رقم (٣٧) ، والأبيات فيها من (١ - ١٦) بعد حذف البيت الأخير من اللامية الثانية ، وهو مسلك لم أر أحدًا من الرواة قد نصَّ عليه ، ولم أر تفسيرًا لهذه الظاهرة السيئة ، ولا الدافع الذي دعا هذا المحقق إلى إهمال شروح القالي التي أثبتها سابقوه ، على جودتها ، واللجوء إلى شروح مطولة ، استطرادية ، تكثر فيها الأخطاء [٩] في حواشي الشعر ، والله الهادي إلى الصواب وهو الموفق والمستعان .

الحواشي

١ - يُنظر : الأغاني ، دار الكتب ، ١٢ / ٥٤ وما بعدها ، وتاريخ دمشق ، م . الدار بالمدينة المنورة ، ١٧ / ٤٥ وما بعدها ، وجمهرة أنساب العرب ١ / ٢٠٢ ، وسمط اللآلي ، ٢ / ٧٣٣ ونكت الهميان ٢٩٤ - ٢٩٥ ، وأنساب الأشراف ، ٣ / ٥٩ ، ٦٠ ، والكامل في اللغة والأدب ، ٢/ ٢١١ - ٢١٢ وديوان المعاني ١/١١٣ - ١١٤ ومعاهد التنصيص ١ / ١١٦ وما بعدها ، وخزانة الأدب ، الدار القومية ٧ / ٢٦٠ وما يليها ، وبلوغ الأرب ٣ / ١٤٨ ، وبلاشير : تاريخ الأدب العربي ٢ / ١٥٣ ، والأعلام ، ٨ / ١٩٢ ، ومعجم المؤلفين ، ١٢ / ٢١١ وتاريخ التراث العربي ٢ / ٢ / ٢٧٦ ، وشعر مزينة في الإسلام لكاتب هذه السطور ، ر . د . بآداب الإسكندرية ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م ، ونسخة بمركز الملك فيصل للبحوث رقم (٢٠٦٦٨٢) ، ص ٨٨ - ١٠٠ ...

٢ - الفهرست ، طهران ، ١٧٨ .

٣ - تاريخ التراث العربي ، ٢ / ٢ / ٢٧٧ - ٢٧٨ .

٤ - فهرسة ماوراه ابن خير عن شيوخه ، ٣٩٥ .

٥ - ديوان معن ، بغداد ، مقدمة شفارتز ، ص ٢٧ .

٦ - ديوان معن ، بغداد ، مقدمة المحققين .

٧ - تاريخ التراث العربي ، ٢ /٢/ ٢٧٨ .

٨ - المستشرقون ، ٣٨١ .

٩ - مجلة عالم الكتب ، الرياض ، مج٧ ، العدد ٤ ، ربيع الآخر ١٤٠٧هـ ، ص ٤٦٨ - ٤٧٣ .

التعقيب على محاضرة رينان

مصطفى يعقوب عبد النبي
الهيئة العامة للمساحة الجيولوجية - القاهرة

تمهيد وإيضاح

لا نغالي إنْ قُلْنا ، إننا أمام وثيقة نادرة للغاية من وثائق الاستشراق . فقد أتاح لنا الحظ أن نعثر على هذه الوثيقة النادرة في إحدى المكتبات القديمة بالقاهرة . وفحوى هذه الوثيقة هي محاضرةٌ ألقاها المستشرق الفرنسي الشهير أرنست رينان (١٨٢٣ - ١٨٩٢م) في السربون بباريس . وقد مهّد لها مترجم هذه المحاضرة بمقدّمةٍ وجيزة وترجمةٍ لحياةِ رينان ثم أورد متن المحاضرة نفسها ، وأخيرًا - إتمامًا لفائدة رآها المترجم واجبة الذكر والتسجيل - أورد الردّ على ما جاء في المحاضرة بقلم أحد الباحثين الفرنسيين الذي نعلم من خلال هذه الوثيقة أن اسمه «مِسْمَر».

وتكمن أهمية هذه المحاضرة في الأسباب التالية :

أولاً : إن القارئ العربيّ قد يقْرأ كثيرًا عن المستشرقين .. وآرائهم حيال الإسلام والعرب والتي قد تَصْدمه لِمَا تحتويه من آراءٍ تجافي حقائق الواقع والتاريخ، فضلاً عن الجهل بحقيقة الإسلام والتي يغلب عليها الهوى العرقيّ والمذهبيّ .

وإذا كان القارئ العربيّ قد تعوّد - في الغالب - أنْ يقرأ كتبًا قد تُرجِمت بأقلامٍ عربيةٍ عن بعض المستشرقين الذين تميّزوا بقدرٍ من الحيدة والموضوعية ، فأنصفوا الإسلام والعرب ، غير أنّ القارئ العربي لم يتعوّد - إلاّ نادرًا - أن يقرأ كتبًا مترجمةً عن مستشرقين قد طعنوا في العرب وأساءوا للإسلام .

ولعلّ السّبب في قلّة مِثْل هذه الكتب في متناول القارئ العربيّ يرجع إلى أمرين : **(الأوّل)** أنّ المترجمين العرب كثيرًا ما يتحرّجون عن ترجمةِ مِثْل هذه الكتب التي تصدم مشاعر القارئ العربي المسلم ، مكتفين بذكر فقراتٍ من هنا أو هناك للدلالة على إساءة هذا المستشرق أو ذاك إلى الإسلام والعرب .

وللدلالة على مدى الحرج الذي يقع فيه المترجم وهو ينقل عن بعض المستشرقين آراءً تسيء إلى الإسلام ماحدث مع مترجم شهير وهو عادل زعيتر مترجم «حضارة العرب» للمستشرق الفرنسي جوستاف لوبون .

وعلى الرغم من أنّ هذا الكتاب هو واحدٌ من كتبٍ قليلةٍ أشادت بالإسلام وأنصفت الحضارة العربية ، غير أنّ المترجم قد تحرّج أنْ ينقل آراء المؤلّف في القرآن الكريم ، فقد نقد البعض مترجم الكتاب بقولهم : «تعمّد الأستاذ محمد عادل زعيتر كتم كثيرٍ من آراء الدكتور لوبون تارةً بالحذف وطورًا بالتحوير وحينًا بالزيادة لإخراج المؤلّف في ثوبٍ يرضى عنه أبناء العرب والمسلمين . ومثل هذا التصرّف لا يخدم الحقيقة كما لا يخدم مصلحة العرب والمسلمين ... إلخ» (١) .

وكما تحرّج عادل زعيتر في نقل آراء لوبون في القرآن الكريم ، تحرّج أيضًا إبراهيم أحمد العدوي مترجم كتاب «الحضارة العربية» للمستشرق يوسف هِلْ .

فقد جاء في أحد حواشي الفصل الثاني قول المترجم «اقتضى هذا الفصل تعديلاً في الأسلوب ولا سيّما في بعض الفقرات التي عالج فيها المؤلّف - يقصد يوسف هِلْ - شخصيّة الرسول ودعوته إلى الإسلام . إذْ تَحْمِلُ تجنيًا يكشف عن تعصّب المؤلّف ، ووقوعه في الخطأ الذي تردّى فيه غلاة المستشرقين» (٢) .

(الثاني) أنّ الكثير من الكتب التي كتبها المستشرقون والتي تُسيء للإسلام والعرب والتي لا تتوافر

للباحثين العرب كيْ يقوموا بواجب الردّ عليها ، إنّما ترجع قِلّتها إلى المستشرقين أنفسهم «لأنّ هؤلاء المستشرقين لا يطبعون من أيّ كتابٍ نشروه أكثر من خمسمائة نسخة توزّع على مراكز الاستشراق في أوربّا وأمريكا ، وما فضل بعد ذلك وهو قليلٌ جداً كانت تَسْقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسَخة والنسختان» (٣) .

وها نحن نعرض هذه المحاضرة التي ألقاها واحدٌ من أشهر المستشرقين لعلّ ما جاء فيها يحفز القارئ العربيّ المسلم أن يتناول جانبًا من جوانبها بالردّ والتفنيد. ولعلّ تلك الجمهرة من بعض باحثينا ، الذين فُتِنُوا بالاستشراق في مناهجهم وآرائهم يحيدون قليلاً عن هذا الافتتان بهذا المستشرق وغيره من المستشرقين الذين كان كلّ جهدهم الإساءة للإسلام والطعن على العرب .

ثانيا : إن هذه المحاضرة التي ألقاها رينان في أخريات حياته هي خاتمةُ المطاف بالنسبة له كمستشرق ، ونعني بخاتمة المطاف هنا هو خلاصة ما انتهى إليه من آراء أجملها دفعةً واحدةً في تلك المحاضرة .

فمن الخير إذن أن نعرض هذه المحاضرة لنعرف الرجل حقّ المعرفة ولنعرف أيضًا ميوله ، ومن أية زاوية شاءت له هذه الميول أن يُسيء للإسلام .

ثالثا : ليست هذه المحاضرة خلاصة آراء رينان فحسب وإنّما هي في الحقيقة تمثّل رأيًا عاماً ساد في أوساط الكثرة الغالبة من المستشرقين الذين اتخذوا مذاهب شتّى في الإساءة للإسلام والعرب .

ويجمل محمود محمد شاكر هذا الرأي بقوله : «كان جوهر هذه الصورة - يقصد آراء المستشرقين - هو أنّ هؤلاء العرب المسلمين هُمْ في الأصل قومٌ بداةٌ جُهّالٌ لا عِلْمَ لهم ، جياعٌ في صحراء مجدبة ، جاءهم رجلٌ من أنفسهم فادّعى أنّه نبيٌّ مُرْسَلٌ ، ولفّق لهم دينًا من اليهوديّة والنصرانيّة فصدّقوه بجهلهم واتبّعوه ، ولم يلبث هؤلاء الجياع أنْ عاثوا بدينهم هذا في الأرض يفتحونها بسيوفهم حتى كان ما كان ، ودان لهم من غوغاء الأمم من دان ، وقامت لهم في الأرض بعد قليل ثقافةٌ وحضارةٌ جلّها مسلوبٌ من ثقافات الأمم السالفة كالفرس والهند واليونان، حتّى لغتهم كلّها مسلوبةٌ وعالةٌ على العبرية والسريانيّة والآراميّة والفارسيّة ، ثم كان من تصاريف الأقدار أن يكون علماء هذه الأمّة العربيّة من غير أبناء العرب (الموالي) ، وأنّ هؤلاء هم الذين جعلوا لهذه الحضارة الإسلاميّة معنى . هذا هو جوهر الصورة التي بثّها المستشرقون في كلّ كتبهم عن دين الإسلام وعن علوم أهل الإسلام وفنونهم وآثارهم وحضارتهم» (٤) .

وقبل أن نعرض هذه المحاضرة والرد عليها يجب علينا أن نوضح بعض الأمور الخاصة بها إتمامًا لفائدة القارئ .

فقائل هذه المحاضرة هو المستشرق الفرنسي أرنست رينان ، وقد كفانا المترجم مؤونة البحث في سيرته فخصّها بشيء من التفصيل (٥) . وبالإضافة إلى اسم رينان يطالعنا اسمًا آخر هو «مِسْمَر» الذي نعلم من هذه الوثيقة أنّه رئيس الإرساليّة المصريّة السّابق بفرنسا . وقد قام بالردّ على ما جاء في محاضرة رينان مفنّدًا كثيرًا من دعاويه حيال الإسلام والعرب .

ويبدو أنّ «مِسْمَر» هذا هو واحدٌ من المستشرقين الذين عُهِدَ إليهم بالإشراف على الطلبة المصريين المبعوثين إلى فرنسا ، لأنّه قد جَرَت العادة منذ أن بدأت البعثات المصرية التي أرسلها محمد علي - والي مصر وقتها - إلى فرنسا أن تعهد إلى أحد المستشرقين بالإشراف عليها كما حدث في البعثة العلميّة الأولى التي أرسلت إلى فرنسا سنة ١٨٢٦م أن عهدت إلى المستشرق الفرنسي جومار بإدارة شئون هذه البعثة (٦) .

أمّا الاسم الثالث الذي يطالعنا في هذه الوثيقة فهو اسم «علي يوسف» الذي قام بترجمة محاضرة رينان وردّ «مِسْمَر» عليها إلى اللغة العربية وطبعها - في الغالب - على نفقته الخاصّة شأنه شأن أيّ عربيٍّ مسلمٍ غيورٍ على دينه وعروبته .

وقد جاء على غلاف الكتيّب الذي طبعه أنّه «مهندس وعضوٌ بجمعية مهندسي المناجم وجمعيّة المهندسين الملكيّة والميكانيكيّة بإنجلترا وبجملة مجامع علميّة وفلسفيّة بأوربّا ، ومؤلّف كتاب «تاريخ الرياضيات والفلك عند العرب» وكتاب «حياة الغزالي» وأغلب الظن لدينا أنّ علي يوسف هذا كان أحد الطلبة الذين أوفدوا إلى باريس في أواخر عهد الخديوي إسماعيل الذي بدأ يُوفِدُ الطلبة إلى مدارس أوربّا منذ سنة ١٨٦٣م وبلغ عددهم مدّة حكمه ١٧٢ طالبًا (٧) .

ويبقى لنا بعد ذلك تحديد تاريخ هذه المحاضرة فقد جاء في مقدّمة المترجم أنّ رينان ألقاها سنة ١٨٨٢م ولم يذكر بالتحديد اليوم أو الشهر .

غير أنّنا قد وجدنا ما يجعلنا نستدلّ على التحديد الدقيق لهذا التاريخ . فقد ذكر «مِسْمَر» في معرض ردّه أنّ بعض العلماء قد ألقى محاضرةً قبل محاضرة رينان بيومَيْن نُشِرَت في بعض الجرائد العلميّة بتاريخ ٣١ مارس.

ومعنى هذا أنّ رينان قد ألقى محاضرته في الثاني من أبريل سنة ١٨٨٢م .

ومن الملاحظ أنّ المترجم ، لم يَكْتَفِ بالترجمة فحسب ؛ بل أضاف بعض التعليقات والهوامش التي أزالت كثيرًا من الغموض .

وعلى الرغم من أنّ «مِسْمر» قد أجاد في ردّه على رينان إلاّ أنّ ذلك بالطبع لم يمنعنا من التعقيب على هذه المحاضرة وتتبّع أكاذيب رينان ممّا فات على «مسمر» أن يذكره .

التعقيب

كان ردّ مِسْمَر على محاضرة رينان موضوعيًا إلى درجة كبيرة . وللأسف الشديد أنّنا في العالم العربيّ لا نعلم شيئًا عن جهوده في مجال الاستشراق ، على الرّغم من تأليفه لكتابٍ يبحث في مسائل مهمة تتعلّق بشئون المسلمين السياسيّة والاجتماعيّة والدينيّة – كما جاء في حاشية المترجم – ويتبيّن منه رفعه مقام الإسلام في العلوم على حدّ تعبيره .

وتتجلّى موضوعيّة ردّ مِسْمَر في حصر محاضرة رينان في خمسة أفكارٍ رئيسة تولّى الردّ عليها في شيء من التفصيل .

وعلى الرغم من هذا فإنّ المحاضرة قد اشتملت على آراءٍ كثيرة يَصْعُب حصرها في خمسة أفكار ، الأمر الذي يعطِي الانطباع بأنّ المحاضرة لم تستوفِ حظّها من الردّ والتعقيب والمراجعة .

وسوف نحاول في النقاط التالية ألا نترك جزئيّة من جزئيّات هذه المحاضرة بغير ردّ أو تعقيب ولا سيّما فيما فات مِسْمَر أن يذكره .

أولاً :

حاول رينان قدر جهده أن ينفي عن الإسلام العِلْم . وهذه هي الفكرة الرئيسيّة التي حاول رينان أن يدلّل عليها في صيَغ شتّى .

ولو أنّ رينان قد أجهد نفسه قليلاً لعرف يقينًا أنّ الإسلام دينُ عِلم . فليس أدلَّ على ذلك سوى أن أوّل آيةٍ كريمةٍ من آيات القرآن الكريم :

﴿ اِقْرأ بِسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَق (١) خَلَقَ الإنسان من عَلَق (٢) اِقْرأ وربُّك الأكرَم (٣) الذي علّم بالقلم (٤) علّم الإنسان ما لَمْ يَعْلَم (٥) ﴾ . (العلق)

كما أنّ أيْسَر قراءةٍ للمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم سوف نجدُ معها أن كلمة «عِلْم» ومشتقّاتها قد وردت حوالي ألف مرّةٍ في صيَغ شتّى .

كما أنّ شواهد القرآن الكريم التي تُعْلِي من مقام العقل ، وتحثّ على طلب العِلْم وتدبّر آيات الله في خلقِهِ كثيرةٌ ومتنوعة :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذين يَعْلَمون والّذين لا يَعْلَمون ﴾ (الزمر : ٩)

﴿ يَرْفَعُ الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العِلْم دَرَجاتٍ و الله بما تَعْمَلون خَبير ﴾ (المجادلة : ١١)

﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَة فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦٩)

﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا في مَلَكوت السَّمـوات والأرْض ﴾ (الأعراف : ١٨٥)

﴿ قُل سيروا في الأرْض فانْظُروا كَيْفَ بدأ الخَلْق ﴾ (العنكبوت : ٢٠)

﴿ وَهُوَ الّذي جَعَل لكُم النّجُوم لتهتَدُوا بِها ﴾ (الأنعام : ٩٧)

﴿ هُوَ الّذي جَعل الشَّمْسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا وقَدّره منازِلَ لتعلموا عدد السِّنينَ والحِسَاب وما خَلَقَ الله ذلك إلاّ بالحقّ يُفَصّل الآيات لقوم يَعْلَمُون ﴾ . (يونس : ٥)

وعلى هذا النّسق من الآيات القرآنيّة الكريمة تأتي

جميعها دالّة على أمور عدّة منها : «أنّ المنهج القرآنيّ موجّهٌ إلى الإنسان بجمعِهِ – فِطْرته وبديهته وأحاسيسه ومداركه وعقله – ليستقرئ الواقع ويستنبط الحقيقة كما يخاطب النفس بعناصر الكون ، وأنّ الإسلام يجمع بين الدّين والحياة والعلم والعمل ، ويفرض استعمال العقل . وأنّ النصوص في المنهج القرآنيّ واضحةٌ صريحةٌ في النّهي عن كلّ ما يعطّل الفكر عن العمل من أوهام وأغاليط أو تقاليد ومزاعم لا يؤيّدها دليلٌ لينطلق الإنسان حرّاً في الآفاق التي حثّه الله على ارتيادها ليتعلّم ويتقدّم ويتطوّر مُهْتَدِيًا بالأصول التي نزل بها القرآن وأوضحتها السنّة» (٨) .

ولقد تتابعت الأحاديث الشريفة تنهج النهج القرآنيّ نفسه فيما يخصّ العِلْم والعلماء . فالقارئ لكتب الحديث ولا سيّما الصحيحين وباقي الأصول السّبعة (الموطّأ وسُنَن الترمذيّ وأبي داود والنسائيّ وابن ماجة) سوف يجد أنّ كلاًّ منها قد خصّص كتابًا مستقلاً هو «كتاب العِلْم» حيث تزيد أحاديثُ في هذا الكتاب أو تقلّ في ذاك .

غير أنّه من الملاحظ أنّ هناك الكثير من الأحاديث التي لها صِلَةٌ بالعِلْم أو تلمس جانبًا من جوانب العِلْم ولكنّها وضِعَتْ في أبواب أخرى . وعلى سبيل المثال فإنّ «الحديث الذي دلّ على إقرار التجربة ونتائجها في شئون الحياة وُكِلَ للناس أمر دنياهم لم يُوضع في كتاب العلم . وأنّ الحديث الذي دلّ على محاربة الرسول للأميّة بتعليم أبناء المسلمين الكتابة عن طريق الأسرى ، لم يذكره من ذكروه في أبواب العِلْم . والأحاديث التي أعلنت الحرب على الخرافة والشعوذة لم تُذكر في كتاب العلم ... إلخ» (٩) .

ومن الأحاديث الشريفة الدّالة على فضل العِلْم والحث في طلبه قوله ﷺ : «فضل العالِمِ على العابدِ كفضل القمر على سائر الكواكب وإنّ العلماء ورثةُ الأنبياء» (١٠) .

وقوله ﷺ أيضًا : «مَنْ خَرَج في طلب العِلْم فهو في سبيل الله حتّى يَرْجِع» (١١) .... إلخ ولا نظنّ أنّنا بحاجة إلى مزيدٍ من شواهد القرآن الكريم والأحاديث الشريفة في هذا المجال ، حيث يُغْنِي الشاهد الواحد عن شواهد كثيرة .

كما أن بعضًا من أفاضل العلماء المسلمين المحدثين قد أوسعوا هذا الموضوع بحثًا ودرسًا ، نذكر منهم على سبيل المثال ؛ عباس العقاد في كتابه «التفكير فريضةٌ إسلامية» والدكتور يوسف القرضاوي في كتابه «الرسول والعِلْم» والأستاذ عبدالحليم الجندي في كتابه «القرآن والمنهج العلمي المعاصر» ... إلخ .

ثانيًا :

عندما تتسلّط فِكْرَةٌ من الأفكار في ذهن كاتبٍ ما بحيث لا يحيد عنها ويجاهد في سبيل الدلالة على صحتها ، فإنه في غمرة محاولاته المتكرّرة لإثبات صحة ما يرمي إليه من فكرته تلك ؛ سواء عن حقٍّ أو بغير حقٍّ ، لا يلتفت – في الغالب – إلى ما يقعُ فيه من تناقض قد غفل عنه فتسقُط فكرته من أساسها ويبطل ما ذهب إليه في الدلالة على صحتها .

وعندما نتأمّل في محاضرة رينان سوف نجد أنّه في غمرة استغراقه التام في تلك الفكرة التي أخذت بتفكيره فلم يعُدْ يرَى سواها وهي أنّ الإسلام بعيدٌ عن العلوم قد وقع في تناقض حادٍّ في بعض أقواله ممّا يزعزع أركان فكرته إن لم تسقطها من أساسها .

ولم يكن من العسير علينا أن نكتشف هذا التناقض لأنّ الرجل لم يكن من همٍّ له سوى الطعن على الإسلام .

ويتمثّل هذا التناقض الذي وقع فيه رينان عندما أثنى على النَقَلَة الذين نقلوا تراث اليونان والفرس والهنود إلى اللغة العربية .

وإذا كان المؤرّخون المستشرقون قد أثنوا على الدّور الذي قام به هؤلاء النقلة من حفظهم للتراث العربي بوجهٍ خاص ، إلاّ أنّنا نشتمّ من أسلوب رينان رائحة التعصب المقيت لكلّ ما هو عربيٌّ ولكلّ ما هو إسلاميٌّ . فقد أثنى رينان على النقلة لأنهّم ليسوا عربًا وليسوا مسلمين .

فقد كان معظم النقلة من النصارى النساطرة واليعاقبة وأتباع المذهب الأرثوذكسي والماروني وقليل من اليهود (١٢) .

يقول رينان : «وخرج من مدينة حرّان التي كانت قد بقيت وثنية وحفظت آثار العلوم الإغريقية علماءُ كثيرون ... إلخ» . وفي موضع آخر يقول : «... انتشار الفلسفة والعلوم بواسطة الأطباء النصارى من أهل الشام ... إلخ» . وفي موضع ثالث يقول : «لأنّ الذين نشروا المعارف ورفعوها هم المجوس والنصارى واليهود ... إلخ» .

وعلى الرّغم من إشادة رينان بالنقلة فإنه لم يتورّع عن وصف ترجمتهم بأنها «ترجمةٌ رديئةٌ مغشوشةٌ» .

ومعنى هذا إن من كانوا موضع ثناء رينان هم في الوقت نفسه موضع انتقاده .

والحقيقة أن رينان كان صادقًا في وصفه للترجمة بأنها رديئةٌ ومغشوشةٌ .

فهي رديئةٌ لأنّ النقلة لم يكونوا يستطيعون النقل من اليونانية إلى العربية رأسًا فكان بعضهم ينقل الكتب من اليونانية إلى السريانيّة ثم يأتي آخرون ينقلونها من السريانية إلى العربية .

ومن هذه الطريقة تسربت أكثر الأخطاء التي ضللت العرب وشغلتهم زمنًا طويلاً ثمّ تنبّهوا لها بعد حين . وهكذا احتاج كثيرٌ من الكتب التي نُقلت على هذه الطريقة إلى أن تصلح فيما بعد (١٣) .

وهي مغشوشةٌ أيضًا لأنّ النقلة السريان كانوا كثيرًا ما يدسّون في الكتب المنقولة أشياء ليست منها ، أو يبدّلون فيها ويحذفون بحسب ما يصل إليه رقيّهم العقليّ ، وبحسب ما يمليه عليهم هواهم الدينيّ والمذهبيّ (١٤) .

كما أنّهم في كثير ممّا نقلوا لم ينقلوا في دقّةٍ ما كان عند اليونان بل غيّروا فيه وحرّفوا ، وكثيرٌ من الأخطاء التي وقع فيها العرب علمياً كان منشؤه هذا الخطأ السرياني (١٥) .

وخلاصة القول في هذه القضية أنّه قد بُولغَ كثيرًا في قيمة دور النقلة أكثر ممّا يجب (١٦) .

ولقد أصاب عبدالرحمن مرحبا كبد الحقيقة في قوله : «إنّ الفكر الإسلاميّ لا يدينُ بعبقرياته ومواهب أبنائه لنفحات بعض النقلة المحترفين الذين قاموا بترجماتهم تكسّبًا للمال لا حبّاً للعلم . فمع تقديرنا العظيم لهؤلاء النقلة ، إلاّ أنّه يجب ألاّ نذهب في هذا التقدير مذهبًا شططًا فنجعل من العرب والمسلمين كميّةً مهملةً ، ومن النقلة عمالقةً أفذاذًا .

وكم كان أحرَى بأولئك السريان أنْ يشغلوا أنفسهم ويصلوا إلى القمّة التي وصل إليها سادتُهم بدلاً من أن يظلوا في السّفح . فالسريان لم يبتكروا شيئًا من عند أنفسهم، وكان يندر أن يُقبل أحدهم على النّقل من تلقاء نفسه فهم مترجمون محترفون ونقلةٌ مأجورون ... إلخ» (١٧) .

وثمّة تناقض آخر قد وقع فيه رينان عندما طعن على اللّغة العربية بقوله : «... استعملوا – يقصد علماء المسلمين – اللغة العربية مع قصورها عن تأدية مرادهم ، ولا يستقيم هذا القول – بطبيعة الحال – مع تعليق رينان نفسه في كتاب «ابن رشد» بقوله : «لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو» (١٨) كما لايستقيم هذا القول أيضًا مع رأي واحد من مشاهير المستشرقين وهو المستشرق الألماني بيرجشترسير *BERGSTRAESSER* في كتابه «مدخل إلى اللغات السامية» الذي نشره عام ١٩٢٨ فقد أوضح هذا المستشرق الألماني «أنّ اللغة العربية قدّمت منذ البداية الأداة الكافية للتعبير العلميّ الدقيق» (١٩) .

ثالثًا :

من أغرب ما أبداه رينان من آراء لا تخلو من تعصّبٍ ذميم ضدّ الإسلام فضلاً عمّا يحوط تلك الآراء من جَهْلٍ واضح بحقائق الواقع والتاريخ ، تلك الآراء الخاصة بكيفيّة انتشار الفلسفة والعلوم في العصر العباسيّ .

وخلاصة هذه الآراء جميعها أنّ الفلسفة والعلوم قد انتشرا عندما ضَعُفَتْ سلطة الدين في هذا العصر . حيث يقول في هذا الشأن : «وكانت النتيجة المحقّقة من هذا التراخي المؤقّت بموجب أحكام الديانة انتشار الفلسفة والعلوم» .

ولم يجد من مبرّرٍ له سوى زعمه بقلّة تديّن الخلفاء في هذا العصر . فتارةً يقول : «... تقرّبوا إلى هؤلاء الخلفاء قليلي الدين ...» وتارةً أخرى يقول «حتّى أنّه يُشكّ في إسلام الخلفاء المشهورين أعني المنصور وهارون الرشيد والمأمون» وليس أعجب من هذا القول لما فيه من جهل واضح وتعصّب فاضح وجرأةٍ على الحقّ . وأغلب الظن أنّ رينان قد راقَ له ما جاء في كتاب «الأغاني» للأصفهاني وكتاب « ألف ليلة وليلة» وهما أبعد ما يكونا عن التاريخ فأخذ منهما ما يوافق مذهبه حيال الإسلام ، وبالتالي لم يرق له ما جاء في كتب التاريخ والسير رغم كثرتها وتنوعها .

و لسنا في مقام الرّد على هذه الفرية فقد أغنانا عن ذلك نفرٌ كريمٌ من أفاضل العلماء والباحثين (٢٠) . غير أننا سوف نُوردُ رأيًا آخر لرينان في المحاضرة نفسها يهدم ما ادّعاه في الرأي السابق من أساسه حيث يرى رينان أنّ الإسلام بدأ ضعيفًا ثمّ قَويَ بعد ذلك . يقول رينان : «أنه مع مضيّ الزمن تقوّى إيمان المسلمين واشتدّ تعصّبهم للدّين فإنّ العرب الذين أسلموا في مبدأ الأمر كان تصديقهم بنبوة محمد ضعيفًا جدًا ... إلخ» .

والسؤال الآن كيف يستقيم الأمر بين هذين الرأيين

المتناقضين فإذا كانت الفلسفة والعلوم قد انتشرا في العصر العباسي عندما ضعفت سلطة الدين وفي عصر كان خلفاؤه – في زعمه – قليلي الدين بل يُشكّ في إسلامهم كالمنصور والرشيد والمأمون ، فلماذا لم تنتشر الفلسفة والعلوم قبل ذلك – في العصر الأموي مثلاً – مع أنّه – كما قال – لم يقْوَ – أي الإسلام – إلا بعد مضيّ الزمن . وكما قال أيضًا في بداية محاضرته في صيغة توحي بأنّها حقيقةٌ من الحقائق ومسلّمةٌ من المسلّمات «لا شيء مثل القرن الأول من الإسلام أبعد من العلوم والفلسفة» .

وكيف يستقيم الأمر – من جهةٍ أخرى – أنّه إذا كان الإسلام قد قَوِيَ بمضيّ الزمن ومعنى هذا – حسب هذا الرأي – أنّ الإسلام في العصر العباسيّ أقوى حالاً منه في العصر الأموي أو في عهد الخلفاء الراشدين .

فكيف يستقيم الأمر – من جهةٍ أخرى – أنّه إذا كان الإسلام قد قَوِيَ بمضيّ الزمن ومعنى هذا – حسب هذا الرأي – أنّ الإسلام في العصر العباسيّ أقوى حالاً منه في العصر الأموي أو في عهد الخلفاء الراشدين .

فكيف يصحّ هذا القول من رينان وهو يتّهم أعظم خلفاء العصر العباسي في دينهم ويشكّك في إسلامهم ؟

رابعاً :

من أغرب الآراء التي ساقها رينان قوله : «إنّ العرب الذين أسلموا في مبدأ الأمر كان تصديقهم بنبوّة محمد ضعيفًا جداً ....» .

وكنا نودّ أن نضرب صفحًا عن هذا الافتراء لولا أنّ المستشرقين الألمان قد راودهم شيءٌ قريبٌ من هذا الرأي الغريب البعيد كلّ البعد عن الحقيقة جُمْلَةً وتفصيلاً . ولعلّ رينان قد أخذ هذه الفكرة الغريبة عن هؤلاء المستشرقين . ولعلّ في حديث عمر فروخ عن تجربةٍ شخصيّةٍ له إبّان دراسته في ألمانيا في سبيل الحصول على درجة الدكتوراه تحت إشراف المستشرق الألماني يوسف هِلْ ما يكشف الغطاء عن هذا الأمر .

يقول عمر فروخ : «وسألني يوسف هِلْ عن الموضوع الذي كنت أفكّر فيه لرسالتي . فقلت له : مدى القوميّة العربيّة – عظمة الشاعر المتنبي – أثر العرب في الثقافة العالمية وأشباه ذلك واستمع إليّ بصبْرٍ فلمّا سكتُّ قال لي: احتفظ بهذه الموضوعات ، فإذا أنْتَ رجعْتَ إلى بيروت فاكتبها . ثم قال لي : هنالك موضوعٌ مهمٌّ مازلتُ أعرضه على الطلاّب الألمان الراغبين في الاستشراق منذ عشرين عامًا فلم أجد الهمّة عند أحدٍ لمتابعته .

هذا الموضوع هو المشكلة التالية :

يرى نَفَرٌ من المستشرقين أنّ الإسلام لم يستقرّ في نفوس المسلمين إلاّ في العصر العباسيّ قياسًا على أنّ النصرانية لم تبدأ في الانتشار بين الناس إلاّ في القرن الرابع للميلاد . فهل تستطيع أنت أن تعالج هذا الموضوع وتضع هذه المشكلة على أحد جانبيها ؟

بدأتُ العمل وجمعْتُ عشرة آلاف بيت شعر مؤرّخة بالسنوات منذ السنة الأولى للهجرة (٦٢٢م) إلى موت الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – سنة ٢٣هـ (٦٤٤م) . دخل في رسالتي أربعمائة بيتٍ من تلك الأبيات دلّت بجزم ووضوح على أنّ تعاليم الإسلام كانت تستقرّ في نفوس المسلمين في الوقت الذي كانت تلك التعاليم تُفْرَضُ عليهم أو ينزل فيها وحْيٌ» (٢١) .

ويتّضح من حديث عمر فروخ أنّ يوسف هِلْ قد أراد شيئاً في نفسه وأراد عمر فروخ شيئاً آخر .

فقد أراد هذا المستشرق إثبات أنّ الإسلام لم يستقرّ في نفوس المسلمين إلا بعد قرنين تقريبًا قياسًا على المسيحيّة وهي فكرة رينان نفسها التي لخّصها في الجملة السابقة .

ومن العجيب أنّه قد غابت عن فطنة هذين المستشرقين – وقاتل الله التعصب – هذا الكمّ الكبير من الفتوحات الإسلاميّة التي وسعت أرجاء الأرض شرقًا وغربًا . فهل كان من المستطاع لتلك الفتوحات أن تكون لولا ثبات المسلمين في إسلامهم ولولا ثبات الإسلام في نفوس العرب وصدق جهادهم وبلائهم في سبيل نصرته .

والحقيقة أنّه لم يكن سوى الإسلام وحده هو الذي جعل من العرب وقد كانوا – في الجاهليّة – قبائل متفرّقةً تتناحر مع بعضها البعض لأدنى سبب أمّةً واحدةً لا صلة بينها وبين جاهليتها . فقد جاء الإسلام ليتغلغل في القلوب والعقول فيحيل هذه الأمّة الغارقة في جاهليتها وبداوتها إلى أمّةٍ من طرازٍ خاصٍ ونمطٍ فريدٍ بين الأمم .

خامساً :

يُعَدّ رينان من المستشرقين الثقات في فلسفة ابن رشد بدليل حصوله على درجة الدكتوراه عن ابن رشد وفلسفته .

ولقد ذكر رينان ابن رشد في أكثر من موضع في محاضرته ، مشيرًا من طرفٍ خفيٍّ أنّ سبب نكبة ابن رشد هو اشتغاله بالفلسفة لأنّ الفلسفة على حدّ تعبير رينان «كانت على الدوام محظورةً ومضطهَدةً عند المسلمين بنفس الإسلام» يقول رينان عن ابن رشد : «عند وفاة ابن رشد آخر فلاسفة العرب بمراكش مغمورًا في الحزن والنسيان كانت أوروبّا آخذة بجدٍّ في اكتساب العلوم» . وفي موضع آخر يقول : «بينما كان ابن رشد مشهورًا عندنا كشهرة أرسطو كان بين إخوانه من المسلمين متروكًا في زوايا النسيان» .

والحقيقة أنّ اشتغال ابن رشد بالفلسفة لم يكن له صلة لا من قريبٍ أو بعيدٍ فيما حلّ به من نكبات واضطهاد .

يقول العقاد عن سبب نكبة ابن رشد : «لقد نُكِبَ بشّار بن برد ولم يُنْكَبْ وطيع بن إياس وكلاهما كان يتزندق . ولكن بشّارًا هجا الخليفة ووطيع لم يقترف هذه الحماقة ، فنجا وطيع وهلك بشّار . ولم يكن ابن رشد أوّل شارح لكتب الأقدمين ، فقد سبقه ابن باجة إلى شرح بعضها ، ولكن ابن باجة كان يحسن مصاحبة السلطان ، وابن رشد لم يكن يحسن هذه الصناعة ، فنُكِبَ ابن رشد ولم ينكب ابن باجة .

وقيل في أسباب النكبة أنّ حسّاد ابن رشد دسّوا عليه أُناسًا من تلاميذه يستملونه شرح الكتب الفلسفيّة فشرحها لهم ونقلوها عنه كأنّها من رأيه وكلامه وأشْهدوا عليها مائة شاهد ثم رفعوها إلى الخليفة وطلبوا عقابه لانحلال عقيدته فنكَبَهُ وألْزمه أن ينزوي في قريةبجوار قرطبة ولا يبرحها» (٢٢) .

إذن فالسياسة ولا شيء سواها كانت سبب نكبة ابن رشد وليس كما يزعم رينان .

سادساً :

من أعجب ما ادّعاه رينان قُبيل نهاية محاضرته في سبيل التدليل على أنّ دراسة العلوم منافية للإسلام ، أنّ رفاعة الطهطاوي ألّف بَعْد رجوعه من فرنسا كتابًا جزم فيه أن العلوم كفر . يقول رينان : «... ومن البراهين الغريبة على ذلك الشيخ رفاعة الذي أقام بباريس عدّة سنين وألف بَعْد رجوعه إلى مصر كتابًا حوى ملاحظات عجيبةٍ على الأمّة الفرنساويّة يجزم فيه بأنّ العلوم الأوروباويّة كُفْرٌ خصوصًا دعواها ببقاء الخليقة ، ولا عجب في قوله هذا لأنّه مطابقٌ لدين الإسلام» .

والسؤال الآن : كيف أباح لنفسه رجلٌ كرينان يُعَدّ في زمرة العلماء أن يذكر ما ذكره عن رفاعة الطهطاوي ، دون أن يجهد نفسه – ولو قليلاً – في التحرّي والتثبّت من صدق ما يقول . فما قاله رينان عن الطهطاوي هو أبعد ما يكون عن الحقيقة التي تتطلّبها أخلاق العلماء .

وعلى كل حال فإنّ مِسْمَر قد ردّ على رينان في هذا الشأن ردًا حسنًا بما معناه أنّ رينان كاذبٌ في دعواه .

ولعلّنا لا نجاوز الصواب إنْ قلنا أنّ وجود شخصيّة دينيّة مستنيرةٌ كرفاعة الطهطاوي سواء في سيرته أو أعماله يَهْدِم أساس ما بناه رينان في محاضرته جملةً وتفصيلاً .

ومن سوء حظ رينان أنّ المطابع قد احتفظت لنا بمؤلّفات رفاعة الطهطاوي لقرب العهد بصاحبها . فلقد تضمّن جزءٌ غير قليل من مؤلّفات الطهطاوي مؤلّفاتٍ في العلوم العصريّة ما بين ترجمة وتأليف .

فمن الكتب التي ترجمها في العلوم كتاب أصول المعادن ومقدّمة جغرافيا طبيعية وثلاث مقالات من كتاب في الهندسة ونبذة في علم الهيئة (الفلك) ونبذة في علم سياسة الصحة ... إلخ (٢٣) .

غير أنه يذكر لرفاعة الطهطاوي ، أنّه عمل على إنشاء مدرسة الألسن التي أنشئت في سنة ١٨٣٥م تحقيقًا لاقتراح تقدّم به الطهطاوي حتى يتسنّى ترجمة المؤلّفات الأوروبيّة في شتىّ المعارف إلى اللغة العربية .

وقد قُسّمت المدرسة إلى أربعة أقسام يهمّنا أن نذكر قسمين منها ، هما قسمٌ لترجمة الكتب العلمية والرياضيّة وقسمٌ لترجمة الكتب في العلوم الطبية والطبيعية (٢٤) .

ليس هذا فحسب بل إنّه نادى بوجوب تعليم الأزهريّين العلوم العصريّة . يقول الطهطاوي في هذا الشأن : «ومدار سلوك جادّة الرشاد والإصابة منوطٌ بهذه العصابة (يقصد

شيوخ الأزهر وطلابه) معرفة سائر العلوم البشرية المدنيّة من كلّ ما يُحمد على تعلّمه وتعليمه علماء الأمّة المحمديّة ، لا سيّما وأنّ هذه العلوم الحكميّة العمليّة التي يَظْهر الآن أنها أجنبيّة هي علومٌ إسلاميّة نَقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ، فلو تشبث من الآن وصاعداً نجباء أهل العلم الأزهريّين بالعلوم العصرية لفازوا بدرجة الكمال ... إلخ» [٢٥] .

سابعاً :

كنا نظنّ أنّ رينان واحدٌ من المستشرقين الذين تجاوزوا حدود الصواب وانزلق في مهاوي التعميمات الخاطئة بدلاً من البحث عن الدليل المحدد تفصيلاً حتى يمكن الحكم على صحّة دعواه . فهذا أمرٌ من اليسير ردّه بالشواهد المستمدّة من حقائق تاريخ العرب وتاريخ المسلمين . ولكنّ الرجل لم يشأ إلا أن يُبَيّن لنا أنّه مصابٌ بداء الحقد والتعصّب ضدّ العرب والإسلام . فلم يترك سبيلاً إلاّ وسلكه لتحقيق هذه الغاية ، الأمر الذي جعل من هذه المحاضرة أشبه بقائمة اتهام - دون سند موثوق - ضدّ العرب والإسلام .

ولعلّ رينان قد أحسّ بأنّ الحاضرين قد هالهم هذا الكمّ الكبير من التّهم الموجهة إلى العرب والإسلام ، أو ربمّا قد شعر بأنه قد تمادى وغلا أكثر ممّا يجب في التمادي والغلوّ في توجيه هذه التّهم التي ساقها تباعًا في تعميمات يعوزها البرهان فأراد أن يجمّل نفسه أمام سامعيه فحاول أن يرتدي لباس الحيدة والتجرّد بقوله : «ولا يخطر ببالي قط أدنى اعتراض على الأديان .... إلخ» ويبدو من هذا القول ، وبالنظر إلى سيرة رينان أنه أشبه بقول المريب الذي يكاد يقول خذوني . لأنّ رينان نفسه الذي يدّعي عدم اعتراضه على الأديان كان خارجًا على تعاليم المسيحيّة في كتابه الذي ألّفه عن حياة السيد المسيح ، الأمر الذي حرمته الكنيسة الكاثوليكية ومنعت رعاياها من قراءة مؤلّفاته . ويُروى أنّه في أخريات حياته حنّ إلى زيارة مدرسته الابتدائية فمنعه من ذلك ناظر المدرسة لأنه كافرٌ ومنبوذٌ من الكنيسة [٢٦] .

ولم يكتف رينان بما تظاهر به أمام سامعيه من حيدة الرأي حيال الأديان ، بل أردف قوله السابق بقول أكثر إغراقًا في الغرابة حيث قال : «إنّ دين الإسلام نفسه فيه أحكامٌ رفيعة المقام وما دخلتُ في حياتي مسجدًا من مساجد المسلمين إلاّ وحصل لي انجذابٌ لدين الإسلام بل تأسّفت على عدم كوني مسلمًا ! !» .

ويبدو أنّ هذه الجملة التي جاءت على غير المألوف وعلى العكس تمامًا من السّياق العام للمحاضرة قد أثارت دهشة سامعيه وربّما حيرتهم أيضًا بدليل أنّ مترجم المحاضرة قد أثبتها كما جاءت في نصّها الفرنسي .

إنّ رينان الذي يتأسّف - كذبًا ونفاقًا - على عدم كونه مسلمًا لا يتورع أن يضع واحدًا من أعظم رجالات المسلمين في كل العصور ، وأحد عباقرة صنّاع التاريخ في كل العصور أيضًا في صفّ واحدٍ مع واحدٍ ممّن يلعنهم التاريخ . يقول رينان في نهاية محاضرته : «وإنْ وُجد الآن بآسيا رجالٌ متوحشّون كالذين كوّنوا جيش الإسلام في مبتدئه ثم جيش أتيلا وجنكيز خان ، ولكنّ العِلمْ الأوروبَاوي قد وضع حاجزًا أمامهم بحيث لو وجد عمرُ - أي عمر بن الخطاب - الآن أو جنكيز خان لما استطاع مقابلة مدافع جيش الأوروباويين بل ما قدر على الخروج من صحراه» .

والسؤال الآن هل يستوي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وجنكيز خان ؟ فما أبعد الشقّة بين هذا وذاك . وإذا كنّا لسنا في مقام المقارنة بين الرجلين لأنّ الرجلين أبعد ما يكونا عن القياس والمقارنة . غير أننا سوف نذكر وقعةً واحدةً من بين مئات الوقائع في عهد عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهي موقفه عند فتح بيت المقدس .

تحدّثنا كتب التاريخ عن فتح بيت المقدس ، أنة لمّا حاصرها عمرو بن العاص وأوشك على فتحها طلب أهلُها عقد الصلح وأن يكون المتولّي للعقد الخليفة نفسه أي عمر ابن الخطاب فكتب عمرو إليه بذلك ، فسار عمر عن المدينة إلى بيت المقدس وصالح أهلها ... إلخ [٢٧] .

ولنا أن نتخيل بعد ذلك موقف جنكيزخان وقواده إذا عرض لهم مثل هذا الموقف ، ومن اليسير علينا أن نتخيل ذلك قياسًا على ما فعلته جيوش المغول في المدن الإسلامية بدايةً من بخارى ونهاية ببغداد . فقد أحرقت بخارى عن آخرها أمّا نيسابور فقد قُتل كلّ من فيها وكومت رءوس القتلى في كومةٍ مروّعةٍ ، أمّا بغداد فقد أعملت جيوش المغول السّلب والنهب والقتل أربعين يومًا كاملةً ودُمّرت في أسبوع واحد المكاتب والكنوز وذهبت مئات الآلاف من المجلدات طعمة للنيران .... إلخ [٢٨] .

إنّ الجمع بين اسمي عمر وجنكيزخان في صعيد واحد ووصف جيوش المسلمين بأنهم رجالٌ متوحشون ، إنّما هو قولٌ لا يليق صدوره عن مؤرّخ يحاول أن يصدق سامعيه . ولكن الرجل وقد علمنا مدى حقده على العرب والإسلام قد أرخى لحقده العنان فجاء حديثه أبعد ما يكون عن الصواب مناقضًا لشواهد التاريخ مخالفًا بذلك معظم أضرابه من مؤرّخي الغرب ومستشرقيه .

وفي استطراد ليس له من داعٍ أشبه بعثرات اللسان التي تفصح عن الطوايا وتفضح النوايا قوله : « .... لو وجد عمر الآن أو جنكيزخان ... إلخ» . ومن العجيب أن ينسى رينان أنّ جيوش المسلمين في عهد عمر قد هزمت وحدها أعتى إمبراطوريتين في الزمن القديم . ولم يكن من عدّة أو سلاح لهذه الجيوش سوى السيوف والرماح . ولم تكن السيوف أو الرماح – بطبيعة الحال – قادرة على أن تصنع نصرًا أو تفتح المدائن واحدةً إثر الأخرى .

غير أنّ الذي صنع النصر وفتح المدائن إيمانٌ لا يتزعزع وجهادٌ صادق في سبيل الله وفي سبيل دعوة الحق .

إذن فالمدافع الأوروباوية – على حدّ تعبير رينان – لا قيمة لها ولا يرجى نصرٌ منها إذا واجهت مثل هذا الإيمان ومثل هذا الجهاد .

خاتمة

إنّ رينان وإن كان على علم ودراسةٍ بالفلسفة وكتب فيها مؤلّفات عديدة ، إلا أننا نعتقد أنّه لم يكن على شيءٍ ذي بالٍ من العلم . ولو كان رينان على شيءٍ ملموس من العلم لعرف قيمة علوم العرب في مخطوطات التراث العلميّ العربيّ التي تعجّ بها مكتبات فرنسا . ولكن الرجل – كما يبدو – لم يكن يعنيه شيءٌ من علوم المسلمين ولم يكلّف نفسه أدنى جهدٍ في التعرّف على إسهام المسلمين في هذا المجال حتّى يكون على بيّنةٍ ممّا يقول ، لأنّه كان معنيًا بأمرٍ آخر لا يتعدّاه وهو الطعن على العرب وعلى المسلمين سواءٌ في لغتهم أو في دينهم أو حتى علومهم .

ويخيّل إلينا أنّ رينان كان واحدًا من هؤلاء المستشرقين الذين لم يجهدوا أنفسهم في التعرف على المصادر الأصيلة لتراث العرب في لغتها الأصلية ، وأنّ كلّ محصوله من دراسة العلوم عند المسلمين كان من تأثير قراءته لأعمال مستشرقين سابقين له . فقد لوحظ «أنّ علماء الاستشراق الكبار يعتمدون في دراستهم للإسلام على مؤلّفات أوربيّة في أغلب الأحيان .

فمثلاً المستشرق جيب عندما يستعرض تاريخ الإسلام يرتكز إلى تسعة عشر مؤلّفًا أوربيًا ، ويفعل الشيء نفسه المستشرق فننسان مُوشيل عندما وضع رسالته الحديثة عن العربيّ الحديث ، ممّا يدلّ على الرّغبة في وضع النظريّات دون التعرّف على باطن الأرض المدروسة . فهل يُمكنُ أن تكون تلك النظريّة علميّة وسليمة ؟ طبعًا ؟ لا (٢٩) .

نقول إنّه لو كان رينان على شيءٍ من العلم وتاريخه لعلِم أنّ الكثير من المصطلحات الكيميائيّة التي تتردّد في اللغات الأوربيّة الآن مثل الأنبيق Alembic والكحول Alcohol والقلي Alkali وحتى لفظة كيمياء Chemistry نفسها هي من وضع العرب وابتكارهم ، ونقلتها أوربّا عن العرب ممّا يدلّ على سبق العرب وابتكارهم وريادتهم في هذا المجال (٣٠) .

ولو كان رينان على شيءٍ من العِلم في الفلك لوجد أنّ ما يقرب من خمسين بالمئة من أسماء النجوم المعروفة والشائعة هي من وضع العرب ومستعملة بلفظها العربيّ في اللّغات الأجنبيّة (٣١) . ولو كان رينان على شيءٍ من المعرفة بتراث العرب العلمي ، لعرف أنّ ابن سينا والقزويني قد سبقا العالم الإنجليزي جيمس هاتون J. Hatton بعدّة قرون في وضع واحدٍ من أهمّ مبادئ ونظريّات عِلم الجيولوجيا وهو المبدأ المعروف بالمبدأ الاضطرادي Uniformitarianism الذي ضمّنه كتابه «نظرية الأرض» حيث عُدّ هاتون بسبب هذا الكتاب المؤسّس الأول لعِلم الجيولوجيا الحديثة (٣٢) .

ولو كان رينان على شيءٍ – ولو يسير – من الحيدة والإنصاف لاعترف – كما اعترف غير واحدٍ من الكتّاب الغربيّين – بفضل العرب في مجال الفلسفة .

فقد أوضح – تفصيلاً – أحد الفلاسفة الغربيّين وهو هموند Hammond من خلال مقارنات مطوّلة عقدها بين كتابات الفارابي وكتابات القديس توما الأكويني قائلاً : «إنّ الحجَجَ التي أوردها الفارابي لإثبات وجود الله ثلاث ، سوف نضعها إلى جانب حجَج القديس توما لكي نُعين

القارئ على المقارنة بينهما وسوف يرى بذلك التشابه العظيم بينهما» (٣٣) .

ويخلص هموند من هذه المقارنات إلى القول : «إنّ الفارابي كان حسن الاطلاع على الفلسفة اليونانية ، بحيث استطاع من طريق دراسته المتقنة أنْ يُكمِل بعض نظرياتها القديمة ويجدد نظريات جديدة . وأنّ المعلمين ألبرت الكبير والقديس توما الأكويني وآخرين ، استعاروا منه مادّة كثيرة ، اعتبرها كثيرون نتاج تأمّلهم ، بينما هي في الحقيقة ليست كذلك .

وإيفاءً بحق الفارابي والمفكرين العرب الآخرين علينا أن نعترف صراحةً ، أنّ الفلسفة المسيحية مدينةٌ كثيرًا لهم» (٣٤) .

إنّ شواهد سبق العرب وريادتهم في مجال العلوم أكثر من أن تحصى ، وقد تحدّث كثيرٌ من مؤرّخي العلم في الغرب عن إسهامات العرب والمسلمين البارزة في هذا المجال .

ولو كان رينان قد أجهد نفسه قليلاً في التعرف على مآثر العرب العلميّة ، لربّما كان له رأيٌ آخر ، ولكنه لم يفعل لسببٍ بسيط للغاية ؛ وهو أنّه قد خشي أن يهدم فكرته التي كرس لها حياته ، وهي الكيْد العرب والطعن في الإسلام . ويبقى لنا سؤالان على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية .

السؤال الأول : لِمَن أراد رينان أنْ يوجّه خطابه ؟ هل لسامعيه من المثقفين الأوروبيّن أم للمبعوثين العرب في فرنسا ؟

ونعتقد أنّ رينان قد وجّه خطابه للاثنين معًا ، يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : «إنّ كُتب الاستشراق ومقالاته ودراساته كلّها مكتوبةٌ أصلاً للمثقف الأوروبي وحده لا لغيره ، وإنّها كتبت له لهدفٍ معيّنٍ في زمانٍ معيّن وبأسلوب معيّن ، لا يُراد به الوصول إلى الحقيقة المُجرّدة بل الوصول إلى حماية عقل المثقفّ الأوروبي من أن يتحرك في جهة مخالفة للجهة التي يستقبلها زحف المسيحية الشمالية على دار الإسلام في الجنوب» (٣٥) .

هذا فيما يتعلّق بالمثقفّ الأوربيّ غير أنّنا نعتقد كذلك أنّ خطاب رينان موجّهٌ أيضًا إلى المثقفين العرب من طلاّب البعثات والإرساليات إلى دول أوربا وخصوصًا فرنسا التي كان لها النصيب الأكبر من المبعوثين المصريّين ، حتّى يكونوا فيما بعد مراكز لنشر آراء هؤلاء المستشرقين في الشرق العربي . فيدينون بولائهم لأساتذتهم من المستشرقين ويروّجون لأفكارهم بين أبناء جنسهم من العرب .

والأمثلة على هذا الطراز من الطلبة المصريين عديدة لعلّ أشهرهم بلا منازع طه حسين الذي تأثرّ بأكثر من مستشرق وخاصة تأثره بالمستشرق مرجليوث في شكّه في الشعر الجاهلي على نحو معروف ومشهور (٣٦) .

كما أنّ منصور فهمي الذي درس على يد المستشرق الفرنسي ليفي بريل قد هاجم في رسالته للدكتوراه تعدّد زوجات النبي الأمر الذي حدا بالجامعة المصرية إلى فصله منها ، وهي قصة معروفة كذلك (٣٧) وإذا كانت آراء المستشرقين في التاريخ الإسلامي والأدب العربي قد وجدت من يتصدّى لها من الكتّاب العرب ، إلاّ أنّ ميدان العلوم قد خلا تقريبًا – عدا استثناءات معدودة – من التصدّي لآراء بعض المستشرقين الذين يسلبون العرب من كل مزيةٍ علميّة .

وعلى الرغم من الجهود المحمودة – وهي للأسف الشديد جهودٌ فرديّة – من عُصْبةٍ كريمةٍ من أفاضل العلماء والباحثين العرب في إحياء التراث العلمي العربي وبيان مآثر العرب العلمية ودور العلماء العرب في بناء الحضارة الإنسانية ، غير أنّ التصدي لآراء المستشرقين التي تُسقط العلم العربي من سجلّ تاريخ العلمْ الإنسانيّ مازال ينقصه الكثير .

ومهما كانت مؤلفات المنصفين من المستشرقين حيال العلم العربي فهي مؤلفاتٌ قليلةٌ بالقياس إلى الغالبيّة العظمى من مؤلّفات المستشرقين التي يغلب عليها الهوى العرقيّ والمذهبيّ .

ولقد أردنا بذكر هذه الفكرة المجملة عن آراء المستشرقين أن نمهّد **للسؤال الثاني** وهو : ماذا نحن فاعلون حيال هذا التشويه المتعمدّ للعلم العربي وحيال تشويه العقليّة العربية ممثّلة في التراث العلمي العربي ؟

وتتلخّص الإجابة عن هذا السؤال المهم والخطير في جملةٍ واحدة وهي : تأْريخ العِلمْ العربي بأيدٍ عربية . وتأريخ العلم العربي الذي نراه هنا هو تاريخ مفصّلٌ موسوعيٌ النهج شموليُّ التأليف يعتمد على النصوص والوثائق التاريخية المطبوعة والمخطوطة . فضلاً عن البحث في عددٍ من القضايا المهمة التي تتعلّق بهذا التاريخ مثل حقيقة الدور الذي لعبه النَّقَلة في الحركة العلميّة العربية ومثل

الدور الذي لعبته الشعوبيّة في تشويه التراث العلمي العربي وغير ذلك من القضايا التي نراها من أوجب الأمور في تأريخ العلم العربي .

ولا شك أنّ الدراسة التفصيليّة والبحث في مثل هذه القضايا سوف تضع آراء المستشرقين ومؤرّخي العِلمْ من الغربيّين على المحكّ إمّا صدقًا ، وإمّا كذبًا .

ولعلّ أسمى مقصد من مقاصد الدعوة إلى تأريخ العلم العربي بأقلام عربيّة ، هو تدريس العلم العربي للناشئة والشباب العربي حمايةً للهويّة العربيّة الإسلاميّة التي كاد يسلبها المستشرقون بآرائهم الزائفة . فضلاً عن بيان دور العرب في بناء الحضارة الإنسانية ذلك الدور الذي أسقطه نفرٌ من مؤرّخي العلم من سجلّ تاريخ العلم العام .

إنها دعوة ... لعلّها تلقى مجيبًا .

الهوامش

١ – مجلة «الكتاب» الجزء السابع . المجلد الثاني – مايو ١٩٤٦ – حضارة العرب – نقد محمود اللبابيدي ص١٣٢ .

٢ – الحضارة العربية – يوسف هل – ترجمة إبراهيم العدوي ص ٣٣ .

٣ – رسالة في الطريق إلى ثقافتنا – محمود محمد شاكر ص٥٤ .

٤ – المصدر السابق ص ٥٩ .

٥ – للمزيد راجع «المستشرقون» – نجيب العقيقي ج ١ ص ١٩١.

٦ – تاريخ آداب اللغة العربية – جرجي زيدان ج٤ ص٤١.

٧ – عصر إسماعيل – عبدالرحمن الرافعي ج ١ ص ٢١ .

٨ – القرآن والمنهج العلمي المعاصر – عبدالحليم الجندي ، ص ٤٩ .

٩ – الرسول والعلم – يوسف القرضاوي ص ٥ .

١٠– رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم – المصدر السابق ، ص ٩ .

١١– أخرجه الترمذي في كتاب العلم – المصدر السابق ص٣١.

١٢– الموجز في تاريخ العلوم عند العرب – محمد عبدالرحمن مرحبا ص ٧٥ .

١٣– تاريخ الفكر العربي – عمر فروخ ص ٢٧٧ .

١٤– عبقرية العرب في العلم والفلسفة – عمر فروخ ص٣٥.

١٥– ضحى الإسلام – أحمد أمين ج١ ، ص ٢٦٣ .

١٦– لمزيد من التفصيل في هذه القضية ، راجع مجلة الدارة العدد ٤ شعبان ١٤١٠هـ – مؤلفات العرب في علوم المعادن بين النقلة والنساخ – مصطفى يعقوب عبدالنبي .

١٧– المرجع في تاريخ العلوم عند العرب – محمد عبدالرحمن مرحبا ص ٢٢٧ .

١٨– في الأدب الحديث – عمر الدسوقي ج ١ ص ٣٧٨ .

١٩– تراث الإسلام – شاخت وبوزورث – ترجمة حسين مؤنس ج ٢ ، ص ٢١٥ .

٢٠– من هؤلاء العلماء الأفاضل محمود محمد شاكر في كتابه «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» وأنور الجندي في كتابه «مؤلفات في الميزان» ... إلخ .

٢١– الاستشراق – العدد الأول – كانون الثاني ١٩٨٧ – المستشرقون ما لهم وماعليهم – عمر فروخ ، ص٥٨.

٢٢– ابن رشد – عباس محمود العقاد ص ٢١ .

٢٣– عصر محمد علي – عبدالرحمن الرافعي ص ٤٣٣ .

٢٤– رفاعة رافع الطهطاوي – جمال الدين الشيال ص٣١.

٢٥– المصدر السابق ص ٧١ .

٢٦– هؤلاء علموني – سلامة موسى ص ٩٠ .

٢٧– نهاية الأرب للنويري – تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم ج ١٩ ، ص ١٧١ .

٢٨– قصة الحضارة – ول ديورانت – ترجمة محمد بدران ج١٣ ، ص ٣٨٠ .

٢٩– فلسفة الاستشراق – أحمد سمايلوفتش ص ٧٠٦ .

٣٠– المنهل – العدد ٤٣٩ – المحرم ١٤٠٦هـ – الكيمياء والرموز الكيميائية وأصولها العربية – مصطفى يعقوب عبدالنبي .

٣١– العلوم عند العرب – قدري حافظ طوقان ص ٦٣ .

٣٢– رسالة الجهاد العدد ٨٨ مايو ١٩٩٠ – سبق العرب في اكتشاف المبدأ الاضطرادي – مصطفى يعقوب عبدالنبي.

٣٣– الفكر العربي والعالم الغربي – يوجين مايرز – ترجمة كاظم سعد الدين ص ١٨ .

٣٤– المصدر السابق ص ٣٤ .

٣٥– رسالة في الطريق إلى ثقافتنا – محمود محمد شاكر – ص ٦١ .

٣٦– مصادر الشعر الجاهلي – ناصر الدين الأسد – ص٣٨٠.

٣٧– فصول ممتعة – محمد سيد كيلاني ص ٧ .

كتاب أسرار الصوم

أبو حامد الغزالي

ماهر المنجد
مدرّس في كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة حمص - سورية

أصل الكتاب وعملنا فيه :

إن كتاب «أسرار الصوم» هو في الأصل جزء من كتاب الغزالي الكبير الموسوم : بـ (إحياء علوم الدين) ، وهو كتاب قسمه مؤلفه إلى مجموعة كتب ، ثم جمعها كلها في كتابه المذكور ، والذي دفعنا إلى العمل بهذا الكتاب وإعادة نشره على كتب صغيرة وأجزاء أسباب كثيرة ؛ منها ما يتعلق بالجانب العلمي ، ومنها ما يتعلّق بجانب التلقي . فالكتاب الأصلي موسوعة دينية كبيرة ، وهو أوسع كتب الغزالي شهرة وانتشارًا ، ولكنه ـ مع الأسف الشديد ـ مطروح في الأسواق دون أي تحقيق علمي يضبط نصه ؛ ويقوّم أخطاءه ، ويرتّب أفكاره ، ويشرح غريبه ، ويغنيه بالتعليقات التي لابد منها في كتاب من هذا النوع لمؤلف له ما له ، وعليه ما عليه ... فمن أجل هذه الأمور جميعًا وسواها كان عملنا في الكتاب . ولم نكتف بذلك فحسب ؛ بل قمنا بتخريج أحاديث الغزالي كافة بالاعتماد على أهم كتب الحديث وأصحها ، وذكر أصل الحديث المروي كاملاً ، فإن كان له رواية أخرى تفيد السياق ذكرناها ؛ ذلك أن الغزالي - رحمه الله - كان يروي معظم الأحاديث بالمعنى ، ولا يحافظ - في الأغلب - على ألفاظ الحديث بل ربما ساق حديثًا شطره الأول صحيح ؛ وشطره الثاني مضاف أو موضوع ... ؛ ومن هنا تأتي أهمية ذكرنا لأصل الحديث كاملاً ، فعدم ذكر الحديث بألفاظه الأصلية قد يغيّر من معناه الحقيقي أحيانًا ، وكذلك أيضًا ما يضاف إليه ؛ فقد يحرّف معناه ويعدل به من جهة إلى أخرى ... ثم إن لسياق الحديث ومناسبته وظروفه المحيطة أهميةً عظيمة في توجيه دلالته وفهم مغزاه الذي قُصد فعلاً .

والشيء المؤسف له حقًّا أن الغزالي - رحمه الله - كان كثيرًا ما يستشهد بأحاديث ضعيفة ؛ بل بأحاديث لا أصل لها أحيانًا ، ثم يبني على ذلك آراء وربما أحكامًا .

وقد كان للإمام عبدالرحيم العراقي حاشية على كتاب الغزالي خرّج منها أحاديثه ، غير أنه كان يكتفي بذكر مصدر الحديث فقط ؛ دون إيراد النص الأصلي للحديث أو إيراد رواياته الأخرى إن كانت ذات أهمية ... وعلى الرغم من ذلك تبقى حاشية العراقي ذات قيمة وقد استأنسنا بها .

كما خرّجنا جميع الآيات القرآنية الواردة في الكتاب ؛ فذكرنا اسم السورة ورقم الآية ثم أوردنا الآية كاملة ؛ ليعرف القارئ الكريم سياقها ؛ لأن الغزالي كان كثيرًا ما يستشهد بجزء صغير من الآية ، وربما اجتث هذا الجزء من سياق الآية اجتثاثًا ، فيأخذ منها حكمًا عامًا قد كان خاصًا في الأصل .

وقد تتبعنا الغزالي في جميع أقواله وآرائه خطوة خطوة ، فما كان محتاجًا إلى تعليق علّقنا عليه ؛ كشفًا للابساته ؛ وبيانًا لأبعاده ؛ وإرشادًا لقارئه ... وهذا الأمر هو من الأهمية بمكان ، خصوصًا إذا عرفنا أن الغزالي - رحمه الله - كان أحيانًا يسوق آراء شخصية بلا دليل ، ومن ثم كان العمل بها غير ملزم إطلاقًا ؛ لأنها ليست

أحكامًا شرعية ، وإنما هي وجهة نظر مال صاحبها إلى الزهد والتصوف ، فبالغ أحيانًا في بعض روحانياته على حساب الواقع المعاش ومبادئ الدين ومقاصد الشريعة ...! والإسلام هو في أصله دين عمل وإنتاج وحضارة لا دين تواجد وذكر وتواكل ...

وسنقوم – إن شاء الله – بنشر كتب الإحياء تباعًا وفق هذه الخطة وذاك المنهج ، وقد رأينا أن ننشر العمل الأول من «الإحياء» – وهو هذا – في مجلة «عالم الكتب» لأنها في رأينا خير منبر ثقافي يهتم بالكتاب وقضاياه وبالتراث وإشكالياته . ولنا أمل في إخوتنا من الأساتيذ الأفاضل أن يكرمونا بتعليقاتهم وانتقاداتهم لهذا العمل ، فلنا من سعة الصدر ما يجعلنا نتقبّل أي نقد ما دام مبنيّاً على أسس علمية ومنطقية ، و الله من وراء القصد .

أبو حامد الغزالي :

هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، ولد في مدينة طوس سنة (١) ٤٥٠هـ / ١٠٥٨م . ثم قدم نيسابور وهو في العشرين من عمره ، فاتصل بإمام الحرمين أبي المعالي الجُوَيني ، فدرس الفقه والفلسفة . ثم عهد إليه نظام الملك وزير السلطان ملكشاه السلجوقي بالتدريس في المدرسة النظامية في بغداد سنة ٤٨٤هـ .

وما لبث أن مرّ الغزالي بأزمة فكرية قوامها الشك ؛ دفعته إلى التعمق في العلوم الفلسفية ، فترك التدريس وانتقل إلى الشام ، واعتكف في المسجد الأموي ، ثم ارتحل إلى القدس ، ومن هناك انتقل إلى بلاد الحجاز وأدى مناسب الحج . ثم عاد إلى دمشق ليدرّس العلوم الدينية في زاوية المسجد (٢) .

رحل الغزالي – فيما بعد – إلى الإسكندرية في مصر فالتقى بالفقيه المشهور أبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب سراج الملوك . ثم كُلّف بالتدريس بالمدرسة النظامية في نيسابور من قبل الوزير فخر الملك بن نظام الملك ، فبقي يدرّس مدة سنتين قبل أن يعود إلى مدينته طوس ليلبّي نداء ربه ، حيث وافته المنية (٣) عام ٥٠٥هـ / ١١١١م .

لقد كانت تجربة الغزالي الفلسفية تجربة عنيفة معقدة ؛ انتهت بانقلاب شامل على الفلسفة ؛ نجح فيه نجاحًا باهرًا . بيد أن هذا النجاح كان طعنة نجلاء قضت على ازدهار الفلسفة العقلية والانتقادية (٤) ، وأدت إلى جمود الإبداع الفلسفي في المشرق والمغرب معًا .

يوضح الغزالي في كتابه «المنقذ من الضلال» صراعه الباطني في الكشف عن الحقيقة ، ويصف تجربته الفلسفية بأدق تعبير ؛ تلك التي بدأت بفك عرى التقليد والغرق في أتون الشك الذي بقي فيه قرابة الشهرين على «مذهب الفلسفة بحكم الحال ؛ لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقًا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ؛ بل بنور قذفه الله تعالى في الصدور ...» (٥) .

ويرى ويل ديورانت في قصة الحضارة أن اعتناق الغزالي لمذهب التصوف كان نصرًا باهرًا للصوفيين ، ذلك أن أهل السنة قد أخذوا من بعده بالتصوف ، حتى طغت – للأسف – عقائد الصوفية وقتًا ما على قواعد الدين ، وأخذ الزهاد المتصوفة يهجرون حياة الأسرة ، ويحيون حياة الأخوة الدينية بزعامة شيخ لهم – ويسمّون أنفسهم الفقراء والدراويش (٦) ... ! !

كتاب أسرار الصوم

الحمدلله الذي أعظم على عباده المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وفنّه ، ورد أمله وخيب ظنه ؛ إذ جعل الصوم حصنًا لأوليائه وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرّفهم أنّ وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وأنّ بقمعها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قصم خصمها قوية المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق وممهد السنة وعلى آله وأصحابه ذوي الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلّم تسليمًا كثيرًا .

– بيان فضل الصوم والترغيب فيه

أما بعد: فإن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قول ﷺ: «الصوم نصف الصبر» (٧) ، وبمقتضى قوله ﷺ : «الصبر نصف الإيمان» (٨) . ثم هو متميز بخاصية النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان ؛ إذ قال الله تعالى فيما حكاه عنه نبيه ﷺ : «كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به» (٩) ، وقد قال الله تعالى: ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (١٠) .

والصوم نصف الصبر ، فقد جاوز ثوابه قانون التقدير والحساب ، وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ : «والذي

نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، يقول الله عز وجل : إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي فالصوم لي وأنا أجزي به» (١١). وقال ﷺ : «للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون» (١٢) ، وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه . وقال ﷺ : «للصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة عند لقاء ربه» (١٣) ، وقال ﷺ : «لكل شيء باب وباب العبادة الصوم» (١٤) ، وقال ﷺ : «نوم الصائم عبادة» (١٥) . وروى أبو هريرة - رضي الله - عنه أنه ﷺ قال : «إذا دخل شهر رمضان فتحتْ أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين ونادى منادٍ يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر» (١٦) . وقال وكيع (١٧) في قوله تعالى : ﴿ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴾ (١٨) هي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب . وقد جمع رسول الله ﷺ في رتبة المباهاة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال : «إن الله تعالى يباهي ملائكته بالشاب العابد فيقول : أيها الشاب التارك شهوته لأجلي المبذل شبابه لي أنت عندي كبعض ملائكتي» (١٩) . وقال ﷺ في الصائم : «يقول الله عز وجل : انظروا يا ملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجلي» وقيل في قوله تعالى : ﴿ فلا تعلم نفس ما أُخْفِيَ لهم من قُرَّةِ أعين جزاء بما كانوا يعملون ﴾ (٢٠) قيل كان عملهم الصيام لأنه قال : ﴿ إنما يُوَفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ (٢١) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغًا ويجازف جزافًا ، فلا يدخل تحت وهم وتقدير، وجدير بأن يكون كذلك ؛ لأن الصوم إنما كان له ومشرفًا بالنسبة إليه - وإن كانت العبادات كلها له - كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها له لمعنيين :

أحدهما : أن الصوم كف وترك ، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد . وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى ، والصوم لا يراه إلا الله عز وجل ، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرّد .

والثاني : أنه قهْرٌ لعدوّ الله عزّ وجل ؛ فإن وسيلة الشيطان - لعنة الله - الشهوات ؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب ، ولذلك قال ﷺ : «إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع» (٢٢) ، ولذلك قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها : «داومي قرع باب الجنة ؛ قالت : بماذا ؟ قال ﷺ : بالجوع» (٢٤) . فلمّا كان الصوم على الخصوص قمعًا للشيطان وسدّاً لمسالكه وتضييقًا لمجاريه ؛ استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عزّ وجل ، ففي قمع عدوّ الله نصرة له سبحانه ، وناصر الله تعالى موقوف على النصرة له ، قال الله تعالى : ﴿ والذين جاهدوا فينا لَنَهْدِيَنَّهم سبلنا ﴾ (٢٥) ، وقال تعالى : ﴿ إنّ الله لا يُغَيِّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم ﴾ (٢٦). وإنما التغير تكثير الشهوات، فهي مرتع الشياطين ومرعاهم، فما دامت مخصبة لم ينقطع ترددهم ، وما داموا يترددون لم ينكشف للعبد جلال الله سبحانه ، وكان محجوبًا عن لقائه. وقال ﷺ : «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات» (٢٧) ، فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة ، وصار جنة ، وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحدّ فلابد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة ، ونبيّن ذلك بثلاثة فصول :

- واجبات الصيام -

أما الواجبات الظاهرة فستة :

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان ،

وذلك برؤية الهلال ، فإن غمّ فاستكمال ثلاثين يومًا من شعبان ونعني بالرؤية العلمَ ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوّال إلا بقول عدلين احتياطًا للعبادة . ومن سمع عدلاً ؛ ووثق بقوله ؛ وغلب على ظنه صدقه ؛ لزمه الصوم ، وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه ، وإذا رؤي الهلال ببلدة ولم ير بأخرى - وكان بينهما أقل من مرحلتين - وجب الصوم على الكل ، وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ، ولا يتعدّى الوجوب .

(الثاني) النية ،

ولابد لكل ليلة من نية مبيتة معيّنة جازمة ، فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذي عنينا بقولنا «كل ليلة» ، ولو نوى بالنهار لم يجزه صوم رمضان ؛ ولا صوم الفرض ؛ إلا التطوّع الذي عنينا بقولنا «مبيتة» ، ولو نوى الصوم مطلقًا أو الفرض مطلقًا لم يجزه حتى ينوي فريضة الله عزّ وجل صوم رمضان ، ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غدًا إن كان من رمضان لم يجزه، فإنها ليست جازمة إلا إن تستند بنيته إلى قول شاهد

عدل، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم ، أو يستند إلى استصحاب حال كالشك في الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم النية ، أو يستند إلى اجتهاد كالمحبوس في المطمورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان باجتهاده ، فشكه لا يمنعه من النية . ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فإن النية محلها القلب . ولا يتصوّر فيه جزم القصد مع الشك كما لو قال في وسط رمضان : (أصوم غدًا إن كان من رمضان)، فإن ذلك لا يضره ؛ لأنه ترديد لفظ ، ومحل النية لا يتصوّر فيه تردد ؛ بل هو قاطع بأنه من رمضان ؛ ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته ، ولو نوت امرأة في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها .

(الثالث) الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف عمدًا مع ذكر الصوم :

فيفسد صومه بالأكل والشرب والسعوط والحقنة . ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل ؛ إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة ، وما يصل بغير قصد من غبار الطريق ، أو ذبابة تسبق إلى جوفه ، أو ما يسبق إلى جوفه في المضمضة ، فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمضة ؛ فيفطر لأنه مقصر ، وهو الذي أردنا بقولنا «عمدًا» . فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناس ؛ فإنه لا يفطر . أما من أكل عامدًا في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارًا بالتحقيق فعليه القضاء ، وإن بقي على حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ، ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد .

(الرابع) الإمساك عن الجماع :

وحدّه مغيب الحشفة ، وإن جامع ناسيًا لم يفطر ، وإن جامع ليلاً أو احتلم فأصبح جنبًا لم يفطر ، وإن طلع الفجر وهو مخالط أهله فنزع في الحال صح صومه ، فإن صبر فسد ، ولزمته الكفارة .

(الخامس) الإمساك عن الاستمناء :

وهو إخراج المني قصدًا بجماع أو غير جماع ، فإن ذلك يفطر ، ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل ، لكن يكره ذلك ، إلا أن يكون شيخًا أو مالكًا لإربه ، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى . وإذا كان يخاف من التقبيل أن يُنزل ؛ فقبّل ؛ وسبق المني ؛ أفطر لتقصيره .

(السادس) الإمساك عن إخراج القيء :

فالاستقاء [٢٨] يفسد الصوم ، وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة [٢٩] من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لعموم البلوى به ، إلا أن يبتلعه بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .

– لوازم الإفطار –

وأما لوازم الإفطار فأربعة : القضاء والكفارة والفدية وإمساك بقية النهار تشبيهًا بالصائمين .

١ – القضاء :

أما القضاء فوجوبه عام على كل مسلم مكلف تَرَك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالحائض تقضي الصوم ، وكذا المرتد . وأما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم ، ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان ، ولكن يقضي كيف شاء متفرقًا ومجموعًا .

٢ – الكفارة :

وأما الكفارة فلا تجب إلا بالجماع . وأما الاستمناء والأكل والشرب وما عدا الجماع لا يجب به كفارة ، فالكفارة عتق رقبة ، فإن أعسر فصوم شهرين متتابعين ، وإن عجز فإطعام ستين مسكينًا مدًا مدًا .

٣ – إمساك بقية النهار :

وأما إمساك بقية النهار فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه . ولا يجب على الحائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ، ولا على المسافر إذا قدم مفطرًا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شهد بالهلال عَدْلٌ واحد يوم الشك . والصوم في السفر أفضل من الفطر ؛ إلا إذا لم يطق ، ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيمًا في أوله ، ولا يوم يقدم إذا قدم صائمًا .

٤ – الفدية :

وأما الفدية فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرتا خوفًا على ولديهما ، لكل يوم مدّ حنطة لمسكين واحد مع القضاء ، والشيخ الهرم [٣٠] إذا لم يصم تصدّق عن كل يوم مدًا .

– سنن الصيام –

وأما السنن فست :

١ – تأخير السحور .

٢ – وتعجيل الفطر بالتمر أو الماء قبل الصلاة .

٣ – وترك السواك بعد الزوال .

٤ – والجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة .

٥ – ومدارسة القرآن .

٦ – والاعتكاف في المسجد ؛ لا سيما في العشر الأخير ، فهو عادة رسول الله ﷺ : «كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المئزر ودأب وأدأب أهله» [٣١] ؛ أي أداموا النصب في العبادة إذ فيها ليلة القدر ، والأغلب أنها في أوتارها ، أشبه الأوتار ليلة إحدى وثلاث وخمس وسبع . والتتابع في هذا الاعتكاف أولى ، فإن نذر اعتكافًا متتابعًا أو نواه انقطع تتابعه بالخروج من غير ضرورة ؛ كما لو خرج لعيادة [٣٢] أو شهادة أو جنازة أو زيارة أو تجديد طهارة ، وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع . وله أن يتوضأ في البيت . ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر ، «كان ﷺ لا يخرج إلا لحاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا مارًا» [٣٣] . وينقطع التتابع بالجماع ولا ينقطع بالتقبيل . ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والنوم وغسل اليد في الطست ، فكل ذلك قد يُحتاج إليه في التتابع . ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه ، «كان ﷺ يدني رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجرة» [٣٤] ، ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف النية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً . والأفضل مع ذلك التجديد .

– أسرار الصوم وشروطه الباطنة –

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم ، وصوم الخصوص ، وصوم خصوص الخصوص . أما صوم العموم فهو كفّ البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفضيله .

وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام .

وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية ؛ وكفّه عما سوى الله عزّ وجل بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عزّ وجل واليوم الآخر ؛ وبالفكر في الدنيا إلا دنيا تراد للدين ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا ، حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يفطر عليه كُتبت عليه خطيئة ، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عزّ وجل وقلة اليقين برزقه الموعود [٣٥] ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين [٣٦] ، ولا يطول النظر في تفصيلها قولاً ؛ ولكن في تحقيقها عملاً ، فإنه إقبال بكنه الهمة على الله عزّ وجل ، وانصراف عن غير الله سبحانه ، وتلبس بمعنى قوله عزّ وجل : ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ [٣٧] .

– صوم الخصوص والصالحين :

وأما صوم الخصوص – وهو صوم الصالحين – فهو كفّ الجوارح عن الآثام ، وتمامه بستة أمور :

١ – صوم البصر :

غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره ، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عزّ وجل ، قال ﷺ : «النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها خوفًا من الله آتاه الله عزّ وجل إيمانًا يجد حلاوته في قلبه» [٣٨] . وروى جابر عن أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال : «خمس يفطرن الصائم : الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة» [٣٩] .

٢ – صوم اللسان :

حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، وإلزامه السكوت ، وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن، فهذا صوم اللسان .

وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر ابن الحرث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب . وقال ﷺ : «إنما الصوم جنة ، فإذا كان أحدكم صائمًا فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم إني صائم» [٤٠] . وجاء في الخبر «أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ ، فأجهدهما الجوع والعطش في آخر النهار ، حتى كادتا أن تتلفا ، فبعثتا إلى رسول الله ﷺ يستأذناه في الإفطار ، فأرسل إليهما قدحًا ، وقال ﷺ : «قل لهما قيئا فيه ما أكلتما ، فقاءت إحداهما نصفه دمًا عبيطًا ولحمًا غريضًا ، وقاءت الأخرى مثل ذلك ، حتى ملأتاه فعجب الناس من ذلك، فقال ﷺ هاتان صامتا عما أحل الله لهما، وأفطرتا على ما حرم الله تعالى عليهما ، قعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يغتابان الناس ، فهذا ما أكلتا من لحومهم» [٤١] .

٣ - صوم السمع :

كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه ؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ، ولذلك سوّى الله عزّ وجل بين المستمع وآكل السحت ، فقال تعالى : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ [١٢] . وقال عزّ وجل : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثمَ وأكلهم السحت ﴾ [١٣] ، فالسكوت على الغيبة حرام . وقال تعالى : ﴿ إنكم إذًا مثلهم ﴾ [١٤] ولذلك قال ﷺ : «المغتاب والمستمع شريكان في الإثم» [١٥] .

٤ - صوم بقية الجوارح :

كف بقية الجوارح عن الآثام ؛ من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم - وهو الكف عن الطعام الحلال - ثم الإفطار على الحرام ، فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصرًا ويهدم مصرًا ، فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرته لا بنوعه ، فالصوم لتقليله . وتارك الاستكثار من الدواء خوفًا من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهًا . والحرام سم مهلك للدين ، والحلال دواء ينفع قليله ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله ، وقد قال ﷺ : «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» [١٦] ، فقيل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

٥ - عدم الإكثار من الطعام :

لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلئ جوفه ، فما من وعاء أبغض إلى الله عزّ وجل من بطن مليء من حلال [١٧] . وكيف يستفاد من الصوم في قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره ، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام ؟ حتى استمرت العادات بأن تدخر جميع الأطعمة لرمضان فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدّة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء ؛ وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها ؛ ثم أطعمت من اللذات وأشبعت ؛ زادت لذتها ، وتضاعفت قوتها ، وانبعث من الشهوات ماعساها كانت راكدة لو تركت على عادتها . فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، ولن يحصل ذلك إلاّ بالتقليل ؛ وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم ، فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً لم ينتفع بصومه [١٨] . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ، ويستشعر ضعف القوى ، فيصفو عند ذلك قلبه ، ويستديم في كل ليلة قدرًا من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فعسى الشيطان أن لا يحوم على قلبه ؛ فينظر إلى ملكوت السماء. وليلة القدر عبارة عن الليلة التي ينكشف فيها شيء من الملكوت ، وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ إنَّا أنزلناه في ليلة القدر ﴾ [١٩] . ومَن جعل بين قلبه وبين صدره مخلاة من الطعام فهو عنه محجوب . ومن أخلى معدته فلا يكفيه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همته عن غير الله عزّ وجل ؛ وذلك هو الأمر كله ، ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام .

٦ - تعلق القلب بين الخوف والرجاء :

أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقًا مضطربًا بين الخوف والرجاء ؛ إذ ليس يدري أيقبل صومه فهو من المقربين ؛ أو يرد عليه فهو من الممقوتين ؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها ، فقد روي عن الحسن بن أبي الحسن البصري أنه مر بقوم وهم يضحكون ؛ فقال : إن الله عزّ وجل جعل شهر رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه لطاعته ؛ فسبق قوم ففازوا ، وتخلف أقوام فخابوا ، فالعجب كل العجب للضاحك اللاعب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطلون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه ؛ والمسيئ بإساءته ، أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب ، وحسرة المردود تسدّ عليه باب الضحك . وعن الأحنف بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير ، وإن الصيام يضعفك ، فقال : إني أعده لسفر طويل، والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم .

- روح الصيام -

فإن قلت : فمن اقتصر على كف شهوة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء : (صومه صحيح) فما معناه ؟ فاعلم أنّ فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة ؛ لا سيما الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكليفات إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقبلين على الدنيا الدخول تحته . فأما علماء

الآخرة فيعنون بالصحة القبول ، وبالقبول الوصول إلى المقصود . ويفهمون أنّ المقصود من الصوم التخلّق بخلق من أخلاق الله عزّ وجل وهو الصمدية ، والاقتداء بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان ، فإنهم منزهون عن الشهوات ، والإنسان رتبته فوق رتبة البهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ، ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتليًا بمجاهدتها ، فكلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بغمار البهائم، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة . والملائكة مقربون من الله عزّ وجل ، والذي يقتدي بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عزّ وجل كقربهم . فإن الشبه من القريب قريب ، وليس القرب ثمَّ بالمكان بل بالصفات .

وإذا كان هذا سرُّ الصوم عند أرباب الألباب وأصحاب القلوب ؛ فأي جدوى لتأخير أكلةٍ وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الأخرى طوال النهار ؟ ولو كان لمثله جدوى فأي معنى لقوله ﷺ : «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» ، ولهذا قال أبو الدرداء : يا حبذا نوم الأكياس وفطرهم ، كيف لا يعيبون صوم الحمقى وسهرهم ! ولَذرةٌ من ذوي يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجبال عبادةً من المغترين . ولذلك قال بعض العلماء : كم من صائم مفطر، وكم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذي يجوع ويعطش ويطلق جوارحه .

ومن فهم معنى الصوم وسره علم أنّ مثل مَن كفّ عن الأكل والجماع ؛ وأفطر بمخالطة الآثام كمن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات ، فقد وافق في الظاهر العدد ؛ إلا أنه ترك المهم وهو الغسل ؛ فصلاته مردودة عليه بجهله .

ومثل من فطر بالأكل وصام بجوارحه عن المكاره كمن غسل أعضاءه مرة مرة ؛ فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كمن غسل كل عضو ثلاث مرات ؛ فجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال .

وقد قال ﷺ : «إنّ الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته» [٥٠] . ولمّا تلا قوله عزّ وجل : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أهلها ﴾ [٥١] وضع يده على سمعه وبصره فقال : «السمع أمانة والبصر أمانة» [٥٢] ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال ﷺ : «فليقل إني صائم» ؛ أي إني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوابك ؟ فإذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهرًا وباطنًا ؛ وقشرًا ولبًّا ، ولقشرها درجات ، ولكل درجة طبقات فإليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن اللباب أو تتحيز إلى غمار أرباب الألباب .

- التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه -

اعلم أن استحباب الصوم يتاكد في الأيام الفاضلة ، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة ، وبعضها يوجد في كل شهر ، وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ؛ ويم عاشوراء ؛ والعشر الأول من ذي الحجة ؛ والعشر الأول من المحرّم . وجميع الأشهر الحرم مظانّ الصوم ، وهي أوقات فاضلة «وكان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان حتى كان يظنّ أنه في رمضان» [٥٣] .

وفي الخبر : «أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرّم» [٥٤] ، لأنه ابتداء السنة ، فبناؤها على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال ﷺ ، «صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين غيره ، وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام» [٥٥] . وفي الحديث : «من صام ثلاثة أيام من شهر حرام : الخميس والجمعة والسبت ؛ كتب الله له بكل يوم عبادة تسعمائة عام» [٥٦] . وفي الخبر : «إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان» [٥٧] . ولهذا يستحب أن يفطر قبل رمضان أيامًا ، فإن وصل شعبان فجائز ، فعل ذلك رسول الله ﷺ مرة ؛ وفصل مرارًا كثيرة [٥٨] . ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان بيومين أو ثلاثة إلا أن يوافق وردًا له . وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله ؛ حتى لا يضاهي بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرّم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرّم ورجب ، واحد فرد وثلاثة سرد ، وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والمعدودات ، وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوّال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرّم ورجب ليسا من أشهر الحج ، وفي الخبر «ما من أيام العمل فيهنّ أفضل وأحب

إلى الله عزّ وجل من أيام عشر ذي الحجة ، إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة ، وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر، فقالوا ولا الجهاد في سبيل الله تعالى ؟ قال : ولا الجهاد في سبيل الله عزّ وجل إلا من عقر جواده وأهريق دمه» (٥٩) .

وأما ما يتكرر في الشهر : فأول الشهر وأوسطه وآخره ، ووسطه الأيام البيض وهي : الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع ، فالإثنين والخميس والجمعة ، فهذه هي الأيام الفاضلة ، فيستحب فيها الصيام وتكثير الخيرات لتضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات.

وأما صوم الدهر فإنه شامل للكل وزيادة ، وللسالكين فيه طرق ؛ فمنهم من كره ذلك ، إذ وردت أخبار تدل على كراهته (٦٠) . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله ، والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجرًا على نفسه ؛ مع أن الله سبحانه يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه . فإذا لم يكن شيء من ذلك ؛ ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك (٦١) ، فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم . وقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري : «من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين» (٦٢) ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يومًا ويفطر يومًا ، وذلك أشد على النفس وأقوى في قهرها ، وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم ، فقد قال ﷺ : «عرضت عليّ مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يومًا وأشبع يومًا ، أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت» (٦٣). وقال ﷺ : «أفضل الصيام صوم أخي داود كان يصوم يومًا ويفطر يومًا» (٦٤) . ومن ذلك «منازلته ﷺ لعبد الله بن عمر – رضي الله عنهما – في الصوم وهو يقول ؛ إني أطيق أكثر من ذلك، فقال ﷺ : صم يومًا وأفطر يومًا، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال ﷺ : «لا أفضل من ذلك» (٦٥) . وقد روي أنه ﷺ ما صام شهرًا كاملاً قط إلا رمضان (٦٦) ؛ بل كان يفطر منه .

من لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بثلثه ، وهو أن يصوم يومًا ويفطر يومين . وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع في الأوقات الفضيلة . فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم ، وأن مقصوده تصفية القلب وتفريغ الهم لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله ، فقد يقتضي حاله دوام الصوم ، وقد يقتضي مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق حدّه في سلوك طريق الآخرة بمراقبة القلب لم يخفَ عليه صلاح قلبه ، وذلك لا يوجب ترتيبًا مستمرًا . ولذلك روي أنه ﷺ : «كان يصوم حتى يقال لا يفطر ، ويفطر حتى يقال لا يصوم ، وينام حتى يقال لا يقوم ، ويقوم حتى يقال لا ينام» (٦٧) . وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوّة من القيام بحقوق الأوقات .

وقد كره العلماء أن يوالي بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقديرًا بيوم العيد وأيام التشريق ، وذكروا أن ذلك يعشي القلب ، ويولد رديء العادات ، ويفتح أبواب الشهوات ، ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق ؛ ولا سيما من يأكل في اليوم والليلة مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المتطوّع به والله أعلم بالصواب .

تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمدلله بجميع محامده كلها ؛ ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ؛ ما علمنا منها وما لم نعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .

الهوامش

١ – انظر عبدالرحمن بدوي – مقدمة كتاب مؤلفات الغزالي ص ٢١ – القاهرة ١٩٦١م .
٢ – انظر حسن إبراهيم حسن – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي ، الجزء الرابع – ص ٥٣٢ .
٣ – راجع ابن خلكان – وفيات الأعيان – ج٣ – ص٣٥٣.
٤ – انظر عادل العوا – المذاهب الفلسفية – ص ١٨٧ .
٥ – انظر كتابه المنقذ من الضلال ص ٦٣ .
٦ – راجع ويل ديورانت – قصة الحضارة – الجزء الثالث عشر – ص ٣٦٥ .
٧ – حديث حسن أخرجه الترمذي وأصله : «التسبيح

نصف الميزان ، والحمدله تملؤه ، والتكبير يملأ ما بين السماء والأرض ، والصوم نصف الصبر، والطهور نصف الإيمان» .

٨ – هذا الحديث غير موجود في الستة ، لكنه في حلية الأولياء لأبي نعيم الفضل بن دكين ، وأبو نعيم هذا إمام ، حافظ ثقة بيد أنه كان يتاجر بالحديث وقد روى أحد تلامذته فقال : «كنا نختلف إلى أبي نعيم الفضل ابن دكين القرشي نكتب عنه الحديث ، فكان يأخذ منا الدراهم الصحاح ...» وهناك حديث آخر في الصبر يروى عن جعفر بن أبي طالب – رضي الله عنه – أن الرسول ﷺ قال : «الصبر معوّل المسلم» أي معتمده وسنده .

٩ – حديث صحيح أخرجه الستة وأصله : «كل عمل ابن آدم يضاعف : الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمئة ضعف ، قال الله عزّ وجل : إلا الصوم ، فإنه لي ، وأنا أجزي به ، يدع شهوته وطعامه من أجلي . للصائم فرحتان ، فرحة عند فطره ، وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فيه أطيب عند الله من ريح المسك» .

١٠– من سورة الزمر الآية ١٠ ﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم ، للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

١١– هو الحديث السابق ولكن برواية أخرى للبخاري، هي: «الصيام جُنّة ، فلا يرفث ولا يجهل ، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل : إني صائم – مرتين – والذي نفسي بيده ، لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشهوته من أجلي ، الصيام لي ، وأنا أجزي به ، والحسنة بعشر أمثالها» .
الجُنّة : الستر والوقاية – الخلوف : تغيُّر ريح فم الصائم من ترك الأكل والشرب – الرفث : كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة .

١٢– حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وأصله :«إن في الجنة بابًا يقال له : الريّان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال : أين الصائمون ؟ فيقومون ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد» .

١٣– راجع الحاشية رقم (٩) .

١٤– حديث ضعيف وهو غير موجود في الكتب الستة . وقد أخرجه أبو عبدالرحمن عبدالله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ من حديث لأبي الدرداء .

١٥– حديث ضعيف وهو غير موجود في الكتب الستة ، لكنه في أمالي ابن منده وفي مسند الفردوسي ، وفيه كذّاب .

١٦– حديث صحيح أخرجه البخاري ومسلم ومالك والنسائي والترمذي وفي رواية الترمذي : «إذا كان أول ليلة من رمضان : غُلّقتْ أبواب النار ، فلم يفتح منها باب ، وفتّحت أبواب الجنة ، فلم يغلق منها باب وينادي منادٍ : يا باغي الخير هلمّ وأقبل ، ويا باغي الشر أقصر ، ولله فيه عتقاء من النار ، وذلك في كل ليلة ، حتى ينقضي رمضان» .

١٧– لعله وكيع ابن الجراح ولد سنة ١٢٨هـ وتوفي سنة ١٩٨ ، قال فيه أحمد بن حنبل : «الثبتُ عندنا في العراق وكيع» .

١٨– من سورة الحاقة – الآية ٢٤ .

١٩– حديث ضعيف غير موجود في الكتب الستة ، وقد أخرجه ابن عدي من حديث ابن مسعود .

٢٠– وهذا أيضًا غير موجود في الكتب الستة .

٢١– من سورة السجدة الآية ١٧ .

٢٢– من سورة الزمر الآية ١٠ ﴿ قل يا عبادِ الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة ، وأرض الله واسعة ، إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ .

٢٣– هذا الحديث فيه إضافة غير موجودة في الأصل ، وهذه الإضافة تحرّف معناه وتبعده عن مقصده ، ثم إن له سياقًا غير هذا السياق وبابًا غير هذا الباب ، ومغزاه الحقيقي : دفع ظن السوء ؛ لا الحضّ على الجوع كما جعله الغزالي ، رحمه الله ، فعبارة (فضيقوا مجاريه بالجوع) عبارة مضافة ولا أصل لها في الحديث ، وسياقه الحقيقي كما أخرجه مسلم «أن النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه ، فمرّ به رجل ، فدعاه وقال : هذه زوجتي ، فقال يا رسول الله : من كنتُ أظن به فلم أكن أظنّ بك ، فقال رسول الله ﷺ : إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» .

فالمغزى .. كما نلاحظ . أنه يُستحب لمن رؤي خاليًا بامرأة وكانت زوجته أو محرمًا له أن يقول : هذه فلانة ليدفع ظن السوء به .

وفي حديث آخر أخرجه البخاري ومسلم وابن داود أن صفية زوج النبي ﷺ قالت : «كان النبي ﷺ معتكفًا، فاتيتُه أزوره ليلاً ، فحدثته . ثم قمتُ لأنقلب (أي : لأرجع) فقام معي ليقلبني ، وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد ، فمرّ رجلان من الأنصار ، فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا ، فقال النبي ﷺ : على رسلكما إنها صفية بنت حُيَيّ . فقالا: سبحان الله ! فقال ﷺ: إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وإني خشيتُ أن يقذف في قلوبكما شيئاً» .

فما أبعد المعنى الحقيقي للحديث عن المعنى الذي حمّله إياه الغزالي ! .

٢٤– هذا الحديث غير موجود في الكتب الستة ولم أعثر على أصل له في سواها .

٢٥– من سورة العنكبوت الآية ٦٩ : ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينَّهم سبلنا وإنّ الله لَمَعَ المحسنين﴾ .

٢٦– من سورة الرعد ، الآية ١١ : ﴿له معقّبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ، إن الله لا يغيّر ما بقومٍ حتى يغيّروا ما بأنفسهم ، وإذا أراد الله بقوم سوءًا فلا مردَّ له وما لهم من دونه من والٍ﴾ .

٢٧– حديث غير موجود في الكتب الستة ، لكنه في مسند أحمد بن حنبل برواية أبي هريرة .

٢٨– الاستقاء : تكلّف إخراج القيء .

٢٩– النخامة : ما يدفعه الإنسان من صدره أو أنفه .

٣٠– أي تجب الفدية على الشيخ الهرم إذا لم يصم .

٣١– حديث صحيح مع اختلاف في الألفاظ ، وقد أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وأصله : «كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل، وأيقظ أهله ، وجَدَّ ، وشدّ المئزر». وكلمة (الأواخر) ليست من صلب الحديث ، وإنما هي تفسير وعبارة (شد المئزر) كناية عن الجد والاجتهاد في العمل ، أو عن اجتناب النساء .

٣٢– أي لزيارة المريض .

٣٣– حديث صحيح مع اختلاف اللفظ ، له روايات عديدة ، أقربها إلى ما ذكر الغزالي ما روته عائشة رضي الله عنها : «وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة إذا كان معتكفًا» .

أما الشق الثاني من الحديث المتعلق بالسؤال عن المريض فهو يروى أيضًا على أنه من فعل عائشة ، رضي الله عنها ، ففي رواية للموطأ : أن عائشة كانت إذا اعتكفت لا تسأل عن المريض إلا وهي تمشي ، لا تقف . وفي رواية أخرى لأبي داود قالت : «كان رسول الله ﷺ يمر بالمريض وهو معتكف ، فيمر ولا يُعرّج يسأل عنه» .

٣٤– حديث صحيح أخرجه الستة . وأصله أن عائشة ، رضي الله عنها : «كانت تُرَجّل النبي ﷺ وهي حائض، وهو معتكف في المسجد ، وهي في حجرتها يناولها رأسه» .

وفي رواية الترمذي وأبي داود والموطأ : «كان إذا اعتكف أدنى إليّ رأسه فأُرَجّله : وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان» : ومعنى (أرجله) من الترجيل أي تسريح الشعر .

٣٥– هذا كلام مخالف لتعاليم الشريعة ، ففيه حضٌّ على التقاعس عن العمل وترغيب بالتواكل ، وهذا منهيّ عنه ومأمور بعكسه . لكن الأشدّ من هذا أن المؤلف يجعل العمل في طلب الرزق وتدبير ما يفطر عليه الصائم خطيئةً من الخطيئات ، وهذا – لعمري – فيه بُعْدٌ عن مقتضى الشرع الإسلامي ، والغزالي ينسب حكمه هذا إلى أرباب القلوب ، فليت شعري : من هؤلاء أرباب القلوب ؟ ! ومن أين تؤخذ أحكام الدين ، أمن أرباب القلوب أم من القرآن والسنة ؟ !

٣٦– لا نظن أن هذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ، فما سمعنا بنبيٍّ من أنبياء الله كان عاطلاً متقاعسًا ، ثم أتاه رزقه الموعود ، وأنزل له الله زادًا من السماء ليفطر عليه بعد صومه !

٣٧– يحاول المؤلف هنا أن يثبت كلامه السابق بالاستشهاد بهذه الآية ، بيد أنه اجتزأها واجتثها من سياقها ، إذ لا علاقة لها بما يقول لا من قريب ولا من بعيد ، فالآية كاملةً هي : ﴿وما قدروا الله حق قدره ، إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء ، قل مَن أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نورًا وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرًا ، وعُلّمتم ما

لم تعلمـــوا أنتم ولا آباؤكم ، قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ . سورة الانعام الآية ٩١ .
فالآية ههنا تتحدث عن اليهود أو الكفار الذين أنكروا بعثة الرسل والوحي إليهم ، وأنكروا إنزال القرآن على الرسول ﷺ ، فجادلهم الله بقضية لا يستطيعون إنكارها إذ سألهم ﴿ قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى ﴾ ثم أجاب بقوله ﴿ قل الله ﴾ أي : الله أنزله ، ثم أتبعه بقوله ﴿ ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ أي دعهم في جهلهم وباطلهم وضلالهم الذي يخوضون فيه .

٣٨- هذا الحديث غير موجود في الكتب الستة . وقد أخرجه الحاكم بسند صحيح .

٣٩- وهذا الحديث أيضًا لا أثر له في الكتب الستة . وهو حديث ضعيف أخرجه الأزدي في الضعفاء وفيه أحد الكذابين .

٤٠- حديث صحيح أخرجه الستة وأصله في إحدى رواياته: «كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم فإنه لي ، وأنا أجزي به ، الصيام جُنّة ، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذٍ ولا يصخب ، فإن شاتمه أحد أو قاتله ، فليقل إني صائم ، إني صائم ، والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وللصائم فرحتان يفرحهما ، إذا أفطر فرح بفطره ، وإذا لقي ربه فرح بصومه» . ومعنى (الصيام جنة) : وقاية من النار .

٤١- حديث ضعيف لأنه منقطع ، وقد أخرجه أحمد ، وهو تجسيد حسّي لمعنى الآية الكريمة المعروفة في الغيبة حتى كأنه من فهم العوام ، فقد أراد الله أن يبيّن مدى سوء الغيبة وفحشها وأن يكرّه الناس بها فقال : ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضًا ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا فكرهتموه ... ﴾ . الحجرات ١٢ .
فهنا أراد الله أن يصوّر تصويرًا ويمثّل تمثيلاً ما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه ، وهو لم يكتف بتشبيه الاغتياب بأكل لحم الإنسان ؛ بل جعل هذا الإنسان أخًا ، ولم يقتصر على أكل لحم الأخ ؛ بل جعله ميتًا ، وهذا ما جُبل الإنسان على كراهيته ، فالمعنى أنه كما تكرهون هذا الأكل طبعًا وجبلّة فاكرهوا تلك الغيبة شرعًا ، وليس المعنى أنّ من يغتاب يأكل من لحم أخيه على وجه الحقيقة الحسية .
فهذا فهم العوام من الناس ، والحديث المذكور يعبّر عن هذا الفهم ، وقد قال عنه ابن كثير لمّا ذكر نحوه في تفسيره : «إسناد ضعيف ومتن غريب» .

٤٢- سورة المائدة ، الآية ٤٢ : ﴿ سماعون للكذب أكّالون للسحت ، فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تُعرض عنهم فلن يضروك شيئًا ، وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين ﴾ .

٤٣- سورة المائدة ، الآية ٦٣ : ﴿ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون ﴾ .

٤٤- سورة النساء ، الآية ١٤٠ : ﴿ وقد نزّل عليكم في الكتاب أنْ إذا سمعتم آيات الله يُكْفَرُ بها ويُستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديثٍ غيره ، إنكم إذن مثلهم ، إنّ الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعًا ﴾ .

٤٥- هذا الحديث لا أثر له في الكتب الستة . وهو حديث ضعيف رواه الطبراني .

٤٦- رواه أبو هريرة وأخرجه النسائي .

٤٧- هذا كلام يُساق دون دليل ، ولم يرد شيء فيما أعلم عن مثل هذا البغض ، ولعل هذا القول له علاقة بزهد الغزالي وتقشفه آخر حياته .

٤٨- هذا كلام بلا دليل ، وهو رأي شخصي لا حكم فقهي .

٤٩- من سورة القدر ، الآية ١ .

٥٠- هذا الحديث غير موجود في الكتب الستة . وهو حديث حسن أخرجه الخرائطي .

٥١- سورة النساء ، الآية ٥٨ : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمًا يعظكم به ، إن الله كان سميعًا بصيرًا ﴾ .

٥٢- هو في سنن أبي داود برواية أبي هريرة .

٥٣- حديث صحيح وهو قريب من الأصل ، أخرجه الستة بروايات مختلفة اختلافات يسيرة ، وفي رواية البخاري ومسلم : «لم يكن النبي ﷺ يصوم شهرًا أكثر من شعبان ، فإنه كان يصوم شعبان كله ...» وفي أخرى «كان يصوم شعبان إلا قليلاً» .

٥٤- حديث رواه مسلم وأبو داود وأصله : «أفضل الصيام

بعد شهر رمضان شهر الله المحرّم ، وأفضل الصلاة بعد المكتوبة صلاة الليل» . وله رواية أخرى قريبة .

٥٥- هذا الحديث لا وجود له في الكتب الستة . وقد أخرج الطبراني ما يشبهه .

٥٦- وهذا الحديث أيضًا لا أثر له في الكتب الستة . وهو حديث ضعيف أخرجه الأزدي .

٥٧- هذا الحديث له روايات مختلفة أقربها إلى ما ذكره المؤلف ما أخرجه أبو داود : «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا» .

٥٨- من الأحاديث التي تدل على أن الرسول ﷺ قد وصل شعبان برمضان ما أخرجه أبو داود والنسائي في إحدى رواياته : «كان أحب الشهور إلى رسول الله ﷺ أن يصومه شعبان ، ثم يصله برمضان» وما أخرجه الترمذي وهو قول أم سلمة ، رضي الله عنها : «ما رأيت رسول الله ﷺ يصوم شهرين متتابعين إلا شعبان ورمضان». وما رواه الترمذي وأبو داود والنسائي وهو حديث حسن : «ما رأيته يصوم شهرين متتابعين ، إلا أنه كان يصل شعبان برمضان» .

٥٩- فما رواه الغزالي من هذا الحديث هو دمج الروايتين مع بعض التغيير في اللفظ ، الأولى أخرجها الترمذي عن أبي هريرة – رضي الله عنه – والثانية أخرجها البخاري وأبو داود والترمذي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما .

– الرواية الأولى : «ما من أيام أحب إلى الله أن يُتعَبَّد له فيها من عشر ذي الحجة ، يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة، وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر».

– الرواية الثانية : «ما من أيام العملُ الصالحُ فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر ، فقالوا : يا رسول الله، ولا الجهاد ؟ قال : ولا الجهاد ، إلا رجل خرج يخاطرُ بنفسه وماله ، فلم يرجع بشيء» .

٦٠- من الأحاديث التي تدل على كراهة صوم الدهر ما أخرجه النسائي في رواية عن عبدالله بن عمر ، رضي الله عنهما، وفي أخرى عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : «من صام الأبد فلا صام ولا أفطر» .

٦١- كلام غريب أن يشجّع الغزالي على صوم الدهر والرسول نفسه لم يرضَ به ، فبالإضافة إلى الحديث السابق الذي سقناه في الحاشية (٦٠) ، هناك حديث آخر مشهور يحذر فيه الرسول ﷺ من صوم الدهر . فحينما علم بأمر ثلاثة الرجال الذين شددوا على أنفسهم ؛ إذ قرر أحدهم أن يصلي الليل أبدًا ، والثاني أن يصوم الدهر ولا يفطر ، والثالث أن يعتزل النساء ... جاء إليهم ﷺ وقال : «أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، ولكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» .. أخرجه البخاري ومسلم .

٦٢- لم أجده ، وفي حاشية العراقي أنه أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى ...

٦٣- حديث حسن لكنه بلفظ آخر : وقد أخرجه الترمذي وأصله : «عرضَ عليّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا ، فقلتُ ، لا يا ربِّ ، ولكن أشبع يومًا ، وأجوع يومًا ، فإذا جعت تضرّعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك» .

٦٤- حديث صحيح له روايات عديدة أخرجها مسلم والترمذي والنسائي وفي رواية الترمذي : «أفضل الصوم صوم أخي داود ؛ كان يصوم يومًا ، ويفطر يومًا ، ولا يفرّ إذا لاقى» .

٦٥- أحاديث كثيرة : تدور حول هذا المعنى بروايات متعددة تروى عن عبدالله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما – أخرجها البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأبو داود .

٦٦- هذا جزء من حديث أخرجه البخاري ومسلم ومالك وأبو داود . يروى عن عائشة – رضي الله عنها – وأصله : «كان رسول الله ﷺ يصوم حتى نقول لا يفطر ، ويفطر حتى نقول لا يصوم ، وما رأيت رسول الله ﷺ استكمل صيام شهر قط إلا شهر رمضان ، وما رأيته في شهر أكثر منه صيامًا في شعبان» .

٦٧- راجع الحديث السابق في الحاشية (٦٦) .

كتاب القلم لأبي محمد السراج النحوي البغدادي

المتوفى سنة ٣١٦هـ / ٩٢٨م

عبدالعزيز الساوري
الديوان - وزارة الشؤون الثقافية - الرباط

هو أبو بكر محمد بن السَّريّ بن سَهْل النحوي البغدادي المعروف بابن السَّرّاج (والسَّرّاج : بفتح السين المهملة والراء المشددة وبعد الألف جيم ، هذه النسبة إلى عمل السّروج) ، كان أحد الأئمة المشاهير ، المجمع على فضله ونبله وجلالة قدره في النحو والآداب ، صحب المبرد، وكثر الأخذ عنه ، وتصدر لأمر العلم .

قال المرزباني : كان أحدث أصحاب أبي العباس المُبرِّد سناً ، مع ذكاء وفطنة ، وكان المبرد يقرّبه ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ، ثم اشتغل بالموسيقا فسئل عن مسألة بحضرة الزجاج ؛ فأخطأ في جوابها فوبّخه الزجاج وقال : مثلك يُخطئ في مثل هذه المسألة ! ؟ والله لو كنت في منزلي لَضَرَبْتُكَ ، ولكن المجلس لا يحتمل ذلك (١) ، فقال : قد ضربتني يا أبا إسحاق ، وكان علم الموسيقا قد شغلني عن هذا الشأن ؛ ثم رجع إلى كتاب سيبويه ونظر في دقائقه ، وعوّل على مسائل الأخفش والكوفيين ، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة .

وأخذ عنه جماعة من الأعيان منهم : أبو القاسم عبدالرحمن بن إسحاق الزَّجّاجي ، وأبو سعيد السِّيرافي وأبو علي الفارسي ، وعلي بن عيسى الرّماني وأبو علي القالي ، ومحمد بن أحمد بن الأزهر ، وأبو القاسم الآمدي وطائفة ، ونقل عنه الجوهري في كتاب «الصحاح» في مواضع عديدة .

وكان يلثغ في الراء فيجعلها غَيْنًا ، فأملى يومًا كلامًا فيه لفظة بالراء ، فكتبوها عنه بالغيْن ، فقال : لا ، بالغاء (كذا) ، لا ، بالغاء (كذا) يريد بالراء ، وجعل يكرّرها على هذه الصورة .

وتذكر المصادر أنه كان يحب أم ولده ، وكانت في القيان ، فأنفق عليها ماله ، وتهيأ أن قدم المكتفي من الرّقة إلى بغداد ، في الوقت الذي ولي الخلافة .

قال الأوارجي الكاتب : فجلست في ذلك اليوم أنا وابن السراج وأبو القاسم عبدالله بن حمدان الموصلي الفقيه في رَوْشَن نتفرج لما وافى المكتفي في المساء نظرنا واستحسناه . وكانت هذه القينة قد جَفَت ابن السراج لمّا قل ماله ، فقال في ذلك الوقت : قد حضرني شيء فاكتبوه عني فكتبته ، وهو قوله (٢) :

قايسْتُ بين جمالها وفعالها
فإذا المَلاحةُ بالخِيانةِ لا تَفي
حلفت لنا ألا تخون عهودنا
فكأنما حلفت لنا ألا تفي
والله لا كلّمتها ولَوَ انّها
كالشّمْسِ أو كالبَدْرِ أو كالمُكْتَفي

ومر على هذا زمان . وكان ابن زنجي الكاتب يهوى قينة ويدعوها في أيام الجمع ويحدّث بأمرها وأمره معها أبا العباس أحمد بن محمد بن الفرات ، فحدثني ابن زنجي أنه غدا يوم سبت على أبي العباس فسألّه عن القينة في أمسه وما غنته ، فقال : كان صوتي عليها :

قايست بين جمالها .... إلخ الأبيات

قال : وسألني أبو العباس عنها ولمن هي ؟ فقلت : لعبدالله بن المعتز . فقلت له : إنها ليست لعبدالله بن المعتز، وإنما هي لأبي بكر محمد بن السراج ، وقصصت له قصتها ، فعجب من ذلك . واجتمع أبو العباس أحمد بن محمد بن الفرات بالمكتفي وأنشده الأبيات . فسأله : من قائلها ؟ فقال : هي لعبيد الله بن عبدالله بن طاهر سهوا منه فقال : احمل إليه ألف دينار . فلما اجتمع ابن زنجي بأبي العباس أخبره بالقصة . فقال له ابن زنجي : ما قلت لك إلا أنها لعبدالله بن المعتز ، وقد أخبرني بعدك

الأوارجي أنها لأبي بكر بن السراج ، فقال : غلطتَ أنت وغلطتُ أنا ، وقد ساق الله لابن طاهر رزقًا . وأعطاني الألف دينار ، وقال : امض بها إلى عبيدالله بن عبدالله بن طاهر ، وسلمها له من يدك ، وأخبره الخبر ، ففعلت فأخذها وشكر .

فانظر ما أعجب هذه القصة ، حرمها صاحبها وأخذها غيره بالوهم . قال الزبيدي : وأنشدني محمد بن السري لنفسه في هذه الجارية :

سوف أبكي على بكائي عليك
وجفوني إذا نظرتُ إليكِ
وزمانٍ لم يخلق الله شيئا
كان فيه أعزّ من عينيكِ
أظننت الصبيّ يخفى عليه
قبحُ ما تحملين في ثوبيكِ
هبه أعمى وليس يبصر شيئا
أين ما قد يفوحُ من إبطيكِ
فاطلبي صاحبا أصمَّ ضريرا
فعسى أن يكون يصبو إليك

وبعد هذا كله لم يمت ابن السراج حتى ملك القينة ، وأولدها ولده . وكان يحبه حباً شديداً لحبها .

قال بعض الرواة : حضرت مجلس ابن السراج وهو يقرئ الناس النحو وغيره من أنواع الأدب ، وإلى جانبه ابن له صغير ، وهو شديد الحنوّ عليه ، فقال له بعض الحاضرين : أتحبّه أيها الشيخ ؟ فقال متمثلاً :

أحبُّهُ حُبَّ الشَّحيح مالَهْ
قد كان ذاقَ الفقرَ ثُمَّ نالَهْ

قال الأوارجي : وأنشدني ابن السراج لنفسه ، وقد جُدِّر ابن يانس المغني وكان من أحسن الناس وجهًا ، وكان قد علق به وهويه :

يا قمراً جُدِّرَ لمّا استوى
فزادني حُزْنًا وزادت همومي
أظنُّهُ غنّى لشمس الضحى
فَنَقَّطَتْهُ طَرَبًا بالنجـوم

قال أبو الفتح عبيد الله بن أحمد النحوي : توفي أبو بكر بن السَّرّاج يوم الأحد لثلاث ليالٍ بَقِينَ من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة ببغداد في خلافة المقتدر .

وصنّف أبو بكر بن السراج كتبًا جليلة ، منها :

١ - احتجاج القراء .
٢ - الاشتقاق : في المصادر أنه «لم يتم» ، وقد نشره محمد صالح التكريتي في بغداد سنة ١٩٧٣ ، كما نشره محمد علي الدرويش ومصطفى الحدري في دمشق سنة ١٩٧٣ كذلك .
٣ - الأصول في النحو : حققه عبدالحسين الفتلي ، ونشره بمؤسسة الرسالة ببيروت سنة ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م في ثلاثة أجزاء ، وصنع ورتب فهارسه محمود محمد الطناحي في كتيّب صغير صدر عن مكتبة الخانجي بالقاهرة سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م ، وقد شرحه الرّماني (٣) (ت ٣٨٤هـ) وابن بابشاذ (ت ٤٥٤هـ) وابن الباذِش (ت ٥٢٨هـ) والجزولي (ت ٦٧٧هـ) . وحكى الرّماني عنه قال : كان أبو بكر بن السراج يقرأ عليه كتاب الأصول الذي صنّفه (٤) ، فمر فيه باب استحسنه بعضُ الحاضرين فقال : هذا والله أحسن من كتاب المقتضب . فأنكر عليه أبو بكر ذلك ، وقال : لا تقل هذا ، وتمثل ببيت ، وكان كثيرًا ما يتمثل فيما يجرى له من الأمور بأبيات حسنة ، فأنشد حينئذٍ :

ولكن بكت قبلي فهيّجَ لي البكا
بكاها فقلتُ : الفضلُ للمتقدِّم

٤ - الجُمَل : شرحه الرماني ثم شرح أبياته ابن حميدة المتوفى سنة ٥٥٠هـ .
٥ - جمل الأصول أو مجمل الأصول وهو الأصول الصغير .
٦ - الخط : حققه عبدالحسين الفتلي ، ونشره بمجلة (المورد) العراقية م ٥ ع٣ ص ١٠٣ - ١٣٤ سنة ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م .
٧ - الرياح والهواء والنار .
٨ - شرح كتاب سيبويه (في سبعة أسفار) .
٩ - الشعر والشعراء أو أحكام الأشعار .
١٠- الشكل والنُّقَط : شرحه الرماني .
١١ - العروض : حققه عبدالحسين الفتلي ، ونشره بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع ١٦ ص ٤١١ - ٤٤٠ سنة ١٩٧٢م .
١٢ - علل النحو .
١٣ - القلم : وهو هذا الكتاب الذي نحققه وننشره لأول مرة وسنفصل فيه القول فيما بعد .

١٤ – المواصلات والمذاكرات في الأخبار .

١٥ – الموجز في النحو : نُشر مرتين ؛ الأولى : بتحقيق مصطفى الشويمي في مؤسسة بدران للطباعة والنشر ببيروت سنة ١٩٦٥م ، والثانية : بتحقيق محمد محمد سعيد في مطبعة الأمانة بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م ، وقد شرحه الرماني .

١٦ – الهجاء : شرحه الرماني .

١٧ – الهمز .

وصف المخطوطة

هي نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط في المغـرب تحت رقم ١٠٠ ق (مخطوطات الأوقاف)، ويحفظ معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة التابع لجامعة الدول العربية مصورة عنها (ميكروفلم) تحت رقم ١٥٧ (خط ، معارف عامة) (٥) ، وقد حصلت على نسخة من تلك المصوّرة ، فللقائمين على المعهد شكري وامتناني لتمكيني من ذلك ، وهي في مجموع نفيس جداً ، يضم الكتب التالية :

١ – الموجز في النحو لابن السراج (١ أ – ٣٤ ب) .

٢ – القلم لابن السراج (٣٥ أ) .

٣ – المُوَفَّقي في النحو لمحمد بن أحمد بن كيسان (٣٥ب – ٤٦ب) .

٤ – الكِتابُ لابن درستويه (٦) (٤٧ ب – ٩٢ب) .

٥ – النحو لأبي علي الحسن بن محمد المعروف بلُغْدَة الاصبهاني (٩٣ب – ١٠١ب) .

٦ – الخط لابن السراج (١٠٢أ – ١١٦ب) .

٧ – شرح ما يكتب بالياء من الأسماء المقصورة والأفعال مؤلفًا على حروف المعجم لابن درستويه (٧) (١١٧أ – ١٢٠أ) .

٨ – مختصر المذكر والمؤنث للمفضل بن سلمة (٨) (١٢٠ب – ١٢٥أ) .

٩ – المقصور والممدود لغلام ثعلب (١٢٥ب – ١٢٦ب) .

١٠ – العروض لابن السراج (١٢٧ب – ١٣٥ب) .

١١– المختصر في فك دوائر العروض لمجهول (١٣٥ب – ١٣٧ب) .

١٢ – القوافي لأبي القاسم الطيب بن علي التميمي (١٣٨أ – ١٤١ب) .

وكتاب «القلم» لابن السراج في هذا المجموع عبارة عن صفحة واحدة (٣٥ أ) فقط ، مقاس ١٦× ٢١سم ، في الصفحة ٢١ سطرًا ، ومتوسط كلمات السطر الواحدة ١٨ كلمة ، وهي مكتوبة بخط «النستعليق» مضبوط بالشكل أحيانًا بقلم محمد بن إبراهيم بن عبدالله الأصبهاني المكنى بأبي الفرج ، وقد فرغ منها يوم الخميس لأربع خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة (٣٥٢هـ) (٩) .

ولم أجد أحدًا من الذين ترجموا له قد ذكر أن لابن السراج كتابًا في القلم ، ثم إن الفهارس العربية لم تذكر نسخة أخرى لهذا الكتاب لكن أسلوب ابن السراج واضح فيها كل الوضوح .

وأعتقد أنه ليس مُؤَلَّفًا كاملاً ، ويبدو أنه جزء من كتاب أكبر ، وهذا الجزء – الذي بين أيدينا – ليس في فضل القلم ومالهم فيه من الحكم واشتقاقه وأوصافه ، وإنما هو خاص بكيفية إمساك القلم عند الكتابة ووضعه على الورق بالعرض والطرف الأعلى والأسفل تارة أو تدويرة الهلال والعطف والاختلاس تارة أخرى ، وهذا موجود في بعض كتب الخط والقلم (١٠) .

كتاب القلم لابن السرّاج

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو بكر محمد بن السَّرِيّ السرّاج النحوي رحمه الله : إذا أردت الكتابة فابْتَدِئْ بِبِسْمِ الله ، الباءُ برأس القلم كلِّه ثم اخْطُطْهَا بعرضه واخْتِمْهَا بأسفله ، والتَّاءُ مثلُها .

واكتب السِّينَ والشِّينَ والمَطَّةَ العُلْيا من الصّاد والضاد والطاءِ والظّاء برأس القلم الأعلى ، واكتب الجيمَ برأس القلم كلِّه ثم اعطِفْها بعرضه كأنك تريد أن تَكْتُبَهَا مُفْردةً ، واكْتب الدّال برأس القلم ؛ فإن كُنْتَ في كتاب تَحْبِسُ فيه يدك ؛ فاعْطِفْ رأسَ القلم كلَّه على بياض الذال، واكتب الرّاءَ والزاي والمطّةَ السفلى من الصاد والضاد والطاء والظاء والكاف بالقلم كله ، واكتب كلَّ حرف مرسل والهاءَ التي تكون آخرَ الكتابِ برأس القلم الأسفل ، إلا أنك تجعل وسط التاء والنون بعرض القلم .

وابتدئ العَيْنَ الأول (١١) برأس القلم الأعلى بوضع القلم كلّه حتى إذا كانت بمثل الهلال فأجْرِ القلمَ عليها

بعرضه ، والغَيْنُ مثلُها ، واكتبِ العَيْنَ التي وسط الكلام برأس القلم الأسفل ثم ارفع برأسه الأعلى ثم اردد القلم برأسه كله على بياض العين فاحْشُها به ثم صِلها بالكتابِ من وسطها ، واكتبِ الميمَ برأس القلم كلِّهِ كأنك تريد أن تكتبَ سينين إلا أن تكون في كتابٍ جليلٍ أو سجلٌ تُمْسِكُ فيه يدكَ ؛ فتَكْتُبهَا برأس القلم عَرْضًا ، وابتدئ القافَ برأس القلم الأسفل حتى [إذا] (١٢) صارت كأنها الهلالُ فضع رأس القلمِ ثم أخْلِسْها وكذلك الفاءُ والواو ، واكتبِ الهاءَ برأس القلم الأسفل .

تمَّ الكتابُ والحمدللهُ وصلى اللهُ على محمد وآله وسلم تسليمًا .

انظر ترجمة ابن السراج في :

إشارة التعيين ص ٣١٣ رقم ١٨٤ ، والمحمدون من الشعراء ص ٤٧٠ – ٤٧٣ رقم ٣٠٦ ، ومعجم الأدباء ١٩٧/١٨ – ٢٠١ رقم ٥٣ ، وبغية الوعاة ١ / ١٠٩ – ١١٠ رقم ١٨١، وتاريخ الأدب العربي ٢ / ١٨٥ – ١٨٦ رقم ٢٧ وتاريخ بغداد ٥ / ٣١٩ – ٣٢٠ رقم ٢٨٤٢ ، وإنباه الرواة ٣/ ١٤٥ – ١٤٩ رقم ٦٥٣ ، والأعلام ٧ /٦ ومعجم المؤلفين ١٠ / ١٩ ، ووفيات الأعيان ٤ / ٣٣٩ – ٣٤٠ رقم ٦٤١ وشذرات الذهب ٢ / ٢٧٣ – ٢٧٤ وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٤٨٣ – ٤٨٤ رقم ٢٦٨ ، والنجوم الزاهرة ٣ / ٢٢٢ ونزهة الألباء ص ١٨٦ – ١٨٧ ، وطبقات النحويين واللغويين ص ١٢٢ – ١٢٥ ، والعبر ٤٧٢/١ ، والكامل في التاريخ ٨/ ١٨٠ – ١٩٩ ، وإيضاح المكنون ٢ / ٢٨٦ – ٣٠٦ وكشف الظنون ١ / ١٥ ، ١١١، ٦٠١ ؛ ٢ / ١٠٤٨ ، ١٣٩٢ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٧ ، ١٨٩٩ واللباب في تهذيب الأنساب ١ / ٥٣٨ ومرآة الجنان ٢ / ٢٧٠ – ٢٧١ والوافي بالوفيات ٣ / ٨٦ – ٨٨ رقم ١٠٠٧ والبداية والنهاية ١١ / ١٥٧ والمنتظم ٦ / ٢٢٠ رقم ٣٥٣ وفهرسة ابن خير ٣٠٧ – ٣٠٨ ، ٣١٦ والفهرست ٦٧ – ٦٨ والبلغة في تاريخ أئمة اللغة ٢٢٢ – ٢٢٣ رقم ٣٢٠ ونورالقبس ص ٣٤٢ رقم ١١٧ والأنساب ٣ / ٢٤١ – ٢٤٢ مادة (السراج) وعيون التواريخ (مخطوط) ١١ / ٧٥ – ٧٦ وعقد الجمان (مخطوط) ٩ / ١٧٨ ومسالك الأبصار (مخطوط) ٤ / ٢٩٣ – ٢٩٤ .

الهوامش

١ – بعدها في بعض المصادر : «ومازلنا نشبهك في الذكاء بالحسن بن رجاء» .

٢ – قال الصفدي : هذه الأبيات في غاية الحسن ومع لطفها وحُسن ما فيها من حسن الاستطراد جاء فيها لزوم التاء قبل الفاء ، وقد تداولها الناس وملأوا بها مجاميعهم واشتهرت إلى أن قال ابن سناء الملك :

ومليَّةٍ بالحُسنِ يسخرُ وجهُها
بالبدرِ يهزأ ريقُها بالقرقفِ
لا أرتضي بالشمس تشبيهًا لها
والبدرِ بل أكتفي بالمكتفي

وقال اليافعي : يحسن استعارة هذه الأبيات لوصف الدنيا .

٣ – منه نسخة خطية في مكتبة سليم أغا في إستانبول بتركيا في مجموع يحمل رقم ١٠٦٦ .

٤ – يقال : «مازال النحو مجنونًا حتى عَقَلَهُ ابن السراج بأصوله» .

٥ – انظر : قائمة مخطوطات المعهد (بعثة المغرب الثانية) ٥ / ١٤٤١ مسلسل ٨٣٨ .

٦ – حققه د. إبراهيم السامرائي ود . عبدالحسين الفتلي ونُشر بدار الكتب الثقافية بالكويت سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٧ – حققه د . عبدالحسين الفتلي ونشره بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع١٧ ص ١٥٢– ١٧١ سنة ١٩٧٣م .

٨ – حققه د . رمضان عبدالتواب ، ونشره بدار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٢م .

٩ –انظر : الموجز في النحو (طبعة القاهرة) ص٤١، ٢٢٩.

١٠– انظر : صبح الأعشى للقَلْقَشَنْدي ٣ / ١ – ٢٢٦ والكُتّاب لابن درستويه ص ١١٣ – ١٢٧ .

١١– جرى المؤلف هذا على تذكير الحرف ثم أنّثه بعد ذلك وكل هذا جائز .
انظر المذكر والمؤنث للفراء ص٦٤ تحقيق رمضان عبدالتواب ، دار التراث القاهرة ١٩٩١م .

١٢– زيادة لازمة لموقع الفاء في الجملة .

المراجعات

«جُنَّةُ الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى» (١)

لأبي يحيى محمد بن عاصم الغرناطي (٨٥٧هـ) تحقيق صلاح جرار

مصطفى الغديري

أستاذ باحث بكلية الآداب بوجدة – المغرب

بين كل أونة وأخرى تظهر نفائس جديدة من تراث الفردوس المفقود في مختلف الفنون والمعارف . وتفاجئنا الخزانات المغربية – العامة منها والخاصة – بنصوص كانت – إلى عهد قريب – في عداد ما ضاع من تراث الأندلس المسلمة ، فقد ظهر في منتصف الخمسين ديوان يوسف الثالث ، وحققه المرحوم العلامة عبدالله كنون . وبعد ذلك ظهر ديوان ابن دراجم القسطلي وقام بتحقيقه محمود علي مكي ، واستخرج عبدالسلام الهراس ديوان ابن الآبار من بين ركام مخطوطات الخزانة الملكية ، فحققه ونشره . وصار ابن الأبّار في عداد شعراء الأندلس المبرزين ، بعد ما اشتهر عند الباحثين بمؤلفاته التاريخية . وحقق محمد رضوان الداية ديوان ابن خاتمة الأنصاري ، ونشر محمد الشريف قاهر ديوان الصيب والجهام لابن الخطيب ، وصنع محمد مفتاح ديوانًا لابن الخطيب يضم جميع أشعاره . وحققت السيدة خيسوس روبيرا ديوان ابن الجياب ، وحقق العلامة محمد أبو الأجفان رحلة القلصادي وبرنامج المجاري ، ونشر عبدالله العمراني ثبت البلوي الوادي آشي بعد أن حققه ودرسه منذ سنين . وفي سنة ١٩٨٧ ظهر ديوان أبي الحسين بن فركون حققه وقدم لـه الدكتور محمد بنشريفة بمقدمة حاول فيها ترميم الحلقة المفقودة من تاريخ الأندلس في القرن التاسع الهجري ، وبعده بسنة ظهر ديوان عبدالكريم القيسي بتحقيق جمعة شيخة محمد الهادي الطرابلسي ولم يمر وقت طويل حتى ظهر بالعراق ديوانان جديدان ديوان ابن الجزار السرقسطي ، وديوان ابن الجنان الأنصاري حققهما منجد مصطفى بهجت ... والقائمة طويلة .

وإذا نحن ألقينا نظرة على هذه النصوص وجدنا أغلبها – إن لم نقل كلها – من ذخائر الخزانات المغربية ، لكن استخراجها وتحقيقها ودراستها شاركت فيها جميع البلدان العربية وإسبانيا ، ممثلة في ثلة من أبنائها الباحثين في التراث المغربي والأندلسي ، وهو عمل مشروع وسعي مشكور ، لأن إحياء تراث الأندلس المسلمة أمر موكول إلى أبناء الأمة العربية والإسلامية كافة ، بالإضافة إلى أبناء الأندلس بعد أن تنكرت بلادهم لعروبتها .

وانضاف إلى ما ذكرنا من النصوص كتاب «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى» (١) لابن عاصم الغرناطي المتوفى ٨٥٧هـ . حققه وقدم له صلاح جرار من الأردن الشقيق ، علمًا أن هذا الكتاب بقي سنوات طويلة يئنّ فوق رفوف الخزانة الحسنية ، إلى أن قيض الله له محققًا اكتسب تجربة في دراسة وتحقيق التراث الأندلسي . ولاشك أن عمله هذا جاء في الوقت المناسب لسد ثغرة تاريخية كانت إلى عهد قريب تشكل حلقة مفقودة في سلسلة تاريخ الأندلس ، ويتعلق الأمر بالقرن التاسع الهجري – عصر المؤلف – كما يقول محمد بنشريفة «يعتبر القرن التاسع الهجري في الأندلس قرنًا غامضًا ومظلمًا ، فالمصادر التاريخية العربية فيه قليلة ، والروايات الإسلامية الموجودة حوله شحيحة ، ولعل من أسباب هذا انشغال أهل التدوين والتقييد بالفتن ،

وارتباكهم في تلك السنين الصعبة ، ثم ضياع الوثائق والمدونات في غمرة سقوط غرناطة وسواها» (١) وهو ما جعل أكثر المؤرخين - عربًا كانوا أم غربيين - يعتمدون الروايات القشتالية التي لا تسلم من التعصب الكنسي ضد كل ما هو مسلم وعربي ينتمي إلى إيبيريا .

وكان محمد بنشريفة قد أشاد بهذا الكتاب وبأهميته، بالنسبة إلى عصره ، قبل أن يحقق وينشر ، ومن ذلك قوله، «وإذا كنا لم نعثر بعد على كتاب الروض الإريض لابن عاصم فإن كتابه (جنة الرضا) الذي ظهر بالخزانة الحسنية العامرة يشتمل على الرواية العربية المفقودة حول فترة مضطربة ، هي فترة محمد التاسع و "دوله" الأربع مع ما يتخللها من دول غيره» (٢) .

وأهمية هذا الكتاب تعود إلى عدة عوامل - كما يقول محققه - منها (٤) :

١ - افتقار المكتبة الأندلسية إلى مصادر أدبية وتاريخية تغطي الفترة الزمنية التي يتصدى لها هذا الكتاب ، وهي الفترة الممتدة من أوائل القرن التاسع الهجري حتى منتصف العقد السادس منه .

٢ - إن هذا الكتاب يقدم معلومات تاريخية نادرة عن مملكة غرناطة النصرية في الحقبة الزمنية المشار إليها . ومما يزيد من قيمة هذه المعلومات أن ابن عاصم - مؤلف الكتاب - كان شاهد عيان للأحداث التي تصفها هذه المعلومات ، وكانت له مشاركة فاعلة في تلك الأحداث بسبب مكانته السياسية المرموقة .

٣ - يحتوي الكتاب على معلومات نادرة عن أعلام تلك الفترة من السلاطين والوزراء والقادة والأدباء مما لا تقع عليه في أي مصدر عربي آخر .

٤ - يشتمل الكتاب على جوانب كثيرة من سيرة المؤلف نفسه ، ويتحول في كثير من الأحيان إلى ما يشبه السيرة الذاتية في بعض صفحاته .

يضاف إلى هذه العوامل أن أهميته تكمن أيضًا لكونه يشكل خليطًا من المعارف والعلوم ، فهو كتاب في الأدب والتاريخ والأخلاق والسياسة والعقيدة ، رغم أن موضوعه الرئيسي هو المحن والابتلاءات التي يتعرض لها الأفراد والدول .

وأُضيفَ إلى هذا طريقة تقديمه للقراء والجهد الكبير الذي بذله المحقق في هذا العمل العلمي الذي يستحق كل تنويه وإشادة .

في البداية قدم المحقق هذا الكتاب بدراسة عدتها خمس وثمانون صفحة ، عالج فيها ثلاثة أمور أساسية :

١ - الأوضاع السياسية في عصر المؤلف انطلاقًا مما جاء في المصادر المختلفة ، بالإضافة إلى المعلومات الواردة في النص المحقق . كما استثمر المحقق جهود من سبقه في دراسة هذه الفترة التي كانت إلى عهد قريب شبه مجهولة في الدراسات العربية .

٢ - سيرة المؤلف ، وقد ركز في هذا المحور على العناصر الآتية : اسمه ولقبه ومولده ، ثم أسرته (بنو عاصم) وشيوخه وتلامذته فمكانته في نظر العلماء والمؤرخين ، وختم بإبداعه - الشعري والنثري . وآثاره العلمية ليقارنه بابن الخطيب السلماني .

٣ - كتاب جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى ، تناول فيه المصادر التي ذكرته ، ثم ظروف التأليف وأسبابه ومنهج المؤلف . وبعد ذلك تحدث عن الأصل المخطوط المعتمد في التحقيق بقوله : «اعتمدت في تحقيق كتاب جنة الرضا على نسخة فريدة مخطوطة موجودة بالخزانة الحسنية في الرباط وتحمل الرقم ٢٦٤٨» (٥) .

وعلى الرغم من أن التحقيق على نسخة وحيدة مغامرة لا تسلم من المخاطرة ، إلا أن المحقق وجد عزاءه في حسن خط الناسخ ووضوحه ، ووجود قدر من الاقتباسات من كتاب «جنة الرضا» في كتابي أزهار الرياض ونفح الطيب للمقري ، ثم توافر عدد غير قليل من المصادر التي اعتمدها ابن عاصم في تأليفه هذا . ويضاف إلى كل ذلك ألفة المحقق بلغة المؤلف التي استخدمها في هذا السفر الكبير ، إذ ساعدت هذه الألفة - بعد قراءة المخطوطة كاملة - على التغلب على صعوبة تبين الكلمات غير الواضحة النسخ (٦) .

وفي ختام هذا التقديم أوضح المحقق المنهج المتبع في قراءة النص وتحقيقه وضبطه وتخريجه .

وبعد هذا يأتي نص الكتاب المحقق في ثلاث عشرة وسبع مئة صفحة ، مما جعل المحقق يوزعه على ثلاثة أجزاء .

أما تسمية الكتاب بـ «جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى» فلعلها تعود ، في العمق ، إلى ما عرفته الأندلس – في عصر المؤلف – من أحداث مؤلمة كانت تنبئ بزوال حكم المسلمين بين كل آونة وأخرى . كأن المؤلف يريد أن يقدم العظة والعبرة لمواطنيه ومعاصريه مما حدث في أزمنة مختلفة ، وينبههم من الغفلة – كما جاء في مقدمة الكتاب» (٧) أما بعد «فإن في حوادث الأيام ، لأولي الأفهام اعتبارًا ، وفي طوارق الليالي ، لأرباب الهمم العوالي ، اختبارًا ، وفي مجاري الأقدار ، للذّوات الشريفة الأقدار استظهارًا ...» .

والمتتبع لصفحات الكتاب يجد المؤلف يتناول ما كانت تمر به الأندلس من الرزايا والبلايا ، أو كما قال ابن مخلوف إن ابن عاصم ألف هذا الكتاب «يندب فيه بلاد الأندلس ويحرك عزائم الإسلام لنصرة الدين لما استولى العدو على غالب تلك البلاد» (٨) .

ويستخلص المحقق من مقدمة الكتاب أن ابن عاصم كان في ضيق ومعاناة دفعته إلى تأليف كتابه ليكون الكتاب مرشداً له ولمن هو في حالة للصبر على مضض الحوادث (٩) . معنى هذا أن عنوان الكتاب يعكس ما ذهب إليه صاحبه من ضرورة تفويض الأمور لما يُقدره الله ويقضيه ، مع الاعتماد على العمل أولاً ، ثم التوكُّل ثانيًا .

بذلك فإن «جنة الرضا ...» يأتي في سلسلة الكتب التي تناولت الشدائد والمحن ، من أمثال كتاب الفرج بعد الشدة للقاضي التنوخي ، والفرج بعد الشدة لابن أبي الدنيا ، وكتاب المحن لأبي العرب محمد بن تميم التميمي ...

أما منهج الكتاب فيتمثل في مقدمة وست صور ، فالمقدمة تتكون من قسمين : الأول مقدمة للكتاب ، تناول فيه المؤلف دواعي التأليف ومنهج الكتاب وأقسامه . والثاني مقدمة لموضوع المحن التي تصيب الإنسان والوسائل الكفيلة لمواجهتها والتغلب عليها .

والصور الست للابتلاء التي استند إليها في التقسيم هي بمثابة أبواب الكتاب أو فصوله ، وهي :

- الصورة الأولى : أن يكون الابتلاء في المقتنيات على النفوس كالمال والجاه وما أشبه ذلك متوقعًا في الاستقبال وليس بواقع في الحال .
- الصورة الثانية : أن يكون الابتلاء فيها واقعًا في الحال وهو مأمول الجبر ومرجو الزوال .
- الصورة الثالثة : أن يكون الابتلاء فيها واقعًا في الحال إلا أنه غير مأمول الجبر ولا مرجو الزوال .
- الصورة الرابعة : أن يكون في النفوس أو ما لحق بها من أعضاء وقوى متوقعًا في الاستقبال وليس بواقع في الحال .
- الصورة الخامسة : أن يكون الابتلاء فيها في الحال وهو مع ذلك مرجو الزوال .
- الصورة السادسة : أن يكون الابتلاء فيها واقعًا في الحال إلاّ أنه غير مرجو الارتفاع والزوال .

وعقب كل صورة من الصور الست تأتي خاتمة لها سماها المؤلف «خاتمة الصورة» جعلها وقفًا على سوق حوادث من عصره في غرناطة مما يلائم الصورة ويقتضيه الكلام .

وعلل المؤلف سبب إيراده خاتمة لكل صورة من الصور الست بقوله : (١٠) «وإنما القصد بذلك عدم الإملال ، وأن يكون الناظر في الكتاب ينتقل من حال إلى حال» .

وبعد خاتمة الصورة يورد فقرة بمثابة تذييل لها ، يطلق عليها «تتميم» .

ومن يمعن النظر في هذا التقسيم يجد أن المؤلف سعى إلى وضع خلاصة ما وصل إليه من عرض كل صورة في خدمة خاتمة الصورة (١١) . وفي هذا اللون من الترتيب أثر واضح لتأثره بمنهج ابن حزم في كتابه طوق الحمامة ، حيث نجد أخبارًا وحوادث تاريخية – مما وقع في الأندلس – تشكل القاسم المشترك في منهج المؤلفين .

وحين ننتقل إلى النص المحقق ، نجد جهد المحقق واضحًا للعيان ، في محاولته الموفقة لتقريب النص الأصلي للقراء ضبطًا ، وتحقيقًا ، ومقارنة ، وإحالة ، إذ شكل النص شكلاً جيداً وبالأخص الكلمات الصعبة ، كما ضبطه بعلامات الوصل والفصل . وفي الهوامش والإحالات شروح للكلمات الصعبة وتخريج للآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، والنصوص المختلفة التي استشهد بها المؤلف أو اقتبسها ، كما ترجم للأعلام المذكورة في المتن ترجمة مركزة مع الإحالة على المصادر والمراجع التي تضم ترجمة أو إشارة للمترجم له . وبالإضافة إلى ذلك فإن المحقق

يشير ، في الهوامش ، إلى بعض الأخطاء الإملائية أو النحوية أو اللغوية في النص الأصلي . وقد يوضح الخلاف بين النص الأصلي وما وقف عليه من نُقول منه في المصادر المختلفة أو العكس .

هذا ؛ وبعد الفراغ من تحقيق النص صنع المحقق مجموعة من الفهارس العلمية التي تيسر التواصل بين القارئ والنص وتسهل عملية البحث وهي :

- فهرس الآيات القرآنية .
- فهرس الأحاديث النبوية .
- فهرس الأمثال والأقوال والحكم .
- فهرس الأشعار .
- فهرس أسماء الأشخاص .
- فهرس أسماء القبائل والجماعات .
- فهرس أسماء الأماكن .
- فهرس أسماء الكتب الواردة في المتن .
- فهرس مصادر التحقيق .
- فهرس المحتويات .

وهذه الفهارس – وحدها – استغرقت خمس عشرة ومئتي صفحة الأمر الذي يدل على أهميتها ، وخصوصاً إذا علمنا أن نص الكتاب يضم ثمان مئة بيت شعري مما استشهد به المؤلف، بالإضافة إلى تسعين ومئة آية قرآنية، وأربعة وخمسين ومئة حديث شريف ، وثمانية عشر ومئة مثل وحكمة .

ويكفي للمحقق فخراً أنه استعان – في عمله هذا – بثمانية وستين وثلاث مئة مصدر ومرجع عربي وأجنبي ، فيها المخطوط والمطبوع المتداول والنادر ...

ذلكم هو العمل العلمي الذي قدمه صلاح جرار وأخرجته دار البشير بعمان في حلة سيراء ، وهو عمل سيستفيد منه الباحثون المهتمون بالأندلسيات ، على اختلاف مشارب ثقافتهم ، لأنه ، كما سبقت الإشارة – كتاب أدب وتاريخ وأخلاق وفلسفة ، رغم أن المؤلف لم يكن يسعى إلى الخوض في هذه الفنون مباشرة بقدر ما كان يأتي بالاستشهادات أثناء استطراداته .

وفي الأخير أشير إلى أن ما قمت به في هذا العرض هو مجرد تقديم الكتاب بغية التعريف بموضوعه وأهميته في سياقه التاريخي ، على أساس أنني سأعود إليه مرة أخرى – إن شاء الله – بعد قراءة متأنية فاحصة .

الإحالات

١ – صدر عن دار البشير ، عمان – الأردن ، ط أولى ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م في ثلاثة أجزاء مكونة من ٩٣٠ صفحة من القطع المتوسط .

٢ – البسطي آخر شعراء الأندلس للدكتور محمد بنشريفة ص ٩ ، ط دار الغرب الإسلامي ١٩٨٥ .

٣ – ديوان أبي الحسين بن فركون تحقيق محمد بنشريفة – مقدمة المحقق – ص ٨ ، ط . الرباط ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

٤ – جنة الرضا : ١/ ٥ مقدمة المحقق – بتصرف أحيانا.

٥ – نفسه : ١ / ٨٢ .

٦ – نفسه : ١ / ٨٣ .

٧ – نفسه : ١ / ٩٤ .

٨ – شجرة النور الزكية : ١ / ٢٤٨ – ٢٤٩ .

٩ – انظر مقدمة المحقق ص ٧٥ – ٧٧ .

١٠– جنة الرضا : ١ / ٢٢٧ .

١١– نفسه – مقدمة المحقق – ١ / ٨٠ .

كتاب التذكرة الهروية في الحيل الحربية
لعلي بن أبي بكر الهروي (١) المتوفى سنة ٦١١هـ

إبراهيم السامرائي
كلية الآداب - جامعة صنعاء

الهروي ، على بن أبي بكر / كتاب التذكرة الهروية في الحيل الحربية .- بورسعيد : مكتبة الثقافة الدينية ، ؟

هذه رسالة لطيفة وقفتُ عليها منذ سنين في نشرة مصرية لم تنل عناية خاصة من ناشرها . وقد عرفت أن نشرة «نقدية» صنّفها أحد المستشرقين ، وقام بنشرها المعهد الفرنسي في دمشق ، ولم أستطع الحصول عليها ، ولكني وجدتها أخيرًا مصوَّرة في هذه النشرة المشار إليها .

أقول : إن هذه النشرة «الثالثة التي قامت بها مكتبة الثقافة الدينية ببورسعيد» هي مصورة «نشرة المعهد الفرنسي» ، بل إنها نشرة «مزوّرة مسروقة» فقد حذف أصحاب «مكتبة الثقافة الدينية ببورسعيد» اسم النشرة الأصل ، وهي «نشرة المعهد الفرنسي» ، وطمسوا على اسم المحقق المستشرق العالم ....

وهذا هو دأب جماعة من الناشرين في دنيا العرب «المسلمين» ، وحديث التزوير والسرقة والسلخ حديث طويل ذو شجون .

وليست كلمتي هذه تثني هؤلاء السرّاق المَهَرة عن سوء ما يقترفون في العلم ، ولم يكن الدين الحنيف برادع لهم وإن أساءوا إليه بما اجترحوا من أسماء لهم .

أنتهي من هذه لأدخل في هذه الرسالة الجميلة بصنعة محققها المستشرق التي قرأتها فكان لي فيها وقفات مفيدة فأقول :

١ - جاء في فاتحة «الرسالة» في الصفحة الخامسة قول المؤلف :

«وبعد فإنه لمّا سألني الأخ الصالح والخل الناصح أن أصنّف له كتابًا وأبوِّبه أبًا» .

قلتُ : وتمام العبارة أن تكون : « .... وأبوِّبه أبوابًا» .

وأنا أتساءل : أكان هذا من أثر التصوير أم كان ممّا قصّر فيه المحقق ؟

٢ - وجاء في هذه الصفحة أيضًا :

« .... وما يعتدّونه لكشف الكروب ، وما يدّخرونه لرفع المشكلات .....» .

قلتُ : إن الفعل «يدّخرونه» مزيد أصله بناء «افتَعَل» ولما كانت فاء الفعل ذالاً أبدلت تاء «افتَعل» دالاً ، وهذه الدال التي أصلها تاء إما أن تُغيَّر إلى الذال لتناسب الأولى وهي فاء الفعل ، وتدغَم فيها كما وقع في هذه

العبارة ، وإما أن تُغيّر الذال ، وهي فاء الفعل إلى دال وتدغم الدال في الدال فيكون الفعل «ادَّخَرَ» .

وهذه الصيغة بالدال المدغمة هي الغالبة الكثيرة و«الادّخار» أكثر استعمالاً من «الاذّخار» .

٣ – وجاء في الصفحة السادسة :

«الباب الرابع عشر في لقاء العدو وصفة المنازل ومكائد الحرب» .

قلتُ : وصواب «مكائد» هو «مكايد» بالياء ولا يهمز .

وهذه مسألة صرفية لغوية ، وعدم إبدال الياء همزة راجع إلى أن الياء أصل وليست زائدة فهي كالياء في «معايش» و «مصايد» ، وإنما تبدل الياء الزائدة التي جيء بها لصيغة «فعيلة» نحو : حديقة وجمعها «حدائق» . وقد عيبَ على نافع المدني قراءته «وجعلنا لكم فيها معائش» . سورة الأعراف .

وقد تكرّر هذا التجاوز مرتين في الصفحة السابعة ، ومرّة أخرى في الصفحة السابعة عشرة .

٤ – وجاء في الصفحة السابعة :

«الباب العشرون في ضروب المصاف ومكائد الحرب ...» .

قلتُ : و«المصاف» من المصطلح الذي استحدث في العصور العباسية المتأخرة ، ويراد به نصب آلة الحرب من خيام وغيرها .

٥ – وجاء في الصفحة الثامنة :

« ... ويشمّر عن ساق اجتهاده في حماية بيضة الإسلام ...» .

قلتُ : والذي نعرفه أن «التشمير» عن «ساعد» اليد لا عن «ساق» الرجل . وقد يكون هذا التغيير قد طرأ في العربية المتأخرة ، أو أنه من فعل الناسخ .

٦ – وجاء في الصفحة الحادية عشر :

«وليحذر [السلطان] من استدامة الوالي في الثغور ... فإن ذلك (يؤدّي) الرعيّة أنه مستبدّ ...» .

قلتُ : لعل الفعل «يؤدّي» في غير موضعه ، والذي أراه أن الأصل : «يُؤذِن» الرعيّة ...

٧ – وجاء في هذه الصفحة أيضاً :

« .... وربّما كاتَبَ [الوالي] أصحاب الأطراف .... فأَفسدَ حال الملك وخالفَ عليه رعيّته ...» .

قلتُ : والوجه أن تكون العبارة : «فأفسدَ حال المَلك ...» بالبناء للمعلوم .

٨ – وجاء في هذه الصفحة أيضاً :

« ... فليحذرْ غائلة ذلك اللهم إلا أن كان واثقًا .....» .

قلتُ : والصواب : «اللّهم إلاّ "إنْ" كان ...» ولا وجه لـ «أن المصدرية» .

٩ – وجاء في الصفحة الثانية عشرة :

« ... فان الطباع ينفعل بعضها لبعض ...» .

قلتُ : إن كلمة «طباع» مفرد لا جمع ، ولكن هذا تجاوز حَدَث في هذه العصور المتأخرة واستمر إلى عصرنا هذا . ولعل سبب هذا شيوع «فِعال» بكسر الفاء في أبنية جمع التكسير في الأسماء والصفات نحو : «رِجال وكِبار» ، واستعمال «طباع» في هذه العبارة هو بمعنى جمع «طَبْع» ولم يرد هذا في فصيح العربية ، فجمع «طَبْع» على «أطباع» مثل نَهْر وأنهار .

وجاء الفعل في هذه العبارة «ينفعل بعضها لبعض» .

قلتُ : ولعل الأصل : «ينتقل» كما ورد في إحدى النسخ المخطوطة كما أثبت المحقق في حاشيته .

١٠ – وجاء في هذه الصفحة أيضاً :

«ويجب على السلطان أن ينزه مجلسه من أهل الفساد ...» .

قلتُ : إن «السلطان» في الأصل مصدر ، ولكنه تحوّل في هذه العصور المتأخرة إلى دلالة «صاحب السلطان» أي المَلِك ، ثم شاع في عصور الدويلات التي أعقبت زوال الدولة العباسية .

١١ – وجاء في الصفحة الثالثة عشرة :

«ويجب على السلطان إذا أدهمه أمر أو قصده عدوّ أو ...» .

قلتُ : الصواب : «دَهَمَه» أمر . والفعل الثلاثيّ متعدّ . ولعل زيادة الفعل جدّت في العصور المتأخرة ، أو كان ذلك من فعل الناسخ للأصل المخطوط . وقد تكرر هذا في الصفحة الثانية والعشرين كما أثبت المحقق : «بل يُدهمهم ...» .

١٢ – وجاء فيها أيضاً :

« ... ولا يهمل [أي السلطان] أمر المشورة ... ولا يحتقر بصورة ذميمة صاحبها ذو مكرٍ ورأيٍ وعقلٍ ...» .

أقول : وسلامة العبارة تقتضي أن يكون «النظم» على النحو الآتي :

«... ولا يحتقر بصورة ذميمة صاحبها [وهو] ذو مكرٍ ورأيٍ ....» .

١٣ – وجاء فيها أيضاً :

«وليحذر [أي السلطان] اختلاف الآراء فإن ذلك يُنتج عدم النظام ....» .

قلتُ : إن الفعل «يُنتج» الرباعيّ بمعنى «يُولِّد أو يُسبِّب» ، وهذا معنىً جديد ، ذلك أن الفعل في فصيح العربية ثلاثي «نَتَجَ» وهو خاص بالناقة ، وهو فعل قاصر ، يقال : نَتَجتِ الناقة ، ويرد كثيرًا بالبناء للمفعول وإن كان المعنى بناءه للمعلوم ، فقالوا : نُتِجَتِ الناقة . و «النتاج» ما تلده الناقة .

وقد حوّل المعربون هذه الدالة فأطلقوها على غير ما تأتي به الناقة إلى الأمور الأخرى ، واقتضى هذا إلى جعلها تتجاوز إلى المفعول فزادوا الهمزة . و «الإنتاج» في العربية المعاصرة معروف ، ودلالته عامة غير مقيدة بشيء . وكأن هذا التحوّل قد بدأ في العصور العباسية المتأخرة .

١٤ – وجاء فيها كذلك :

«... ويستعمل [أي السلطان] في جميع أموره الجدّ والاجتهاد فإنّ به ثبات الملك ، وعليه [أي السلطان] بالحزم فيه يبلغ المقاصد ....» .

قلتُ : إن الوجه في العبارة أن يقال : «... فإنّ «بهما» [أي الجدّ والاجتهاد] . وكذلك : «... وعليه بالحزم "فبه" يبلغ المقاصد ....» .

١٥ – وجاء فيها كذلك :

«.... والرأي يُريه [أي السلطان] عاقبة الأمور في مباديها ... » .

قلتُ : والصواب : مبادئها (بالهمز) . إن الذي جعل المحقق يثبت «مباديها» بتسهيل الهمزة ياءً ، هو أنه رأى الكلمة بالياء في الأصل المخطوط .

أقول : وكأن تسهيل الهمزة هو المتّبع الكثير في «النساخة» ، وقلما تجد مخطوطًا ظهر فيه الهمز ، ومن أجل ذلك جاء محقق المخطوط ونقل ماراه ، ولم يفطن إلى الصواب إلا القليل من المحققين ممن يملكون شيئاً من اللغة .

١٦ – وجاء فيها أيضاً :

«... فإنّ الجاهل إذا أرَتْه نفسه شيئاً بادر إليه ولم يفكّر في عاقبته ، والحازم العاقل إذا أرَتْه نفسه شيئاً أفكَرَ فيه ولم يقدِم عليه إلا ...» .

قلتُ : إن الفعل «فكّر» بالتضعيف صحيح ومعروف ، غير أن المعربين الأقدمين عرفوا المهموز لغرض التعدية أكثر في استعمالهم من المضعف فقالوا : أصلَحَ ، ولم يقولوا صلّح ، وقالوا : أعملَ ولم يقولوا : عَملَّ ، وقالوا : أفهَمَ ولم يقولوا : فَهَّم ، إلا أن يكون في التضعيف فائدة خاصة تتجاوز التعدية .

إن استقراء بناء «أفعَل» المزيد بالهمزة في لغة التنزيل يدلّ على هذا فهو مستفيض ، وهو أكثر مما ورد على «فَعَّل» المضاعف ، ولعل هذا شيء دَرَجَت عليه العربية .

والذي أراه إن وجه العبارة هو : «ولم يُفكِر في عاقبته» والفعل «أفكَرَ» في صيغة الماضي ، ويدلّ على هذا مجيء «أفكَرَ» في آخر هذه العبارة .

١٧ – وجاء في الصفحة الخامسة عشرة :

«... وليظهر له [أي لرسول السلطان] البأس والنجدة ،، فإنهُ لابدَّ وأن يشرح له أحوال صاحبه ...» .

أقول : والصواب : « ... فإنّه لابد أن يشرح له ...» وزيادة الواو بعد «لابد» من الغلط الذي شاع في عربية العصور المتأخرة ، ومازال هذا في العربية المعاصرة ، يقال كثيرًا في عصرنا : لابّد وأن يكون في الأمر مصلحة ...

والصواب : لابّد أن يكون ....

١٨ – وجاء فيها أيضاً :

«... فقلَّ ما تزول دولة أو يذهب ملك أو ...» .

قلتُ : تأتي «ما» هذه المصدرية بعد الفعل «قلّ» و «طال» وغيرهما ، وهي حرف فتوصل رسمًا بالفعل قبلها فنقول : قلّما وطالما . ولا تفصل «ما» عما قبلها إلا أن تكون اسمًا ، يقال : قلّ ما يُراد به الخير أي قل الذي يراد به الخير .

١٩ – وجاء فيها أيضاً :

«... ويرسلهم [أي الجواسيس] شرقًا وغربًا وقربًا ليُطالعوه بالأخبار» .

أقول : وتمام العبارة : «ويرسلهم شرقًا وغربًا ، "وبُعدًا" وقُربًا ...» .

٢٠ – وجاء في الصفحة السادسة عشرة :

«... وليكتُم أمره [أي الجاسوس] ويتجسّس ويُخفِ نفسه ويتجسّس ...» .

أقول : والفعل الأخير هو يتحسّس» بالحاء المهملة ، وصاحب العبارة يُناسب بين التجسُّس والتحسُّس ، والتناسب مقصود .

٢١ – وجاء فيها أيضًا :

«... ويجب على السلطان أن ينظر في حال الرعيّة ... ولا يُماطلهم فيضعفوا ويُوغِّر قلوبهم عليه ...» .

أقول : لم يستعمل بناء المضاعف في مادة (و غ ر) بل المعروف الفصيح هو المهموز «أوغَرَ» ومضارعه «يُوغِر» .

ولي أن أقول : لو أن المحقق المستشرق قد رأى هذا الفعل مشدّدًا في الأصل المخطوط لكان له أن يصلحه فيجعله رباعيًا بزيادة الهمزة ، ويحمل ذلك على عبث الناسخ .

٢٢ – وجاء فيها أيضًا :

«... ولا يهمل أمر الصنّاع والمقدّمين كالمعمارية والمنجنيقية والجرخية والزرّاقين والتّراسة والنقّابين...»

قلت : إن هؤلاء «الصنّاع» وهؤلاء «المقدّمين» هم تمام آل الحرب في العصور العباسية المتأخرة .

إن «المعمارية» اسم جمع لـ «معمار» وهم أهل البناء والإشادة ، و«المنجنيقيّة» جماعة من يرمون «المنجنيق» وهو آلة الحرب التي يُرمى بما يحرق ويُدمّر كالنفط ونحوه . وأما «الجرخية» فهم الذين يعالجون «الجرخ» وهي كلمة دخيلة على هيئة مركبة . و«الزرّاقين» الذين يزرقون السهام والقسي والنُشّاب . وأما «التّراسة» فهم حملة التروس يتحصّنون بها ، و«النقّابون» الذين ينقّبون الجدران والحصون يمهّدون بذلك للمحاربين حملة السلاح .

وجملة هذا من تمام آلة الحرب في الأزمنة القديمة .

٢٣ – وجاء في الصفحة السابعة عشرة :

«ويجب على السلطان أن يتفقّد خزائن السلاح وما فيها من السيوف والرماح والكبورة والزَّرَد والتِّراس والعُدَد والجنويات والجواشن والجفتيات وجياد الطوارق والحراب والقسيّ وأوتارها والجروخ والزيارات والحسك وآلة النقوب والكلاليب للحروب وأخشاب المنجنيقات والعرادات وحبال القنّب ، وكل ما يطلّب من آلة الحرب وكثرة الحجارة الكبار والكفيّات الصغار والحَلَق والمسامير والزفت والقار والكلس وجلود الجواميس والجمال والبقر والأوعال والنفط وآلة القدور وحوائجها» .

أقول : وجملة هذا تؤلّف آلة الحرب في تلك الأحقاب وفيها من الكلم ما نعرفه وندرك دلالته ومازال شيء منه باقيًا . على أن طائفة من هذه المواد تدخل في باب الغريب الدخيل ، وكل ذلك يندرج في حيّز الكلم الفني القديم .

ومن هنا ، تقدّم هذه الرسالة اللطيفة ضربًا من تطور حضاري عرفته العربية . ثم إننا نجد فيها مادة أخرى تظهر لنا اهتمام أولو الأمر من الملوك والولاة بحاجة ذلك التطور الحضاري من مواد العيش وما يتصل بها .

٢٤ – وهذا ما نقرؤه في هذه الصفحة أيضًا :

«وليعتبره [أي السلطان] الأهراء وما فيها من الحبوب كالحنطة والشعير والعَدَس والجُلبان وبيوت الأَتبان، ويعتبر المخازن وما فيها من الملح والأسمان والزيوت والأدهان وكثرة الشحوم والنمكسود من اللحوم والكبود المملّحة والأطراف المشرّحة ...» .

٢٥ – وجاء في هذه الصفحة أيضًا :

«... وربّما قال بعض الجهال : وما الحاجة إلى ما قالَ وذَكَرَ وسَطَرَ وكتَبَ وأكثرَ ، فقد رأينا من كان حصنهم منيعًا قويًا وقتالهم شديدًا فلما أعوزهم الملح تركوه وخرجوا منه "أدلّةً" وسلّموه ...» .

قلتُ : هذا ما أثبته المحقق المجتهد ، وكأنه قد غُمَّ عليه فحوى الكلام ، ذلك أنه أثبت «أدلّة» وليس لها مكان لأنها «أذلّة» بالذال المعجمة .

٢٦ – وجاء في هذه الصفحة كذلك :

«وإذا بلغه [أي السلطان] أن العدوّ الكافر يقصده ، ويعلم أنه قادر على لقائه فلينجرِدْ للقائه ، وليبادر بالخروج من بلده بجيشه وحشده ، ولتَتَقدَّمْه الجواسيس الثقاة [كذا] ليكشفوا له الأخبار ...» .

أقول : وهذا يظهر واجب السلطان الحاكم وما يلزمه عمله في الاستعداد للحرب . وقد جاء فيه : «الجواسيس الثقاة» .

و «الثقاة» جمع «ثقة»، وقد أشكل هذا على المحقق بدليل أنه رسمها بالتاء المعقودة، وكأن «ثقاة» مثل «حُماة وأباة»، وليس الأمر كذلك فهي جمع مؤنث بالألف والتاء نظير «ثَمَرات» و «زَهَرات»، والتاء فيها تاء مبسوطة. وأن «حُماة» و «أُباة» جمعا «حامٍ» و «أبيّ»، والجمع تكسير ووزنه «فُعَلة». وليس هذا مثل ذاك! فالصواب: «ثقات» بالتاء المبسوطة جمع «ثقة».

٢٧ - وجاء في الصفحة الثامنة عشرة:

«... ولا يمكِّنهم [أي لا يُمكِّن السلطان أعداءه] من أن يتّسعوا في الأرض ويمتاروا بالعلوفة، وليكمن لهم بالمكائد وينصب لهم المصائد ...».

أقول: لعلّ الصواب «يمتاروا» بالراء من «الميرة» وهي ما يحتاج إليه من الحبوب والعلف. و«العلوفة» هنا هي العَلَف من الشعير والتبن.

وحقيقة «العَلوفة» بفتح العين هي الشاء التي تُعلَف، وكأنها تحوّلت إلى المصدر فضمَّت العين.

وأما «المكائد» بالهمز فقد سبق الكلام عليها.

ثم نجد «المصائد» بالهمز، وصوابها «المصايد» بالياء، ولا تبدل هذه همزة لأصالتها، وقد سبق هذا في الكلام على «مكايد».

٢٨ - وجاء في لصق هذا الكلام قول المؤلف:

«... فلابد وأن يبلغ العدوّ ذلك ... فلابدّ وأن يبقى في القلوب أثَر ...».

قلتُ: وقد مرّ الكلام على زيادة الواو بعد «لابد»، وزيادتها خطأ شائع.

٢٩ - وجاء في الصفحة التاسعة عشرة:

«وليحذر [السلطان] أن يُنفذ سريّة مع غير خبير ولا عالم بالحرب، وليكن المقدّم عليها كالقانص الحاذق الذي إن وَجَد طمعًا له في صيد أهدَف إليه ...».

قلتُ: «المقدّم» رتبة في الجيش وهو صاحب السريّة. وكأن الجيوش العربية في عصرنا استعارت مرتبة «المقدّم» القديمة فأجيت المصطلح القديم.

ثم إن الفعل «أهدَف» المزيد بالهمزة مولّد عُرف في «العربية العباسية»، والأصل الفصيح الثلاثيّ «هَدَف».

٣٠ - وجاء فيها أيضًا:

«وليكن المقدّم عليها [أي السريّة] ذا رأيي [كذا] وعقل ...».

أقول: والصواب: «ذا رأيٍ»، وكأن هذا من الخطأ المطبعي.

٣١ - وجاء في هذه الصفحة أيضًا:

«... والسريّة تفرَّقت وسَرَت وجرى ما شاع خبره وذاع ذكره، وانكسر السرية وَمَن عظيم [وكذا] وخطب جسيم».

قلتُ: كأنّ النص قد عرض له في قول المؤلف: «وانكسر السريّة وَمَن ...» فساد في البناء ربما أتى به الفعل «انكسر» الذي لابد أن يكون مصحّفًا.

٣٢ - وجاء في الصفحة العشرين:

«قال الإسكندر: إنني لم أحضر حربًا إلاّ وعلمت من وزن نفسي ...».

قلتُ: إن مجيء الواو بعد «إلاّ» هو من أساليب العربية في العصور المتأخرة، والصواب عدمها، قال تعالى: ﴿ وما يأتيهم من رسول إلاّ كانوا به يستهزئون ﴾.

٣٣ - وجاء في الصفحة الحادية والعشرين:

«... وليرعب قلب العدوّ بنشر الرايات ودَقّ الكوسات وتعير البوقات وأصوات الطبول والنقّارات ...».

أقول: كأن هذا كله يؤلف جملة الآلات الصوتية من الموسيقا التي تمارس لدى العساكر، ومنها «الكوسات» وكأنها مما يضرب بعضه ببعض فيحدث صوت عالٍ.

٣٤ - وجاء في الصفحة الثانية والعشرين:

«... ولينظر إلى مقدّمي عسكر عدوّه فليجعل تجاهه من الرجال الجياد والفرسان الأجواد، كلُّ كفوٌ لكفؤه [كذا]».

أقول: وصواب الرسم: «كلُّ كُفءٍ لكُفْئِهِ ...».

٣٥ - وجاء في الصفحة الثالثة والعشرين:

«... ولعلّ يجد فرصة ينتهزها ...».

قلتُ: والصواب: «ولعلّه يجد ...».

٣٦ - وجاء في الصفحة الرابعة والعشرين:

«... وتفتر هِمَمُهم وتختلف أراءهم [كذا]».

أقول: والصواب: «... وتختلف آراؤهم ...».

خاتمة

هذه وقفات عدة اجتزئ بها عن مسائل أخرى أحسبها من الخطأ المطبعي.

الهوامش

١ – هو علي بن أبي بكر بن علي الهروي ، أبو الحسن : رحالة ، مؤرخ ، أصله من هراة ، ومولده بالموصل . طاف البلاد ، وتوفي بحلب . وكان له فيها رباط ، قال المنذري : كان يكتب على الحيطان ، وقلما يخلو موضع مشهور من مدينة أو غيرها إلاّ فيه خطّه ، حتى ذكر بعض رؤساء الغزاة البحرية أنهم دخلوا البحر الملح إلى موضع وجدوا في برّه حائطًا وعليه خطه . من كتبه «الإشارات إلى معرفة الزيارات – ط» و «الخطب الهروية – خ» ، و «التذكرة الهروية» و «كتاب رحلته – خ» .
انظر : ابن خلكان ١ / ٣٤٦ ، والتكملة لوفيات النقلة – خ – الجزء السابع والعشرون ، وابن الوردي ٣ / ١٣٢ وفيه :
«كانت له يد في الشعبذة والسيمياء والجبل ، وطاف أكثر المعمور» . و «نهر الذهب» ٢ / ٢٩٣ . وفيه ما كتبه على قبره يصف نفسه : «عاش غريبًا ومات وحيدًا ، لا صديق يرثيه ، ولا خليل يبكيه ، ولا أهل يزورونه ، ولا إخوان يقصدونه ، ولا ولد يطلبه ، ولا زوجة تندبه ، سلكت القفار ، وطفت الديار ، وركبت البحار ، ورأيت الآثار ، وسافرت البلاد ، وعاشرت العباد فلم أر صديقًا صادقًا ولا رفيقًا موافقًا ، فمن قرأ هذا الخط فلا يغتر بأحد قط» .
و «آداب اللغة» ٣ / ٨٧ ، والكتبخانة ٥ / ٥٨ .
عن «الأعلام» للزركلي .

نشأة الكتابة في الجزيرة العربية لمجيد خان

عبدالعزيز بن سعود الغزي

أستاذ مساعد في قسم الآثار والمتاحف – كلية الآداب
جامعة الملك سعود – الرياض

خان ، مجيد / نشأة وتطور الكتابة في الجزيرة العربية ترجمة عبدالرحمن علي الزهراني .- الرياض : وزارة المعارف ، الإدارة العامة للآثار والمتاحف ، ١٤١٣هـ ، ٣١ + ٢٩ + ١٢ لوحة .

لابد من تسجيل الشكر للدكتور مجيد خان على محاولته تطبيق نظرية خاصة بنشأة الكتابة على البدايات الأولى للكتابة في المملكة العربية السعودية من خلال التمعّن في دراسة الرسوم والنقوش الصخرية ، وهي بلاشك محاولة لم يطرقها الكثير ممن لهم اهتمامات بالرسوم الصخرية أو نشأة الكتابة في الجزيرة العربية ، أما النظرية في حد ذاتها والقائلة إن الكتابة في الجزيرة العربية قد تطورت من الرسوم الصخرية فقد نادى بها أخرون خلال العقود الماضية .

يذكر المؤلف في (ص ٥) أن الكتاب كان في الأصل جزءًا صغيراً من رسالة قدمها عام ١٩٨٨م إلى جامعة سوث هامبتون "Southampton" في المملكة المتحدة لنيل درجة الدكتوراه ، ثم أضاف إليه مواداً جديدة حصل عليها خلال مشاركته في أعمال المسح الشامل للنقوش والرسوم الصخرية الذي تنفذه إدارة الآثار والمتاحف السعودية . ويشتمل الكتاب على نص كتب أصلاً باللغة الإنجليزية في ست وعشرين صفحة . كما يحتوي على ترجمة للنص الإنجليزي إلى اللغة العربية تقع في إحدى وثلاثين صفحة ، بالإضافة إلى اثنتين وعشرين لوحة تحمل أشكالاً توضيحية .

وتتلخص فكرة الكتاب في اعتبار الرسوم الصخرية في المملكة العربية السعودية نوعاً من أنواع الكتابة ، وليست كما تقول الأبحاث السابقة ، على قلتها ، إنها مجرد فن مارسه أبناء البادية . وعليه فإنه يعدّ الرسوم الصخرية القديمة ذات الأشكال الغامضة الأساس الذي تطور إلى نوع من أنواع الكتابة التصويرية والتي تطورت فيما بعد إلى الكتابة التصويرية الرمزية (ص ٧) ، والأساس الذي منه نشأت الأبجدية العربية وخاصة «الثمودية» . ومن ثم يعدّ المؤلف الثمودية أقدم الأبجديات في شبه الجزيرة العربية ، والأصل الذي تفرع عنه الخط المسند الجنوبي (ص ٢٢) . وكنتيجة لذلك يعتقد المؤلف أن الكتابة في الجزيرة العربية تطورت عن أصول من داخل الجزيرة العربية ، وينفي تأثرها بالكتابات التي نشأت خارجها ، مثل الكتابة ما قبل السينائية والفينيقية ؛ بل يعتقد أن الجميع تطور عن أصل واحد أطلق عليه اسم «ما قبل البدوية» (ص ٢٢) .

والفكرة المذكورة أعلاه تناقض جميع الدراسات السابقة لها والمتعلقة بتطور خطوط الكتابة داخل شبه الجزيرة العربية (عن تلك الدراسات ، انظر : جواد علي ، المفصل في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، الجزء الثامن . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٧٨ ، ص ٢٠٢ وما بعدها ؛ وانظر أيضاً ، رمزي بعلبكي ، الكتابة العربية

والسامية . بيروت : دار العلم للملايين ، ١٩٨١م ، ص ١٧ وما بعدها) ، كما أنها تناقض تمامًا الدراسات التي نشرت قبل كتاب المؤلف ، والتي تناقش موضوع الرسوم والنقوش الصخرية في المملكة العربية السعودية وخاصة دراسات صموئيل أناتي "S. Anati, the Rock Art of Central Arabia . Louvain-Leuven : Institut Orienatliste, 1968-1972" التي نشر منها أربعة مجلدات قدم فيها تصنيفًا فنيًا زمنيًا للرسوم الصخرية خرج منه بنظرية مفادها أن الرسوم الصخرية هي الإنتاج الفني للقبائل البدوية ، ولذا فإن دراستها تُعدّ وسيلة من وسائل معرفة هجرات القبائل من الجنوب إلى الشمال ، محاولاً بذلك ربط تلك الهجرات بالقبائل التي وردت أسماؤها في التوراة ، وإيجاد تسلسل زمني يلائم تلك الهجرات على ضوء التصنيف الفني الزمني للرسوم الصخرية .

وعلى الرغم من صعوبة استيعاب الفكرة المطروحة في الكتاب سالف الذكر ، على الأقل في الوقت الحاضر ، إلا أنني لا أستطيع نفي احتمالاتها أو صحتها ، فلقد حاول المؤلف إيجاد تفسير لظاهرة الرسوم الصخرية ، وقدم نماذج من المرحلة الرابعة التي يعتقد أن الخط الثمودي نشأ منها في حدود ١٥٠٠ - ١٢٠٠ قبل الميلاد (ص٢١) ، ومنه تطورت الخطوط الأخرى في شبه الجزيرة العربية . ولكنني أعتقد ، على الرغم مما سبق ذكره ، أن محاولة كهذه تحتاج لجهود أكبر مما بُذل في الكتاب الذي بين يدينا ، وعليه فسوف أطرح بعض الملاحظات التي قد يستفيد المؤلف منها إذا تقصاها بحثًا فيما لو حاول تطوير فكرته ، وفي الوقت نفسه أعتقد أنها ضرورية لقارئ الكتاب .

الملاحظة الأولى

تعالج الملاحظة الأولى العلاقة بين العنوان الخارجي على غلاف الكتاب وعنوان متن الكتاب . فغلاف الكتاب يحمل عنوانًا هو «نشأة وتطور الكتابة في الجزيرة العربية» بينما لا يحمل متن الكتاب إلا عنوانًا واحدًا هو «أصل ونشأة الخط في الجزيرة العربية» . وكما هو واضح فإن العنوانين لا يتفقان ، حيث هناك فرق بين الكتابة والخط ، فالكتابة قد تكتب بأكثر من خط ، بينما الخط يمثل وحدة واحدة غير قابلة للانقسام .

ونجد ، كذلك ، تناقضًا بين العنوانين ومحتوى الكتاب فالعنوانان يتحدثان عن نشأة الكتابة وتطور الخط في الجزيرة العربية ، وعند قراءة نص الكتاب نجد أن المادة العلمية التي قام بدراستها المؤلف لم تخرج عن النطاق الجغرافي للمملكة العربية السعودية . ومما يؤكد ذلك خلو الكتاب من أي مراجع عن الرسوم الصخرية في أجزاء شبه الجزيرة العربية الأخرى ، علمًا أن هناك الكثير من المادة المنشورة من قطر وعُمان واليمن .

الملاحظة الثانية

تعالج الملاحظة الثانية طريقة توثيق المعلومات التي نهجها المؤلف في الكتاب ، والتي تبدو عليها الفوضى في جلّ نقاطها ، ومنها :

أ - عدم تحديد المؤلف لأرقام الصفحات التي أحال إليها القارئ في أي مرجع من المراجع التي وردت في كتابه.

ب - الاختلاف التام بين المراجع الواردة في متن النص والمراجع الواردة في قائمة المراجع المرفقة في آخر الكتاب ، ففي النص ذكر المؤلف تسعة وأربعين مرجعًا بينما أورد في قائمة المراجع ثمانية وعشرين مرجعًا فقط ، لم يرد منها في نص الكتاب سوى ثلاثة فقط ، منها اثنان للمؤلف ليس لهما علاقة بنشأة الكتابة أو الخط . ونلاحظ أنه لم يرد في قائمة المراجع من بين التسعة والأربعين مرجعًا الواردة في نص الكتاب سوى ثلاثة مراجع (قارن القائمة المرفقة بقائمة المؤلف) .

ج - يلاحظ أن قائمة المراجع الموضوعة في آخر الكتاب تحتوي على مراجع لها صلة مباشرة بنشأة الكتابة وتطور الخطوط ، ولكن الأمر المحير هنا هو عدم ظهور تلك المراجع في نص الكتاب مما يجعلني أعتقد أن المؤلف لم يستفد منها . كما أن عدم ورودها في نص الكتاب صيرني متسائلاً عن الهدف من رصد كت يستفد منها البحث ، وترك المراجع التي [illegible] النص بدون توثيق . ويلاحظ أيضًا ، أن قائمة المراجع ليست مرتبة ترتيبًا أبجديًا كما جرت عليه العادة في

د – عدم ورود المراجع بثبت كامل في قائمة المراجع، واقتصار المؤلف على إيرادها داخل النص ، واستخدامه لاسم العائلة فقط ، أضاع على الباحث والمؤلف نفسه فرصة الرجوع إليها في وقت الحاجة . بالإضافة إلى أن هناك أكثر من كاتب باسم عائلة واحدة ، والفارق بين كاتب وآخر هو الاسم الأول ، وحيث إن الاسم الأول لم يرد فإنه من الصعب على قارئ الكتاب الرجوع إليها وهذا أمر مخالف لأبسط قواعد المنهجية العلمية .

هـ – عدم وجود علاقة بين موضوع الكتاب وأغلب المراجع الواردة في نصه . ومثال ذلك أن المؤلف أورد مقالاً لوينت وريد نشر عام ١٩٦٢م وهو كما أعرف مقال لا يتجاوز الصفحة ونصف الصفحة كُتِب كتقرير عن أعمال البعثة الكندية التي نفذت عام ١٩٦٢م في شمال المملكة العربية السعودية وشمالها الغربي ، ولا يحتوي على مناقشة لنقوش أو نشأة كتابة ، وعنوانه هو : Report on the Arabian Expedition of 1962. Bulletin of the American Schools of Oriental Research, no. 168 : 9-10.

و – نسب المؤلف بعض المراجع التي ذكرها لغير أهلها وكأنه كان في عجلة من أمره ، أو أنه يجهل حقيقة تلك المراجع . فمثلاً أورد تحت اسم وينت وريد "Winnett and Reed" مرجعًا نُشر عام ١٩٣٧م وأعتقد أنه لا علاقة لريد بهذا المرجع حيث إن المرجع هو رسالة وينت "Winnett" لدرجة الدكتوراه وعنوانه هو A Study of the Lihyanite and Thamudic Inscription. Toronto . كذلك أورد مرجعًا نسبه لوينت وريد "Winnett and Reed" نشر عام ١٩٧٩م وأعتقد أن ريد "Reed" ليس له علاقة بهذا المرجع حيث إن المرجع المذكور هو بحث قدمه وينت إلى ندوة تاريخ الجزيرة العربية الأولى عام ١٩٧٧م تحت عنوان "A Reconsideration of Some Inscriptions from the Tayma'Area" ، ولكن نشر محصلة تلك الندوة من الأبحاث تأخر فنشره المؤلف، بعد تغيير كثير من آرائه، في دورية الدراسات العربية في لندن تحت العنوان "A Reconsideration of Some Inscriptions from the Tayma' Area" Proceedings of the Seminar for Arabian Studies, vol. 10, 1980 : 133-141 ثم بعد ذلك قام المؤلف بتغيير كثير من أفكاره الواردة في المقالين سالفي الذكر في دراسة نشرها في دورية جامعة الملك سعود في الرياض عام ١٩٨٥م تحت العنوان التالي Studies in Thamudic. Journal of the College of Arts.King Saud University, vol. 12 no. 1, 1985, pp. 1-58. ونتيجة لهذه الدراسات نجد أن وينت قد ألغى جميع الأفكار الواردة في الفصل الخاص بالنقوش في كتاب F.v. Winnett and W. L . Reed, Ancient Records from North Arabia. Toronto: University of Toronto Press, 1970 . وعليه فإنه كان يجب على المؤلف أن يتنبه إلى تطور الدراسة وما استجد فيها .

ز – يذكر المؤلف في (ص٢٤) أن المناطق الواقعة حول تبوك وتيماء ومدائن صالح والعلا وخيبر وحائل قد قام بمسحها آثاريون وعلماء كتابات ذكر منهم جوسين وسافنياك "Jaussen and Savignac" (١٩١٤) ووينت وريد (١٩٣٧) وريكمانز وفيلبي "Rychmans and Philby" (١٩٥١) وهاردنج وبار ودايتون "Harding, Parr, and Dayton" (١٩٧١) . نلاحظ وجود ملابسات كثيرة في الفقرة المذكورة أعلاه حيث يبدو للقارئ أن التواريخ الواردة أعلاه هي تواريخ تنفيذ المسح الذي ذكره المؤلف ، ومن تلك الملابسات التالي :

١ – بالنسبة لجوسين وسافنياك (١٩١٤) فالتاريخ هنا ليس تاريخ مسح إنما تاريخ نشر آخر كتبهم الأربعة حول عملهم في مدائن صالح والعلا وتيماء وعنوانه هو A. Jaussen and Savignac, Mission Archeologiques en Arabie. Paris : La Societé des Fouilles Ar-

cheologiques, 1909-1914.

٢ – أما بالنسبة لوينت وريد (١٩٣٧) ، فلم يقوما بمسح عام ١٩٣٧م إنما التاريخ المذكور هنا هو تاريخ نشر رسالة وينت التي سبق ذكرها أعلاه .

٣ – أما ريكمانز وفيلبي (١٩٥١) ، فالتاريخ المعطى هنا هو تاريخ المسح الذي قام به فلبي في شمال المملكة العربية السعودية . وإن كان المسح الذي تم في وسط المملكة العربية السعودية وغربها وجنوبها الغربي هو المقصود ، فإن المؤلف قد أغفل ذكر الشخص الثالث المشارك في المسح وهو «ليبنز» ، وهو الشخص الذي نشر كتابًا بخصوص ذلك المسح بعنوان ، P. Lippens, Expedition en, Arabia Centrale. Paris, 1956 .

٤ – وبالنسبة لهاردنج وبار ودايتون (١٩٧١)، فإن ترتيب الأسماء غير صحيح ، ويجب أن يأتي كما تظهر الأسماء في المقال المشار إليه وهي كالتالي ، بار ، وهاردنج ، ودايتون . أما التاريخ المعطى فهو تاريخ نشر المقال الثاني بخصوص مسحهم الذي تم إنجازه عام ١٩٦٨م في شمال غرب المملكة ، وعنوانه هو P.J. Parr, G.L. Harding, and J. E. Dayton, Preliminary Survey in Northwest Arabia. Bulletin of the Institute of Archaeology, Vol, 10, 1972, pp. 23-63 .

علمًا أن تيماء لم تكن من الأماكن التي تضمنتها رخصة المسح الممنوحة لهم . كما أنهم لم يقوموا بأي عمل في حائل وخيبر . وتجدر الإشارة إلى أن منطقة خيبر لم يزرها من الأشخاص الواردة أسماؤهم أعلاه إلا فلبي . وأعتقد أنه لم يقم بزيارة منطقة حائل من الأحد عشر اسمًا المذكورة أعلاه إلا وينت وريد وفلبي فقط .

وحيث إن هدف التوثيق هو منح البحث مصداقية ، ومنح القارئ الفرصة للتأكد من المعلومات الواردة في البحث والرجوع إليها في حالة اعتقاده أن هناك فائدة من معالجة المعلومات بطريقة أخرى فإنني أقول إن ما ورد في الفقرة المذكورة أعلاه جاء منافيًا لأبسط قواعد البحث العلمي .

الملاحظة الثالثة

تعالج الملاحظة الثالثة طريقة المؤلف في معالجة المعلومات المتوافرة له :

أ – ذكر المؤلف في (ص ٧) أن فقهاء اللغة والمؤرخين العرب مثل فخري (١٩٥٢) ، وشهيد (١٩٧١) ، وشرف الدين (١٩٧٥) ، الجاسر (١٩٧٦) ، نشروا كتابات قصيرة عن الخط العربي القديم مثل الثمودي واللحياني ولكن القاعدة الأساسية التي اعتمدوا عليها في كتاباتهم هي ما قدمه فقهاء اللغة الأوربيون ، ولذا فإن المؤلف يرى أنهم لم يضيفوا إلا القليل .

ونجد في الفقرة المذكورة أعلاه مغالطات كثيرة تحمل القارئ ما لا يطيق عند رغبته في الرجوع إلى تلك المراجع . فأعتقد أن فخري لم ينشر عام ١٩٥٢م شيئًا عن نشأة الخط في الجزيرة العربية عامة والمملكة العربية السعودية بصورة خاصة ، وربما كان المؤلف يقصد رحلته إلى اليمن والتي نشر عنها ثلاثة مجلدات بعنوان An Archaeological Journey to Yemen Cairo, 1951-1952, 3 Vols.

وبالنسبة لشرف الدين فأعتقد أن كتابه المشار إليه لم يكن موضوعه الخط أو الكتابة ، فهو كتاب يتطرق للغة العربية قبل الإسلام من ناحية صرفها ونحوها ولهجاتها ؛ وعنوانه هو ، اللغة العربية في عصور ما قبل الإسلام . القاهرة : سجل العرب ، ١٩٧٥م. وبالنسبة لحمد الجاسر (١٩٧٦) ، فلا أعرف كتابًا للشيخ حمد الجاسر موضوعه نشأة الخط أو الكتابة نشر في التاريخ المذكور أعلاه .

ب – قدم الكاتب نماذج رسوم صخرية عديدة (ص ١٣ ، ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٢) يعتقد أن الخط الثمودي قد تطور منها ، ولكنه لم يقدم لنا أية قراءة لتلك النماذج . ففي حالة كهذه أجد أنه من الصعوبة بمكان فهم الكيفية التي بنى عليها المؤلف نظرية تطور الكتابة في المملكة العربية السعودية . وإذا كان التماثل بين الأشكال هو المعيار الذي بنى عليه نظريته فكثير من الأشكال التي تظهر في الكتابة تظهر في الزخرفة على المواد الأثرية الأخرى أيضًا .

الملاحظة الرابعة

تعالج الملاحظة الرابعة التصنيف الزمني الذي استخدمه المؤلف لكي يصل إلى مراحل زمنية للرسوم الصخرية . مبينًا من خلالها التطور الفني الذي قاد في نهاية الأمر إلى ظهور الأبجدية الثمودية ويتضمن تصنيف المؤلف المراحل التالية :

المرحلة الأولى : تعود إلى العصر الحجري الحديث (ص٩) .

المرحلة الثانية : تعود إلى العصر الحجري الحديث المتأخر (ص ٩) .

المرحلة الثالثة : تعود إلى العصر الكالكيولثي (ص٩- ١٠) .

المرحلة الرابعة : تعود إلى العصر البرونزي (ص ١٠) .

المرحلة الخامسة : تعود إلى العصر الحديدي (ص ١١) .

ونلاحظ أن التصنيف المذكور أعلاه يشتمل على امتداد زمني طويل يبدأ في حدود الألف السابع قبل الميلاد وينتهي بظهور اليونان في الشرق عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، كما أنه يوجد لكل مرحلة من تلك المراحل تقسيمات فرعية عديدة . وحيث إن التطور يتضمن عملية الانتقال من شكل إلى آخر مع استمرار بقاء الأصل ، فإن هذا الانتقال يحتاج إلى زمن متصل حيث إن الانقطاع يعني الانعدام وهذا نقيض لقضية التطور . ومن هذا المنطلق نجد أن التصنيف الزمني المذكور أعلاه غير ملائم لمنطوق نظرية توحي بتطور مستمر .

كما نجد أنه من الصعوبة بمكان تطبيق التصنيف الزمني المذكور أعلاه في دراسة الاستيطان في الجزيرة العربية بصورة عامة والمملكة العربية السعودية بصورة خاصة ، حيث إنه من أقدم أنواع التصنيف الزمني المستخدمة في علم الآثار ، ولأنه تصنيف خاص بالدراسات التوراتية في فلسطين والتي يفضل فيها تشخيص العصور والفترات والمراحل الاستيطانية بأسماء المواد التي كانت شائعة خلالها . ويقصد من وراء ذلك طمس هوية الشعوب التي استوطنت فلسطين قبل ظهور الكيان اليهودي فيها في عهد النبي موسى عليه السلام . وتجدر الإشارة إلى أن المتابع لمسار البحث الأثري يدرك أن المنهج المذكور بدأ بالاختفاء حتى في فلسطين ، لكونه أصبح مكشوف الهدف ، ولأن الأهداف التي كان يخدمها قد بدأت في الاختفاء .

كما يلاحظ أن المرحلة الثانية قد أدرجت تحت اسم «العصر الحجري الحديث المتأخر» . وحيث إن المؤلف قد نهج التصنيف الزمني القائم على نسبة العصر إلى المادة الشائعة خلاله ، فإنني أرى أنه لامكان لهذه المرحلة في تصنيفه ، خصوصًا أن زمنها هو زمن المرحلة الثالثة والمدرجة تحت اسم «العصر الكالكيولثي» . هذا إلى جانب أن المؤلف لم يوضح لنا الكيفية التي قسم بها حقب ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية إلى تلك المراحل الخمس ولا أعتقد أنه يملك دليلاً أثريًا على ذلك خصوصًا وأن المؤلف نفسه قد أشار إلى عدم وجوده (ص ١٠) ، فدراسات ما قبل التاريخ في المملكة العربية السعودية لا تزال في حاجة إلى أعمال ميدانية لكي تتوافر الأدلة التي استنادًا إليها يمكن تزمين فترات ومراحل ما قبل التاريخ .

الملاحظة الخامسة

تعالج الملاحظة الخامسة ادعاء المؤلف شيئًا كان يجب ألا يدعيه لنفسه . وفي هذا الخصوص نجد المؤلف في هامش (ص ١٦) يذكر أن الخط الثمودي أخذ اسمه من اسم قبيلة كانت مستوطنة في الأماكن التي وجدت فيها النقوش الثمودية ، ولكنه يرى أن قبائل أخرى كانت مستوطنة في الأماكن نفسها ودونت بالخط نفسه ، وعليه فإنه يقترح تسميته «خط البادية» بدلاً من اسم «الخط الثمودي» . يبدو أن المؤلف ليس على علم أن هذه الأمور قد طرحت من قبل وفندها باحثون آخرون مثل بيستون الذي ناقشها قبل حوالي ثلاثين عامًا في بحث نشره عام ١٩٦٤م عنوانه هو A. Beeston, The Graffiti. In: G.L. Harding, Archaeology in the Aden Protectorates. London: Her Majesty's Stationery Office, 1964, pp51-52.

كما ذكرها باحثون عرب آخرون ومنهم جواد علي في كتابه : المفصل في تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، الجزء الثامن . بيروت : دارالعلم للملايين ، ١٩٧٨م ، ص ٢٤٠ .

وختاماً نسأل الله العلي القدير التوفيق والسداد .

التخطيط الاقتصادي لقطاع التعليم في المملكة العربية السعودية



عبداللطيف بن عبدالله العبداللطيف

العبداللطيف ، عبداللطيف بن عبدالله / التخطيط الاقتصادي لقطاع التعليم في المملكة العربية السعودية .- رسالة (ماجستير) .- إشراف محمد أمين اللبابيدي ، محمود بلال مهران .- مكة المكرمة : جامعة أم القرى ، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ، قسم الدراسات العليا الشرعية ، ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

يتناول هذا البحث موضوع التخطيط الاقتصادي لقطاع التعليم في المملكة العربية السعودية ، وقد تعرض الباحث لهذا الموضوع من الجوانب الآتية :

بيان مفهوم التخطيط الاقتصادي وأهميته في الإسلام وحكمه وضابطه ، ومفهوم الخدمات العامة وعلاقتها بالتنمية الاقتصادية ، ومن ثم إيضاح أهمية التعليم وأسسه من الناحية الاقتصادية بالمملكة العربية السعودية ووجهة النظر الإسلامية فيها ، وبيان العوامل المؤثرة في التخطيط الاقتصادي للتعليم بالمملكة العربية السعودية ، وتناول جانب التخطيط للقوى العاملة وعلاقته بالتعليم في المملكة العربية السعودية ووجهة النظر الإسلامية في ذلك ، وبيان الأهداف والسياسات الاقتصادية للتعليم في المملكة العربية السعودية ومنجزاتها ، ومن ثمَّ إيضاح لعملية الإنفاق على التعليم وأساليب قياسه ، وبيان مصادر تمويله الرئيسة والإضافية وحكمها في الإسلام ، وأخيرًا تناول دور التعليم وآثاره الاقتصادية المباشرة وغير المباشرة على الفرد والمجتمع .

وقد توصل الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات لعل من أبرزها : التوصل إلى بيان أهمية التخطيط في الإسلام والضوابط الشرعية التي تحكمه ، وأهمية التعليم من الناحية الاقتصادية ، والعلاقة المتبادلة فيما بين التنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية ، وعلاقة التعليم والتدريب بعمليات التخطيط للقوى العاملة ، والتزايد المستمر في حجم النفقات التعليمية ، والآثار الاقتصادية المباشرة وغير المباشرة للتعليم .
أما التوصيات فمن أهمها : ضرورة ربط التخطيط للتعليم والتدريب باحتياجات التنمية الاقتصادية في المجالات المختلفة ، والبحث عن مصادر تمويل إضافية أخرى للتعليم ، وعمل دراسات عن تكلفة تعليم الطالب وعن أثر التعليم في زيادة الدخل والإنتاجية بالمملكة العربية السعودية ، ودعوة الدول الإسلامية إلى وضع سياسات لاستيعاب المواهب العلمية والفنية النادرة المهاجرة منها وذلك للاستفادة من قدراتها في خدمة الأمة الإسلامية .

تأثير البيئة الاقتصادية على السياسات الإدارية للشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الغربية

عبدالإله عبدالله القثامي

القثامي ، عبدالإله عبدالله / تأثير البيئة الاقتصادية على السياسات الإدارية للشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الغربية .- رسالة (ماجستير) .- إشراف مدني عبدالقادر علاقي ، عبدالفتاح فتح الدين .- جدة : جامعة الملك عبدالعزيز ، كلية الاقتصاد والإدارة ، قسم إدارة الأعمال ، ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م .- ٢٥٤ ورقة .

أظهرت الأبحاث الإدارية في النصف الثاني من هذا القرن الميلادي أهمية تأثير البيئة الخارجية وخاصة الاقتصادية في تحديد مستوى كفاءة وفعالية ونجاح المنظمة في تحقيق أهدافها . لذلك اتجهت هذه الدراسة إلى المشكلة المتمثلة في التغيرات الاقتصادية التي طرأت على السياسات الإدارية للشركة السعودية الموحدة في المنطقة الغربية ، وكذلك استطلاع الصعوبات والمشكلات والمعوقات في مجال تخطيط وتنظيم ومراقبة السياسات الإدارية المتنوعة بها .

وقد قامت هذه الدراسة على جانب نظري ، وآخر ميداني ، تم التعرض لهما كما يلي :

الجانب النظري : تناولت فيه هذه الدراسة الدوافع الرئيسة التي شجعت الباحث لاختيار موضوع الدراسة والفروض التي انطلقت منها ، وقد حددت هذه الفروض بفرض رئيسي انبثق منه ثلاثة فروض فرعية هي :

الفرض الرئيسي : الاتجاهات الحالية للاقتصاد السعودي لا تساعد الشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الغربية في سياساتها نحو النمو لمجابهة الطلب المتزايد على الطاقة الكهربية في منطقة امتيازها من خلال بعض المتغيرات وخصوصًا التالية :

١ - تحد السياسات المالية الحالية من نمو قدرات الشركة في مجال سياسات الإنتاج وتسويق الطاقة الكهربية .

٢ - تحمل السياسات النقدية المتبعة الشركة أعباء مالية على تكاليفها التشغيلية ، الأمر الذي يؤثر على سياساتها في مجال التمويل والاستثمار .

٣ - تلقي البيئة الاقتصادية أعباء أخرى على سياسات الشركة في مجال الأفراد وخصوصًا فيما يتعلق بتوصيف الوظائف وتدريب الأيدي العاملة الفنية .

وقد تناولت الدراسة النظرية أيضًا توصيفًا لتطور قطاع الكهرباء بالمملكة العربية السعودية بشكل عام ، وتطور الشركة السعودية الموحدة للكهرباء في المنطقة الغربية، وكذلك توصيفًا لأهم المتغيرات والأدوات التي تؤثر على البيئة الاقتصادية ثم تحديدًا لمفهوم السياسات الإدارية وأنواعها، وأسلوب وضعها والعوامل التي تؤثر عليها .

وفيما يتعلق بالدراسة الميدانية ، فقد صممت الدراسة على أساس تحديد منهج البحث وحدوده ومجتمعه ، وأفراد العينة المختارة من الإدارة العليا والوسطى ووسائله وأسلوب جمع وتحليل البيانات .

وقد قام الباحث بتحليل البيانات والمعلومات التي جمعها من خلال استمارة الاستبيان والمقابلات التي أجراها مع مفردات الإدارة العليا والوسطى وفق منهج يعتمد على مؤشرات عامة يتم استخلاصها من المتوسط الحسابي العام لتحليل العنصر ، ومن ثم تفصيل تلك المؤشرات العامة من خلال إيجاد نسبة التكرار لكل متغير يتم تعزيزه بالمتوسط الحسابي لذلك المتغير على مستوى جميع أفراد العينة ، وعلى مستوى مفردات الإدارة العليا، وعلى مستوى مفردات الإدارة الوسطى ، ومن ثم تعزيز ذلك بنتائج المقابلات ومنها توصل الباحث إلى نتائج هذه الدراسة .

وبناء على تلك النتائج التي أثبتت صحة فروض هذه الدراسة قدم الباحث مجموعة من التوصيات :

أ - توصيات موجهة إلى الجهات الحكومية المسئولة عن وضع السياسات الاقتصادية بالمملكة والتخطيط الاستراتيجي لخطط التنمية وقطاع الكهرباء في المملكة العربية السعودية ، وخصوصًا في مجالات إعادة ترتيب أهداف السياسة الاقتصادية نحو قطاع الكهرباء ، وحث جميع المؤسسات الحكومية سواء كانت مستهلكة للطاقة أو مدعمة لهذا القطاع وشركاته على دفع مستحقاته المجمدة، وتحميل المستهلكين جزء أكبر من تكلفة إنتاج الطاقة ، الأمر الذي سيساعد على تحقيق فوائد عديدة لهذا القطاع وشركاته ، والأفراد والمنظمات المستفيدة من إنتاجه .

ب - توصيات موجهة إلى الإدارة العليا بالشركة في إطار الاهتمام بسياسات الإنتاج والتسويق والأفراد والسياسة المالية بها .

ج - توصية أخرى موجهة أيضًا إلى الإدارة العليا بالشركة لإعادة سياسات ترشيد الإنفاق ، بالإضافة إلى اقتراح بعمل مجموعة دراسات على البيئة الداخلية للشركة للتعرف على أهم متغيراتها لتحديد طبيعتها ، وأهم خصائصها .

الدولة الزيارية في طبرستان وجرجان خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة



سعد بن عبدالعزيز القصيبي

القصيبي ، سعد بن عبدالعزيز / الدولة الزيارية في طبرستان وجرجان خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة ٠- رسالة (دكتوراه) ٠- إشراف حامد غنيم أبو سعيد ٠- الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، كلية العلوم الاجتماعية ، قسم التاريخ والحضارة ، ١٤١٢هـ / ١٩٩١م .

تتكون الرسالة من مقدمة وتمهيد وسبعة فصول وخاتمة .

تتناول المقدمة التعريف بالموضوع وأهميته ، والطريقة التي يعالج بها الموضوع ، ثم تقسيم الرسالة ، وقبل ذلك كله الصعوبات التي اعترضت الباحث و أخيرًا دراسة لأهم المصادر والمراجع

التي اعتمدت عليها الرسالة .

وكان التمهيد عبارة عن مدخل لموضوع الرسالة ، اختص القسم الأول منه بالحديث عن جغرافية المنطقة (جرجان وطبرستان) الزيارية ، أما القسم الثاني من التمهيد فقد تحدث بصورة إجمالية عن الأوضاع والأحوال السائدة في المنطقة قبل قيام الدولة الزيارية .

أما الفصل الأول فقد خصص للحديث عن مدة تأسيس الدولة الزيارية تحت قيادة مؤسسها مرداويج بن زيار وأحوالها في عهده حتى مقتله في سنة ٣٢٣هـ .

وتناول الفصل الثاني من الرسالة تاريخ الدولة الزيارية في مرحلة التكوين والتوطيد حيث يشمل عهد الأمير وشمكير بن زيار وابنه بيستون ، وذلك من سنة ٣٢٣هـ حتى سنة ٣٦٦هـ وأحوالها في عهدهما .

وعالج الفصل الثالث تاريخ الدولة الزيارية في مرحلة الازدهار ، وذلك في عهد الأمير قابوس بن وشمكير (شمس المعالي) وابنه الأمير منوجهر ، ومن سنة ٣٦٦هـ حتى سنة ٤٢٠هـ .

تلي ذلك مدة الضعف والتبعية السياسية ، فقد تناولها الفصل الرابع من الرسالة وهي الفترة الأخيرة من تاريخ الدولة الزيارية حتى سقوطها نهائياً سنة ٤٧٠هـ .

وتخصصت الفصول الثلاثة الخامس والسادس والسابع في الحديث عن الجوانب الحضارية للدولة الزيارية من مختلف الجوانب .

فنجد الفصل الخامس قد تناول الحديث عن نظام الحكم في الدولة وأبرز وظائفه الإدارية .

ويغطي الفصل السادس الحديث عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، مثل عناصر السكان ، وعادات المجتمع وتقاليده ثم الحديث عن الجوانب الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة في عهد الزياريين .

وكان ختام فصول الرسالة الفصل السابع وتضمن الحديث عن الحياة العلمية والثقافية والأدبية ، وما اشتهرت به الدولة والمنطقة من علوم وآداب تميزت بها ، وأصبحت إحدى مراكز الحضارة الإسلامية في تلك الفترة .

تلا ذلك الحديث عن أهم النتائج الخاصة بالبحث وهو ما دوِّن في آخر الرسالة من خاتمة البحث .

تقارير

ندوة الاحتفاء بذكرى الإمام جلال الدين السيوطي بمناسبة مرور خمسة قرون على وفاته

نظم الأزهر الشريف، والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسيسكو) واللجنة الوطنية المصرية للتربية والعلوم والثقافة (ندوة الاحتفاء بذكرى الإمام جلال الدين السيوطي بمناسبة مرور خمسة قرون على وفاته) بمركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي - جامعة الأزهر - في الفترة من ١١ - ١٣ شوال ١٤١٣هـ / ٣ - ٥ أبريل ١٩٩٣م .

والهدف من الاحتفاء بالإمام جلال الدين السيوطي كما أشير في برنامج الندوة بوصفه أحد كبار الأئمة والعلماء المسلمين الذين كان لهم إسهامهم الفعال في مختلف علوم الشريعة خاصة علوم القرآن فهو من كبار المفسرين، ومن أعلام السنة والحديث والفقه واللغة.

أما كيفية تكريم الإمام السيوطي فكانت كالآتي:

١ - ندوة علمية تحدثت عن الجوانب الأساسية لإسهاماته في علوم الشريعة، شارك فيها لفيف من العلماء والفقهاء من مختلف الدول العربية والإسلامية .

٢ - مائدة مستديرة حول أحد أهم مؤلفات الإمام السيوطي هو كتابه: «الرد على من أخلد إلى الأرض وجعل أن الاجتهاد في حق كل عصر فرض» .
شارك في المائدة المستديرة نخبة من المفكرين والفقهاء .

٣ - أقيم معرض لأهم مؤلفات الإمام السيوطي، ختمَّ كذلك بعض أمهات الكتب الفقهية، ويظهر إسهام الأزهر في طباعة كتب الإمام السيوطي وتحقيقها ونشرها .

وقد جاء موضوع هذه الندوة في خمسة محاور رئيسة، هي :

المحور الأول : السيرة الذاتية للإمام جلال الدين السيوطي.
المحور الثاني : أثر الإمام السيوطي في علوم اللغة .
المحور الثالث : أثر الإمام السيوطي في علوم القرآن .
المحور الرابع : أثر الإمام السيوطي في علوم الحديث .
المحور الخامس : أثر الإمام السيوطي في أصول الفقه والفقه .

المحور الأول : السيرة الذاتية للإمام جلال الدين السيوطي .

وُزعت أبحاث هذا المحور على جلستين :

الجلسة الأولى : وألقي فيها ثلاثة أبحاث :

البحث الأول : الإمام العلامة جلال الدين السيوطي. لغيث سلامة أبو غيث .

البحث الثاني : ثقافة الإمام السيوطي. لحسن نور يوسف.

البحث الثالث : اتهام جلال الدين السيوطي بين التبرئة والإدانة . لعدنان أحمد درويش .

الجلسة الثانية : وألقي فيها أربعة أبحاث :

البحث الأول : نظام الدراسة والامتحان وتخريج الأساتذة والإجازات العلمية في عصر السيوطي . لمجاهد توفيق مجاهد .

البحث الثاني : مشكلة العنوان في مؤلفات السيوطي وأثرها في اضطراب عددها بين الدارسين . ليحيى محمود ساعاتي .

البحث الثالث : مخطوطات السيوطي في خزائن اسطمبول . لأكمل الدين إحسان أوغلو .

البحث الرابع : موقف السيوطي من العلوم العقلية . لمصطفى غلوش .

المحور الثاني . أثر الإمام السيوطي في علوم اللغة .

ألقي في هذا المحور خمسة أبحاث :

البحث الأول : ثقافة الإمام جلال الدين السيوطي ودراساته وإنتاجه وجهوده العلمية في الدراسات الإسلامية اللغوية . لمحمد سليمان فرج .

البحث الثاني : منهجية الإمام السيوطي في البحث اللغوي . لعلي القاسمي .

البحث الثالث : الإمام السيوطي النحوي ومكانته في مدرسة ابن مالك . لمختار ولد أباه .

البحث الرابع : تطبيق السيوطي لمصطلح الحديث على الرواية اللغوية . لشوقي ضيف .

البحث الخامس : الألفاظ الأعجمية في القرآن الكريم «كتاب المهذب» للإمام السيوطي . لعبدالقادر حسين .

المحور الثالث . أثر الإمام السيوطي في علوم القرآن .

وقد ألقي في هذا المحور خمسة أبحاث :

البحث الأول : شخصية الإمام السيوطي من خلال كتابه الإتقان في علوم القرآن . لمحمد فاروق النبهان .

البحث الثاني : الإمام السيوطي مفسرًا . لعبدالحيي الفرماوي .

البحث الثالث : كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة . لضياء الدين بونباد .

البحث الرابع : تأثير الإمام السيوطي في منهج تفسير القرآن الكريم بالسنغال . لشارنوكاه الحبيب .

البحث الخامس : تعليم تفسير الجلالين في التربية الإسلامية التقليدية في أندونيسيا . لشفيق مغني .

المحور الرابع . أثر الإمام السيوطي في علوم الحديث .

وألقي في هذا المحور ستة أبحاث :

البحث الأول : الرواية عند الإمام السيوطي . لنور الدين عتر .

البحث الثاني : الإمام السيوطي وجوامعه . لمحمد حسام الدين .

البحث الثالث : أثر السيوطي في ازدهار علوم الحديث في شبه القارة الهندية . لمحمد شريف السيالوي .

البحث الرابع : الإمام جلال الدين السيوطي وجهوده في السنة . ليحيى إسماعيل .

البحث الخامس : الإمام السيوطي وجهوده في رواية الحديث . لعزت علي عطية .

البحث السادس : الإمام السيوطي وجهوده في علوم الحديث «علم الدراية» . لعبدالمنعم نجم .

المحور الخامس . أثر الإمام جلال الدين السيوطي في علمي أصول الفقه والفقه .

وألقي في هذا المحور ستة أبحاث :

البحث الأول : مع الإمام جلال الدين السيوطي في الفقه . لجاد الحق علي جاد الحق .

البحث الثاني : الإمام السيوطي وأثره في علم أصول الفقه . لمحمد الحفناوي .

البحث الثالث : الإمام السيوطي فقيهًا . لأمينة محمد بن يوسف الجابر .

البحث الرابع : إثراء النهضة المعاصرة بقواعد الفقه الكلية وفقًا لمنهج الأشباه والنظائر للسيوطي . لمحمد خير حسب الرسول أحمد .

البحث الخامس : شخصية الإمام السيوطي وملامح عصره وبيئته من فتاويه . لناصر سعد الرشيد .

أما المائدة المستديرة ، فقد دارت حول كتاب «الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض» للسيوطي ، وهي من أهم مؤلفاته ، حيث شارك في المائدة المستديرة نخبة من العلماء والمفكرين .

وقد صادفت إقامة هذه الندوة صدور العدد (٥١) شوال ١٤١٣هـ / نيسان (أبريل) ١٩٩٣م من مجلة «التراث العربي» الفصلية التي تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق (سوريا) ، وخصص هذا العدد عن جلال الدين السيوطي ، فتناولت الموضوعات التالية :

– جلال الدين عبدالرحمن السيوطي – موقعه في عصره – قلمه يروي حياته . لعبدالكريم اليافي .

- عصر جلال الدين السيوطي - والحياة العلمية فيه . لمحمد زهير البابا .
- جلال السيوطي .. الإنسان . لعبداللطيف أرناؤوط.
- السيوطي - علامة عصره . لسعدي أبو حبيب .
- اتهام الجلال السيوطي بين التبرئة والإدانة . لعدنان درويش .
- السيوطي - أمام التفسير بالمأثور في القرن العاشر . لوهبة الزحيلي .
- إسهام السيوطي بالإفتاء . لمحمد الزحيلي .
- الألفاظ المعربة في القرآن الكريم - وموقف السيوطي منه . لمحمد يوسف الشربجي .
- مشتهى العقول في منتهى النقول . تأليف : جلال الدين السيوطي . تحقيق : بديع اللحام .
- مؤلفات جلال الدين السيوطي - المخطوطة والمطبوعة .